سلسلة الآثار الكاملة - ٦-

الإمام علي في محنه الثلاث

محنة التاريخ - محنة التشيع - محنة الإنسان

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

الأستاذ علي الحسيني

تقديم

الدكتور إبراهيم دسوقي شتا

دار الأمير

الإمام علي في محنه الثلاث

محنة التاريخ ـ محنة التشيع ـ محنة الإنسان


بسم الله الرحمن الرحيم

إسم الكتـاب : الإمام علي في محنه الثلاث

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : الأستاذ علي الحسيني

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

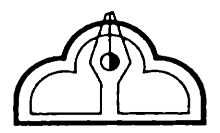
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-03-6

الطبعة الأولـى : ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

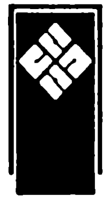
التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر. بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا. . ، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

علي شريعتي: حياة وفكر

بقلم الدكتور ابراهيم دسوقي شتا
استاذ اللغات الشرقية
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

لا شك في أن ثورة إيران الإسلامية أهم أحداث القرن الرابع عشر الهجري قاطبة إن لم تكن أهم الأحداث في تاريخنا المعاصر، بل إن الانتصار المحيّر لهذه الثورة سوف يكون مجال بحث وأخذ ورد ونقاش مستمر بين الباحثين في العالم، ذلك أنه ـ وربما لأول مرة في التاريخ ـ تقف أمة مستضعفة خالية الأيدي مفتوحة الصدور إلا من سلاح واحد تملكه، وهو الإيمان في وجه قوى طاغوتية، وتقف وتصمد ولا تبخل ببذل الروح والدم حتى تجندل في النهاية كل القوى الطاغوتية، وتُلقي بها في مزبلة التاريخ، وهذا في حد ذاته يثبت أن سلاح الإيمان غير قابل للهزيمة، ويبرهن تماماً إلى أي حد تستطيع البلاد الإسلامية أن تستفيد من هذا السلاح القديم الجديد، الخفي والمتروك، لكنه كالنار تحت الرماد يومض ويحيا في قلب الأمة.

هذا الأصل الإسلامي للثورة، أي الأفكار الإسلامية التي فجرت الثورة وفي الوقت نفسه فجّرتها الثورة فتحولت من خلالها إلى قوى حية وفعالة، هو بلا جدال أهم أصول الثورة، لأنه مهما

قيل عن اتجاهات الثورة، ومهما كان الهجوم الذي تتعرض له من عدو حاقد أو منافق مشفق أو مدّعي أخوّة لكي يشوه من وجه الثورة، فإن الثورة الفكرية التي واكبت الثورة الفعلية سوف تبقى وتنتشر، ذلك أن تأثير مفكري الثورة «**علي شريعتي**» «**وآية الله الطالقاني**» «**وآية الله مطهري**» «**وغيرهم**» في نشر الفكر الثوري، وتحويل المبادىء إلى تيارات حية في قلب الأمة لا يقل تأثيراً إن لم يزد عن دور أولئك الذين بذلوا الأرواح. . في الميادين وإن كان علي شريعتي أبعد أثرا. . لقد كان الحاضر الغائب في ساحة الصدام، ذلك أنه كان قد استشهد قبل انفجار الثورة بعدة شهور.

ولد علي بن محمد تقي شريعتي في «مزينان» وهي قرية من قرى سنرواز في منطقة خراسان تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت كوير» سنة ١٣١٢ هـ. ش [ديسمبر سنة ١٩٣٣م]، كان أبوه محمد تقي شريعتي من كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، أسس في مدينة مشهد بالاشتراك مع عدد من رجال الدين المناضلين «مركز الحقائق الإسلامية» (كانون حقايق إسلامي)، وقام بنشاط واسع في تنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من (الدخيل) والخُرافة. . كما قام بتوعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع، وفي مثل هذه البيئة، وفي كنف مثل هذا الأب شبَّ (علي شريعتي)، مهتماً منذ طفولته بقضايا الدين والأمراض المنتشرة في المجتمع، مدركاً أن مبادىء الدين الموجودة في الكتب التي تُدرّس شيء، وتلك الشعائر التي يمارسها الناس شيء آخر، أمّا التشيع الحقيقي فهو شيء ثالث مختلف تماماً، وبالرغم من اكتشافه هذه الحقيقة في سن صغيرة،

لم يقم كما قام غيره بالفرار من الدين والنفور منه ونبذه ظهريا . . كان يرى أن الدين في حاجة إلى ثورة تقوم بتحويله من عامل ضعف وخمول إلى عامل قوة وطاقة وحياة.

إلى جوار ذلك لم يعكف شريعتي على البحث المُجرّد فحسب، بل انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد صبياً، وبعد سقوط **مصدق** انضم إلى حركة المقاومة التي أسسها **آية الله زنجاني وآية الله طالقاني ومهدي بازركان**، وعندما ضربت بعنف سجن شريعتي ستة أشهر ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الآداب (سنة ١٩٥٨) وعندما تخرّج من الجامعة من كلية الآداب بدرجة الإمتياز في السنة التالية برغم كل هذه الظروف، أُرسل في بعثة إلى فرنسا (سنة ١٩٥٩).

وتُعد سنوات فرنسا من أكثر السنوات خصباً في حياة شريعتي القصيرة العريضة، كان شاباً ذا ضمير طاهر ذكيا يقظ القلب، مسلماً حقيقياً يعرف تماماً قيمة كونه مسلماً حقيقياً، عرف تراثه جيداً، وحمل معه زاداً غنياً وفياضاً وقيماً من الثقافة الإسلامية، وبالتالي لم يتعرض شريعتي لتلك الصدمة التي يتعرض لها المبعوثون من العالم الفقير المستضعف عندما يتعاملون مع العالم الغني المستكبر لأول مرة، فتكون نتيجتها أن «يتغربوا» و «يفرغوا من الداخل» و«يتشبهوا» دون مقاومة. لم يحس بنفسه قط «كمسلم» ضئيلاً أو صغيراً أو متخلفاً أمام الجبروت الغربي، لم يفقد شخصيته الإسلامية وذاته الحقيقية، بل على العكس كانت فرصته سانحة لكي يعرف شريعتي عن قرب حقيقة الحضارة الأوروبية، والشخصية الغربية وكبرياءها وغرورها، ووسائل الاستعمار الجديد، وسياسة السلب والنهب

والتسلل وطحن الإنسان. وعلى أساس من هذا الفهم وضع شريعتي أهم نظرية في فكرة الحي الثوري، وهي نظرية العودة إلى الذات، ومرة أخرى وبعد ما يقرب من مائة سنة من **السيد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده**، يثبت علي بن محمد شريعتي أن المسلم الصادق المؤمن، العارف بأصول الفكر الإسلامي، والمتفهم للإسلام جيداً، لا يمكن أن يحوّل وجهه عن الإسلام أو أن يرضى عنه بديلاً. وإن الحضارة الغربية مهما كانت «عالمية» ومسيطرة ومتسلطة لا يمكن أن تصلح للمسلم الحقيقي، بل إن المسلم الحقيقي يستطيع أن يدرك نقاط الضعف في الحضارة الغربية وأن يستغلها لصالح الإسلام، على الأقل عندما يقوم بمقارنة هذا الذي يُقدّم على أنه «الحل الأخير» بما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. وهكذا فعل شريعتي عندما اختار علم الاجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن تلك الشعوب الإسلامية المقهورة، لن تتحرك إلا بالدين، ولن تنجو إلا بالإسلام. فنال الدكتوراه في علم الاجتماع الديني، كما نال دكتوراه ثانية في تاريخ الإسلام. وفي فرنسا واصل نشاطه السياسي، فأسس فرع أوروبا **لحركة تحرير إيران** التي أنشأها بازركان وطالقاني سنة (١٩٦١)م، وشارك مشاركة فعالة في دعم الثورة الجزائرية، وتعرف على مناضلي العالم الثالث من أمثال **إيما سيزار وفرانز فانون** الذي قام بنقل جزء من كتاب «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية، كما سجن في فرنسا لمدة ثلاثة أيام، إذ كان ضمن المقبوض عليهم خلال المظاهرات التي اندلعت في فرنسا احتجاجاً على مصرع **لومومبا**.

وفي منتصف الستينات عاد شريعتي إلى إيران، وعلى الحدود

ألقي القبض عليه، ثم أطلق سراحه بعد فترة، عُيِّن مدرساً بجامعة مشهد. حسناً: كان شريعتي يستطيع آنذاك أن يكون أستاذاً مثل بقية الأساتذة، مفكراً مزيفاً ومفرغاً من الداخل، وناقداً وعالماً بالغرب، ودليلاً متطوعاً للتنوير والتغريب، ذا حيثية وأموال ووجه متألق في وسائل الإعلام، متحدثاً في كل محفل، وخطيباً لكل مجلس، لكن متى يمكن للمسؤول الملتزم ذي الهدف المحدد الواضح أن يكون أهلاً لهذه الأمور؟! عاد شريعتي وبدلاً من أن يقوم بترجمة «الوجود والعدم» لسارتر، ويشتهر كفيلسوف «وجودي» ترجم «سلمان الفارسي» لماسينيون. وبدلاً من أن يكتب عن أقطاب الغرب كتب عن «أبي ذر الغفاري». وبدلاً من أن يتحدث عن الأصول، التي لم تكن موجودة سوى في خيال الإعلام (الشاهنشاهي)، وفلاسفة الماركسية الشاهنشاهية المفسّرين لعهد «أعتاب الحضارة العظمى»، أخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني. وكم من الأحجار ألقاها في ذلك المستنقع الآسن الذي كان غائباً في نوم الغفلة، وفجأة خلال هذا الحلم (الشاهنشاهي) عن «حضارة الشاه العظمى» التي تقوم بإحياء عظام ملوك جاهلية إيران، يُعلن الشاب أن إيران لا تملك سوى حضارة الإسلام. لا علماء ولا شعراء، ولا فلاسفة، ولا أدباء فيها إلا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويصبح ذلك الشاب الذي يبلغ نيفاً وثلاثين سنة حجر عثرة، ليس بالنسبة للبلاط فحسب، بل بالنسبة لرجال الدين المنتسبين إلى البلاط «أولئك العمال الهواة للظلمة»، والذين كانوا يجاهدون في تلقين الناس «إسلاماً مزيفاً ضعيفاً متوائماً مع الطواغيت مؤدياً إلى النوم».. وكان صوت شريعتي مخلصاً،

عالماً، بعيد الغور، بسيطاً في نفس الوقت، بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك، ولم يكن هناك بد سوى طرد الشاب «الخطر» من الجامعة ونقله إلى إحدى القرى النائية معلماً في المدارس الابتدائية. لكن «لا بأس»، إنه لم يفقد صفته كمُعلّم على كل حال، فلم يهن ولم يستسلم، والناس يقطعون الفيافي لكي يستمعوا إليه. فتستسلم السلطة وتنقله مدرساً في جامعة طهران، على الأقل لكي يكون تحت سمعها وبصرها قريباً من أعوانها وجواسيسها.

في سنة (١٩٦٩) كانت «حسينية الإرشاد» قد افتتحت لكي تكون مركز إشعاع إسلامي، ويركز فيها شريعتي كل نشاطه، ملقياً محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع، مصححاً من خلالها المفاهيم السائدة، ملقياً بثقل الإسلام عاملاً لشحذ الهمم والتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب، ومؤسساً لخمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة: لجنة لتاريخ الإسلام ولجنة لتفسير القرآن، ولجنة للأدب والفن، ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعي، ولجنة للغة الإنجليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها. والتف حول حسينية الإرشاد جيل كامل من الشباب، نعم، لقد حول المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته. ومرة أخرى أثبت شريعتي أنه هو نفس الأستاذ اليقظ الصامد. وملأ ذلك الرجل الفريد رسالته، وبأسلوب واضح ومفهوم استطاع أن يجعل من قضايا الإسلام قضايا يومية، وفي دروس معرفة الإسلام (إسلام مشناسي)، جلا الإسلام في ضوء بقية الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة، وهيأ أرضية مناسبة

تماماً للثورة الفكرية، وطرح «التشيع العلوي» في مقابل «التشيع الصفوي التقليدي»، وصار وحده جيشاً يقاتل «التغرّب» و«التشبه» و«عبادة الشاه» و«المفكرين المزيفين»، ويقف بالمرصاد للعملاء في لباس رجال الدين ووعاظ السلاطين و«استغلال الدين ضد الدين». وقامت عليه الدنيا وقعدت، فهو حيناً يتهم بأنه وهابي، وحيناً يتهم بأنه زنديق، وهو يقف لكل حملة مفنداً دعاويها، فاضحاً ما وراء أستارها. ولا تجد السلطة بداً من إغلاق حسينية الإرشاد (سنة ١٩٧٣)، وتقوم بالقبض على شريعتي ووالده، ويبقى في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لصنوف العذاب، ويتدخل المسؤولون الجزائريون فيفرج عنه سنة (١٩٧٥) لكنه يوضع تحت المراقبة ويمنع من أي نشاط. وتسمح له السلطة ـ لأمر في نفسها ـ بالرحيل عن إيران في مايو سنة ١٩٧٧، ويسافر إلى لندن. وبعد شهر من إقامته في لندن يعثر عليه ميتاً، ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية، والكل يعلم أنها من تلك النوبات المصطنعة التي دبّرتها السلطة عشرات المرات لأعدائها. ولا تسمح لجثمانه بأن يدفن في إيران، فينقل إلى دمشق ويدفن في الحرم الزينبي، شهيداً شاباً كشهداء الثورة الحسينية التي طالما اعتبرها نموذجاً يحتذى. ويترك لنا حوالى مائة وعشرين عملاً ما بين فلسفي وأدبي وتحريضي، لكنها كلها تتخذ من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب، وتؤدي إلى انخراط جيل كامل من الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران، ويكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

ابراهيم دسوقي شتا

على حقيقة على غرار الأساطير

مقدمـة :

أعتذر أولاً وأعترف مقدماً أنّ حديثي هـذه الليـلة سـوف يكـون حديثاً متعباً ، ولعل السبب في ذلك يعود الى قصور بياني أكثر من أيّ وقت مضىٰ لأنني أنوي الدخول في موضوع لا كباقي المواضيع .. إنّه مـوضوع حساس ومعقد للغاية وإنّي لأشعر بالعجز أمام موضوع من هذا القبيل .

إنّني أريد التعرض الى أسلوبي ورؤيتي في القـضية التـي سـوف أتناولها بيد أنّه أسلوب ورؤية خاصة لم أجد في نفسي النضوج الكـافي الذي يؤهلني للتعبير عنها .

الموضوع مهم للغاية ؛ لأنّه حديث حول علي عليه السلام ، والحديث عن علي عليه السلام عسير وصعب جداً ، لأنّي أعتقد أن علياً لم يكن بطلاً ولم يكن شخصية تاريخية فـحسب ، وكـل مـن أراد الاقـتراب مـن دراسـة الامـام

علي ﷺ في أبعاده وجهاته المختلفة يشعر بذلك ، لأنه سوف لا يقف على شخصية ووجود انساني في التاريخ فقط وانما يجد نفسه واقفاً أمام معجزة بل يشعر بأنه يواجه قضية علمية ... ولغز علمي حساس لانه سوف يواجه لغز « هذا الخلق » .

اذن فالحديث عن علي ﷺ ليس حديثاً عن شخصية عظيمة قد ينقدح في الذهن ـ للوهلة الاولىٰ ـ أنّه حديث ممكن ومتيسر لكل أحد . وانما هو حديث عن المعجزة التي برزت في التاريخ باسم الإنسان وبصورة الإنسان !

لابد من دراسة علي من جهاته المختلفة والتعرف اليه في أبعاده المتعددة .

ثلاث رؤىٰ

الرؤية الأولىٰ :

قد ننظر الى علي باعتبارنا « شيعة » وندرسه من خلال عقائدنا وإيماننا به وبشخصيته ودوره في تاريخ الاسلام وحقه ومقامه .. ونريد أن نعرفه من خلال هذه الرؤية الخاصة .

وهذه الرؤية تطرح أمام الباحث سلسلة خاصة من الموضوعات

والمسائل الخاصة ، ومن حسن الحظ أنّ هذا البعد معروف اكثر ، وقد سلطت عليه الاضواء فأصبح أوضح وأجلىٰ من الابعاد الأخرىٰ ، وإن كان بعد ليس بالمستوىٰ المطلوب الذي يتناسب مع شخصية علي عليه السلام حيث إنّه لم يعرف بشكل مطلق حتىٰ في هذا المجال !

الرؤية الثانية :

وقد ندرس علياً ونحاول معرفته بمنظار المؤرخين لنكتشف دوره في مرحلة مهمة وحساسة من تاريخ البشرية المتمثلة في تاريخ الاسلام . وهنا أيضاً تطرح امامنا عدة نقاط جديدة :

مواقف علي والدور الذي أدّاه والمهام التي كانت ملقاة على عاتقه ، ما حققه من نجاح وإخفاق ، موقعه في مجتمعه الذي عاش فيه ، قيادته الاجتماعية والسياسية ، علاقته بالناس ، رفعه لشعار الحرية ، شخصيته الاجتماعية والسياسية ، المقارنة بينه وبين خصومه السياسيين ، مقامه وموقعه من خلال تواجده وحضوره ومواقفه في تاريخ الاسلام وفي ايام حياته ، وكذلك حياته التي بدأها في التاريخ بعد موته واستشهاده .

كل هذه الأمور تعرض على الباحث ، وينبغي له أن يدرسها بصورة خاصة .

الرؤية الثالثة : « علي والانسان »

الرؤيـة الثـالثة لمـعرفة عـلي ودراسـته تـنطلق مـن مـنظار العـالم المتخصص بدراسة الانسان ، بمعنىٰ دراسته دراسة إنسانية ، فنحن لا نريد أن ننظر الى شخصيته ودوره في التاريخ عامة وفي تاريخ الاسلام خاصة فحسب ، كما أننا لا نريد التعرض لما له من مقام وموقع وحق وأولوية في تاريخ الاسلام باعتبارنا شيعة ونقف عند هذا الحد ، وانما نريد أن نقترب اليه من زاوية أخرىٰ باعتباره موجوداً عجيباً رأيناه في البشرية باسم علي ، ونحاول نحن التعرف عليه .

وهنا تواجهنا أمور تختلف تماماً عما واجهناها هناك ونحن ننظر اليه بمنظار المؤرخ أو المسلم أو الشيعي .

ويـنبغي لنـا أن نـدرس عـدة قـضايا تـحت أضـواء عـلم النـفس والفلسفة ، ونركز أكثر على علم دراسة الانسان .

ومما يؤسف له لم يعمل على هذه الرؤيـة الثـالثة ، ولهـذا فـإنني أحاول ما استطعت ـ باعتباري متخصصاً في دراسـة الانسـان ـ أن ادرس انساناً باسم علي ﷺ بكل ما لشخصيته مـن عـجائب ومـعجزات وأبـعاد معقدة .

وبناءً على هذا فإنّنا سوف نضع هذه الشخصية العظيمة في موقعها من تاريخ البشرية ونجعلها في موضعها من الانسانية ودورها كانسان ثم ندرسها ونبدأ بحثنا عنها تحت عنوان « علي والانسان » .. الانسان بكلّ خصوصياته ، وطموحاته ، ومثله ، وآماله ، وبنائه المعنوي وماله من خصال ومميزات خاصة به ... فالانسان ذو آمال وطموحات خاصة ، وعلي الشخصية العظيمة المعجزة لها موقعها الخاص في تلك الآمال والطموحات والخصال البشرية الخاصة .

ولهذا فمن الصعب والعسير الإجابة على السؤال المهم التالي : ما هو موقع علي ومنزلته بين البشر جميعاً وفي الانسانية عامة ؟

وصعوبة الجواب تكمن في أنّنا يجب علينا أن نعرف علياً أولاً ، وهو كما أسلفت معضل فلسفي ولغز علمي لا تنتهي قصته في ترجمته وقراءات في ببليوغرافياه وسيرته كشخصية عظيمة .

وثانياً : معرفته تتوقف على معرفة موجود معقد مجهول آخر باسم « الإنسان » وهو أكثر الموجودات غموضاً في علم الانسان ، وليس ثمة موجود يجهله الانسان كما يجهل نفسه !

ومن هنا فانني لا أبارك عيد الغدير هذا للشيعة أو المسلمين فقط ، وانما أباركه « للانسان » .

❋ ❋ ❋

طلبوا مني أن اتحدث لكم خلال هاتين الليلتين ؛ ولذلك فإنّي مضطر الى تقسيم بحثي الذي كنت استوعبه في محاضرة واحدة ، وسوف ابتر الحديث في الليلة الأولىٰ واحصره في مقدمة نستخلص النتائج منها في الليلة الثانية .

ولهذا سأتحدث الليلة عن « الانسان » ، وفي ليلة غد بعد أن عرفنا الانسان ننتقل الى علي ونعالج البحث من خلال رؤية خاصة ، ونحاول أن نفهمه بمعنىٰ خاص لنعرف أن دور هذا الانسان ـ علي ـ ومنزلته ومقامه كانسان ، وأخيراً نتناول معنىٰ « الامام » كنتيجة للبحث .

الانسان في حضارة اليوم والمدنية المعاصرة :

قد يكون « الانسان » موضوعاً قديماً جداً ، ولربما تصور البعض أنّنا تناولنا موضوعاً يبدو للوهلة الاولىٰ بديهياً جداً في حين أن « الانسان » و« علم دراسة الانسان » مجهول اكثر من جميع العلوم والظواهر المدروسة في العلوم الانسانية .

واذا لاحظنا التعريفات المختلفة التي عرّفوا بها الانسان منذ زمن ارسطو وإلى يومنا هذا ـ حيث قطعت البشرية شوطاً كبيراً وخطت خطوات مذهلة في مختلف الفروع العلمية ـ نجد أنّهم أقوىٰ على تعريف أي ظاهرة

من ظواهر الكون منهم على تعريف الانسان وذلك ـ كما قال الكسيس كارليل ـ لأن « الإنسان كان لحد الآن ينطلق نحو الخارج ويبحث دائماً من أجل فهم غوامض الكون والاشياء والظواهر المادية ، ولم يلتفت أبداً الىٰ ضرورة معرفة داخله [تعرّفه على نفسه] قبل الانطلاق في معرفة عالم الخارج »[1] خصوصاً في القرون الثلاثة الأخيرة حيث ازداد الجهل بالإنسان بالنسبة لحركة العلم في السابق ومستوىٰ تطور العلوم واطلاع الانسان ومعرفته الدقيقة والصحيحة للاشياء والطبيعة . وكما قال جان ديوي الذي اعترف : (ان انسان اليوم يعرف « الانسان » أقل من السابق ؛ لأنه ركز تفكيره ومحاولته على عالم الخارج) .

ولأن الفلسفة والدين والعلوم القديمة كانت ترفع شعار[2] معرفة معنىٰ الحياة وتحديد الهدف من الكون وتعيين خصائص الانسان ورسالته في هذا العالم بينما رفع فرانسيس بيكون في القرون الثلاثة الأخيرة شعاراً لازال العلم يرفعه الى اليوم وهو : « أن العلوم والفلسفات كانت في السابق تستهدف زيادة معرفة الانسان وتوسيع رقعة معلوماته من أجل معرفته

(١) لا اقصد بالداخل المعنىٰ الصوفي للكلمة ، وإنّما اقصد معرفة الانسان لنفسه ، لأنّنا ينبغي علينا قبل كل شيء وقبل أن نصنع أي حضارة وقبل ان نضع أي ثقافة ومدرسة ومذهب للبشرية يجب علينا أولاً أن نعرف الانسان ولكن ـ وللاسف ـ عرفنا كل شيء إلّا الإنسان .

(٢) ونحن لا ندعي أن جميع الفلاسفة والعلماء توصلوا الى هذا الشعار ، وقد لا يكون الفلاسفة ولا العلماء توصلوا الى هذا الشعار .

واكتشافه لحقائق الكون ، أما اليوم فيجب على العلم أن يبعد هذا الهدف عن مسيرته ، ويتنصل عن تحمل هذه الرسالة ، ويحمل على عاتقه مسؤولية رسالة أخرىٰ ـ كما حصل بالفعل ـ وهي عبارة عن « القدرة والقوة » وبهذا اعلن فرانسيس بيكون أنّ العلم إنّما يعد علماً ، والفلسفة إنّما تعد فلسفة ويمكن قبولها فيما اذا منحت الانسان « القدرة في الحياة » وأدّت إلىٰ أن يمتلك الانسان « ناصية القوة وزمامها » واي علم أو فلسفة لا تنتهي لهذه النتيجة فهي مرفوضة لا وزن لها .

وبالفعل فاننا نشاهد هذه السرعة والتطور العلمي المذهل الذي تشهده الحياة لم يكن سوىٰ مدد وعون لاقتدار الانسان ليس إلاّ ، والمقصود من اقتدار الانسان سيطرته على الطبيعة وقدرته على تسخيرها ، والمقصود من سيطرته على الطبيعة إعداد الطبيعة وتسخيرها من أجل تمتعه بالغرائز والنعم المادية الموجودة على هذه الكرة الترابية وتوفير الامكانات المادية لدفع عجلة الحياة اليومية .

وهذه المحاولة أدّت الى اتجاه جميع الفروع الفلسفية وجميع الفروع العلمية في القرون الثلاثة الأخيرة نحو هدف واحد ، وهو جعل الانسان اكثر قوة واقتداراً ، واتجهت بالتالي نحو التصنيع . ومن هنا كان هدف الفلسفة والعلم في غابر الايام هو معرفة الانسان بالعالم والكون ، أمّا اليوم فإنّ هدف العلم ينحصر في جر العلم والمحاولات العلمية الى ميادين

الصناعة ، لأنّ الصناعة هي الوسيلة الوحيدة لتبديل العلم الى « قدرة » للانسان في الحياة ؛ ففي قديم الزمان كلما كان الانسان أكثر علماً كان أكثر وعياً ومعرفة ، ولهذا كانت أثينا قديماً ـ مثلاً ـ أكثر علماً بينما كانت روما أقوىٰ . أما « بيكون » اليوم فيقول : إنّ هذا لا قيمة له ولابد أن يكون الانسان الاكثر علماً أكثر اقتداراً وأقوى سلاحاً وبالتالي فهو أكثر ثروة وأكبر رأسمالاً

ودور العلم ينحصر في تحقيق هدف واحد فقط ، وهو مدى فاعليته في منح الانسان القدرة على التاثير في الحياة وتسخير كلّ ما على التراب .

وبالرغم من قدسية هذا الشعار وضرورة معطياته باعتبار أنّ إحدى خدمات العلم التي يجب أن يقدمها للبشرية هي مساعدته على التمتع والانتفاع اكثر فاكثر من المواهب المادية في الحياة ، إلّا أنّ حصر العلم في رسالة كهذه يعدُّ خيانة للعلم وخيانة للانسان ، وقد اتضح اليوم بجلاء للعلم وللفكر الانساني عواقب هذا الحصر ونتائج هذا التحجيم ، فيما كان على العلم تحمل مسؤولية اكبر وأقدس من تمكين الانسان في الحياة كما هو هدف الشعار الذي رفعه « بيكون » ولم يعمل أي شيء أبداً من أجل صناعة « الانسان الافضل » .

ولهذا نجد انسان اليوم مهيمناً على الطبيعة ومقتدراً متمكناً اكثر من أي مرحلة من مراحل التاريخ واي وقت من أوقاته الماضية ، ولكنه

ضعيف مع نفسه أكثر من أي دورة حضارية سابقة ... انسان اليوم أكثر اطلاعاً ومعرفة بالطبيعة ، أكثر من أي يوم في تاريخه الماضي ، بيد أنّه أكثر جهلاً بنفسه وأقل وعياً لذاته .

ولو اننا سألنا حكيماً قديماً عن الحياة والانسان ماهما ؟ وسألناه هل إنّ هذا الكون وهذه الدنيا عبث أم ليسا كذلك ؟ لاجابنا عن هذه الاسئلة بجواب ما ـ مهما يكن هذا الجواب ـ لأنه يشعر بمسؤولية تجاه هذه الاسئلة التي تراود ذهن الانسان منذ القدم وما زال بني البشر ـ حتى اليوم ـ يبحثون لها عن حلول يجب على العلم ان يكتشفها . أما اليوم فاننا لو واجهنا أحد العلماء بهذه الاسئلة لأجاب : إنّها اسئلة يستحيل الوصول الى أجوبتها ، ومشاكل لا يمكن بحال حلّها ، وينبغي أن نتجب اشغال الذهن بها والانصراف عن التفكير بها لأنّ هدفي الوحيد وسياستي الاساسية أن اعالج الظواهر وأعادل اكتشاف الاواصر والعلائق بين عدة ظواهر ، وتوظيف هذه الاكتشافات في الصناعة وتحويلها الى انتاج ، ومساعدة الانسان على التمتع والاستفادة من « السلع » و« البضائع » .

وعليه فجميع المحاولات والمساعي المعنوية التي يبذلها الفكر البشري تستهدف في الحقيقة التصنيع ، وهدف التصنيع الانتاج والاستهلاك . بمعنىٰ أنّ جميع المحاولات والمساعي المعنوية العميقة المقدسة العقلية والمنطقية تتكرس في تنويع الاستهلاك وتوسيعه ، ولهذا

نلاحظ أن مدنية اليوم مدنية استهلاك ليس إلّا ، وأصالة الاستهلاك أهم معلم من معالم الحضارة المعاصرة ، وأن الحكومات على اختلاف انظمتها والتشكيلات الاجتماعية على اختلاف صورها وتركيباتها في الدول المتحضرة في العالم تنضوي جميعاً تحت شعار مشترك هو « أصالة الاستهلاك » . هذه هي رسالتهم ومذهبهم العلمي ! مما أدىٰ الى « نقصان الإنسان » .. لقد صار إنسان اليوم مقتدراً ولكنه صغير ، ضئيل .. مقتدر إلّا أنّه تعيس .. في حين كان المفروض أن يكون إنساناً صالحاً خيّراً قبل أن يكون مقتدراً .

* * *

الفرق بين خدمة الإنسان واصلاحه :

ثمة اصطلاحان أجد لزاماً عليَّ أن أتعرض لمعناهما قبل الدخول في صلب الموضوع ، لأنهما مصطلحان يستعملان بمعنى واحد وكأنهما مترادفان في حين أنهما ليسا بمترادفين ؛ ولهذا فاني أريد بيانهما بالمعنىٰ الخاص الذي أنوي استعماله .

احدهما : خدمة الانسان .

والثاني : اصلاح الانسان .

فهذان مصطلحان لهما معنيان يختلف كل واحد منهما عن الآخر ، فقد نخدم فرداً أو جماعة كما لو عبّدنا طرق مدينة ما مثلاً أو ساعدنا انساناً بمبلغ من المال او اشترينا له داراً ، وهذه خدمة قدمناها لمجتمع او لفرد ولكنه ليس اصلاحاً ، وقد تؤدي الخدمة المجردة عن الإصلاح إلى الخيانة ، وقد انجز خدمة لفرد ما قبل أن اصلحه فتجره الى الانحراف او تزيد انحرافه ، فلا بد اذن أن نقدم على الإصلاح أولاً ثم نقدّم الخدمات .

والعلم يخدم الانسان فقط من دون أن يحمل على عاتقه أيّ مسؤولية لإرشاده وإسعاده وإصلاحه .. وأي علم اليوم يتعهد باصلاح الانسان اخلاقياً ؟ وأي فرع من الفروع العلمية تستهدف بناء الانسان السامي ؟ أبداً لا يوجد أيّ فرع علمي يهتم بأخلاق الانسان ، لأن جميع الفروع تجعل الإنسان أكثر وعياً ومعرفة بالطبيعة وتسعىٰ من أجل منحه القوة والقدرة .

فالعلم اذن يخدم الإنسان ، في حين أنّ رسالة العلم الأكثر قدسية وفورية ، ومسؤوليته الأولى المقدمة على أيّ مسؤولية أخرىٰ إنما هي « إصلاح الإنسان » و« معرفة الإنسان » وذلك لأنّ إقدامنا علىٰ بناء دار جميلة فخمة وجيدة قبل أن نعرف الشخص الذي سيكنها وغرضه من العيش فيها ، وكيف يريد أن يعيش ؟ وما هي حساسياته ورغباته واتجاهاته ؟ ومن أي طراز من البشر هو ؟ وما هو مستواه ونظرته للحياة

وأمانيه وآماله وو.. يكون إقداماً فارغاً ولغواً وعبثاً .

ونحن ـ وللاسف ـ أقدمنا على بناء الحضارة والمدنية وشكليات الحياة المرفهة الفخمة المقتدرة العجيبة قبل أن يتصور أي معنى للحياة وللإنسان وقبل أن نعرف عنهما أي شيء ؟

ولهذا فقد تكون حضارتنا ـ أحياناً ـ أعظم وأفخم وأعجب حضارة ، ولكنها حضارة لا تقوم على معرفة حياة الإنسان ورسالته ومعناه وحركته على شريط الحياة ، مما يؤدي الى مسخ الإنسان الذي تكتنفه هذه الحضارة بالرغم من اهميتها وعظمتها وفخامتها .

وقد عبرت بـ « قد » و« احياناً » بيد ان المفكر الذي يعيش اليوم في البناء الحضاري المعاصر لا يقول « قد يمسخ الانسان » وانما يقول « لقد مسخ الانسان بالفعل » .

واذا نظرنا الى أبطال الكتاب والروائيين والفنانين والنّحاة والمحدثين نجد أبطالهم جميعاً « مسوخ » وأنّ هذه ليست صدفة جمعت أولئك على هذه الحقيقة ! ولا يمكننا نحن أن نحكم عليها ونحن نعيش متفرجين بعيداً عن المدنية في أوربا ، وعلينا أن نسأل أولئك الذين يعيشون في خضم هذه الحضارة وهذا العلم : كيف تجدون انفسكم ؟ وما هو الانسان الذي يعيش ضمن هذه المسيرة ووفق هذا المنهج ؟

يوجد في « رتردام »[1] ـ وقد يكون بعض السيدات والسادة سافروا الى هناك ـ نصب تذكاري « تمثال » جدير بالتأمل والدراسة :

يرىٰ في وسط الساحة الرئيسية في المدينة نصب حجري بيد أنّه غير طبيعي ، والنصب عبارة عن هيكل هش ، ساعده لم يستقر على المفصل وانما انتصب بدون مفصل على الزند مباشرة والمفصل حر من وسط الزند ، وهكذا السيقان ، مفاصل الاقدام وجميع الاصابع مفصوله عن المفاصل ، وكذلك الرقبة والرأس بحيث اذا نظرت الى النصب من بعيد ظننت أنّه سينهار الآن .

نصب رتردام ، تمثال للانسان المعاصر ! يعبر عن إنسان ما بعد الحرب ، الانسان الحديث المقتدر ـ كما قاله بيكون ـ الذي صار من الاقتدار والهيمنة والقوة بحيث اكتسب صلابة الحجر ، ولكنه ـ في ذات الوقت ـ يكاد ينهار ويحتمل ان يتفتت ويعدم في أية لحظة !! .

كتاب « الغثيان » لسارتر ـ ويعد من اشهر نتاجات القرن العشرين ـ يصور فيه حياة الانسان المعاصر ، .. كتاب باسم « الغثيان » !

---

(١) ردترادم : مدنية دمرتها الحرب العالمية الثانية تدميراً كاملاً وتحولت الى انقاض ومسحت حتى صارت قاعاً صفصفاً ، ولهذا اصبحت المدينة فيما بعد متحفاً معمارياً حديثاً ، الشوارع ، البناء ، هندسة المدينة ، المنتزهات ، وكل ما فيها مبني على اساس الـ« اركانيسم » الحديثة وقد تيسر هذا النمط من البناء في « رتردام » فحسب لأنها اصبحت بعد الحرب ارضاً مسطحة وقاعاً صفصفاً .

بطل « جان ايزوله » رمز الانسان المعاصر وهو أمير غارق في الجلال والعظمة والثراء والذهب، بيد أنه يئن من داء لا دواء له. يقول « جان ايزوله » في تحليل هذا البطل: انه بطل فرنسا، فرنسا المكتزة بالذهب، المملوءة من قرنها حتى قدميها بالقوة والقدرة والسلطان والتحضر والثروة، (أي تحقق جميع مواهب الحياة التي يحلم بها فرانسيس بيكون في العلم) بيد انه يشكو ويئن من ألم لا علاج له!

يقول جان ايزوله إنّه أمير فرنسا .. أما اليوم فهو « كل الحضارة » وهو « الانسان المتحضر ».

والبطل الآخر بطل « اليوت »[1]، انه يعبّر عن الانسان المقتدر المعاصر تعبيراً أدق واروع .. « ترزيا » بطل قصة اليوت .. « ترزيا » أحد آلهة اليونان القديمة؛ آلهة خنثىٰ، يعني أنها رجل وانثى في آن واحد ... هذه الآلهة هي تعبير عن الإنسان المعاصر المقتدر .. لقد اصبح ضعف إنسان الأمس، لقد تضاعف الانسان، ولكن أيّ مضاعفة؟ مضاعفة أسفرت عن خنثىٰ! .. والخنثىٰ ضعف الانسان العادي .. اي ضعف الانسان القديم لأنه تركيب من الذكر والانثىٰ ومع ذلك فهو عقيم .. اضعف من سابقه ومن حيث الانسانية أوطأ من الإنسان القديم الذي كان نصف هذا

(١) اليوت أكبر شاعر، كاتب، فيلسوف، وناقد ادبي انجليزي معاصر، ولا شك أبداً أنّ إليوت هو أكبر معلم من معالم الادب الانجليزي المعاصر.

الإنسان الجديد .

لماذا كل هذه الانجازات ؟! لماذا الحضارة ؟ ولماذا العلم ؟

ولماذا هذا النبوغ الحاد والعبقرية العجيبة في تصوير الانسان بهذه الصورة ؟

لماذا اضحت الحياة بكل ما فيها من اقتدار وجلال ومتعة وجمال « غثياناً » ؟

لماذا ابتليت الحضارة العظيمة « بمرض » عبر عنه كامو بـ « الطاعون » ؟

ولماذا صار الانسان ـ الذي اصبح ضعف انسان الامس ـ خنثیٰ ؟

لماذا ؟

السبب ـ برأيي ـ يكمن في أن المفروض بالعلم أن يعرف الانسان ويصوغ نظريته في الحياة أولاً وقبل كل شيء ثم يبادر الى بناء الحضارة ويقتحم عالم الاكتشافات والاختراعات والتصنيع وفق ضرورات الانسان وحاجاته ورسالته في هذه الحياة الدنيا ، فيما استمر العلم بالبناء والعمران قبل أن يعرف أي شيء عن الانسان وقبل أن تتبلور في ذهنه معاني الحياة على وجه هذه البسيطة ، وقبل أن يعرف من الذي سيعيش في هذه البنايات وما هي حاجاته الواقعية وضروراته الاصلية ..

ولقد رأينا العلم يتحدث عن البناء دائماً ويزهو به باعتباره أحدث من البناء السابق واكثر تطوراً واكمل وافخم ـ وهو كذلك ـ ولكن لو سألناه بحق الانسان الذي سيعيش فيه من هو ؟ وما هي معالمه ؟ وكيف هو ؟ لأجاب : انني لا أهتم بهذا الأمر ولا علاقة لي به ، والقضية موكولة للحكمة الالهية القديمة حيث كان المتخصصون فيها يبحثون عن أجوبة هذه الاسئلة وكانت لهم فيها احاديث وتصورات لم تثمر شيئاً ولم توصلهم الى نتيجة . فهي إذن بحوث لا طائل تحتها وينبغي أن نتجنبها ونبتعد عنها .

فلمن نبني الحضارة إذن ؟ !

ينبغي أن نكرس كل طاقاتنا في سبيل أن نكتشف الإنسان أولاً ونعرفه ، أي موجود هو ؟ وماذا يحمل من صفات وخصائص ؟ وما هي حاجاته الرئيسية وضروراته الأولية الاصلية ؟ وما هي أبعاده المتنوعة ؟ نعرف كل هذا قبل أن نبني الحضارة ونحدد المناهج العلمية وقبل أن نعيّن للعلم والفلسفة رسالة خاصة ... ثم ننطلق على أساس معرفة حياة الانسان لنقرر البرامج ونخطط لبناء الحضارة ونحدد رسالة العلم .

غرضي من هذه المقدمة أن أقول : يجب أن يُعرف الإنسان أولاً ـ وقبل كل شيء ـ قبل معرفة المدنية والتحضر ، وقبل مناقشة الفلسفات ، وقبل مناقشة الفن والحكم عليه ، وقبل مناقشة الأدب والحكم عليه ، وقبل الخوض في حديث الحياة بل وحتى الفلسفة والدين .. فالدين منهج الحياة

وسبيل النجاة والكمال . وهو علاج ناجح واستجابة لأسمىٰ واعمق حاجات الانسان . ولكن ينبغي علينا إذا أردنا أن ندعو الإنسان إلى الدين أن نعرف الإنسان أولاً ، فإذا عرفناه تيسر لنا اختيار أفضل الأديان واستطعنا أن نميز الدين الذي ينفع هذا الموجود ذا الخصوصيات المعينة والحاجات المعروفة .

ولهذا فإني سأحاول الليلة أن أعرّف الانسان كما أعرفه من خلال مطالعاتي وتصوراتي وتصورات الآخرين التي استطعت استخلاصها ، وأحاول أيضاً بيان حاجاته الاصلية التي رافقت مسيرته على طول خط التاريخ ثم اتعرض لبيان موقع علي عليه السلام ودوره تجاه هذا الإنسان وتجاه الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحياها على هذه الارض .

معرفة الإنسان :

لكي نعرف الإنسان من خلال المنظار الديني ولا سيما دين الاسلام ينبغي أن نتابع فلسفة الخلقة ، لأن اغلب الاديان الكبرىٰ تمتلك فلسفة خاصة بالخلقة تبين فيها بناء الانسان وكيفية خلقته .

والغرض الأهم في هذه القصص والفلسفات التي تتحدث عن الخلقة هو بيان الدين لحقيقة الانسان .

واني لأعتقد ـ باعتبار أن تخصصي ومادة تدريسي تاريخ الاديان ـ أنّ أروع وأنصع وجه من وجوه الاسلام هو الوجه الذي عالج فيه فلسفة الخلقة ـ ومما يؤسف له انني لم أجد كثير عناية به ـ وأنّ فيه من العجب والعظمة ما يذهل الانسان ويجعله يقف موقف المتحير ، فإنّ ثمة مئات النكات واللفتات الكامنة في فلسفة خلق الانسان المعبّر عنها تعبيراً رمزياً بحيث يعدّ استخراج هذه الرموز وفك غوامضها استخراجاً لمعنى الانسان الحقيقي في جميع أبعاده .

ولا يسعني المجال لاستيعاب الموضوع بتمامه لأنني عملت على هذه الفكرة في العام الماضي واستخرجت اكثر من خمسين نكتة جديدة في معرفة الإنسان من قصة آدم في القرآن والروايات ، واذا سنحت الفرصة في المستقبل فسوف أطرحها بيد أنني سأركز على نقطة واحدة يعرفها الجميع :

الإنسان : اجتماع الضدين :

الإنسان ـ في الاسلام ـ موجود يجمع الضدين ، أحد بعديه سافل بغيض متعفن نتن بحيث لا يمكن أن تجد ذاتاً أحقر ولا اصغر ولا ارذل منه ، ولا تجد كلمة في لغات العالم تعبر عن ضآلته وحقارته سوى ما عبر عنه القرآن « صلصال كالفخار » و« حمأ مسنون » .

والى جانب هذا الصلصال والطين النتن يسمو البعد الآخر حيث يكون ذاته وفطرته اقدس وأسمى المعاني التي يمكن للذهن البشري أن يتصورها .. إنّه « الله » أو « روح الله » . ومن البديهي أن التعبير هنا كنائي تماماً كما نقول « يد الله » وليس المراد معناه الحقيقي .

وهذا يعني أن بناء الانسان ـ من جهة ـ عبارة عن قبضة التراب والطين العفن ، ومن جهة أخرىٰ يحمل نفخة الرب وروح الله .

وبناءً على هذا فإنّ هذا الموجود يحتوي بعدين أحدهما غاية في الانحطاط والسفالة والآخر قمة في السمو والعظمة ـ وهو روح الله التي نفخها في آدم ، في هذا الإنسان ـ .. هذا هو الإنسان نوع الإنسان ، الإنسان الحقيقي ، الإنسان الموجود ، الإنسان الذي يتحرك على صفحة الواقع ، الإنسان الخارجي ، ـ يعني نحن جميعاً ـ في حالة حركة بين هذين القطبين قطب « التراب والطين » وقطب « الله وروح الله » .. هذا هو طريق الإنسان وهذه هي مسيرته والخط الذي تتحرك عليه حياته ، المسيرة التي تنطلق من الحمأ المسنون ، الطين النتن ، الحقارة ، الرذالة ، الخسة ، الطين المترسب الذي اعتاد على الترسب ، اعتاد على النزول الى الحضيض والاستقرار في القاع ، يحبّ أن يترهل ويستسلم هكذا للدعة والراحة والسقوط ، ... هذه بداية المسيرة والهدف النهائي وغايتها القصوىٰ الوصول الى « روح الله » . وبهذا استوعبت القصة حياة الانسان ورسالته على الارض ، وعرفت

الإنسان ، وحددت معناه وحركته وخطوط انطلاقته باعتباره مخلوقاً يسير ليقطع المسافة من التراب الى الله . وهذه المسافة والطريق الذي يتحرك فيه هذا المخلوق اسمها « الدين » والمقصد الذي ينتهي عنده الطريق هو « الإنسان » .

إنّ التصور الاسلامي للإنسان اعظم تصور وأشرف معنى في الوجود يمكن أن يتصور ويفوق حتى المذاهب التي تعتقد بالانسان مطلقاً (اومانيسم) منذ ايام أثينا والىٰ يومنا هذا خلال ثلاثة آلاف سنة ، حيث جهد الفلاسفة الذين يعتقدون بأصالة الانسان (اومانيسم) ولم يستطيعوا أبداً أن يحددوا معنى بهذه العظمة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم .

ومن اشهر تلك المذاهب واهمها وأبرزها مذهب الوجودية الحديثة الذي جاء به « سارتر » أو « هايدگر » .

ولو كنت امتلك شيئاً من الوقت لاثبت لكم كيف أن سارتر وهايدگر أو مارسال الذين يعتقدون بالوجودية واصالة الإنسان ، ويعتقدون أنّ وجوده وجود مستقل عن الطبيعة وأنّه ذو وجود معزول عن الكون بل يعتقدون أن الانسان يتميز بعظمة خاصة تغنيه عن الله وعن واجب الوجود .. ولكن بالرغم من ذلك فانهم ـ بتصورهم هذا ـ نزلوا بالانسان الى الحضيض وقدموا له تصوراً أحقر بكثير مما قدمه الاسلام في قصة آدم .

الاسلام ورسالة الانسان :

لقد دلنا التاريخ وعلم النفس والتراث والثقافة البشرية والأدب والفن في جميع مراحل التاريخ على حقيقة مهمة تتلخص فيها رسالة الإنسان التي يحددها الاسلام ، حيث تقرر أنّ الإنسان في جميع صور حياته وأشكالها سواء كان في عصر البداوة والتنقل في الفلوات قبل أن يعرف البيت واللباس والاستقرار على الارض والزراعة .. وسواء كان انسان اليوم فان ثمة قاسماً مشتركاً بين جميع المراحل والفترات وجميع الحضارات والثقافات والأديان والمذاهب والادبيات على طول خط التاريخ البشري وهو :

إنّ الإنسان متى تفرغ وابتعد عن حياته اليومية ومشاكله المعتادة من قبيل الصيد وإعداد الغذاء ، والحرب ، وغيرها من المشاغل اليومية وجلس في خلوة وتأمل نفسه وفكر في ذاته وفي هذا العالم الذي يضمه فإنه يصاب بحزن عميق ويشعر باضطراب ونوع من الإثارة الداخلية ، ونجد هذا الشعور في جميع الآثار الفنية في التاريخ البشري .

وهذا الشعور الذي ينتاب الإنسان ـ حتى الإنسان البدوي القديم الذي ترك لنا ادباً ورسوماً وطريقة حياة وافكاراً وعقائداً تؤكد ما نقول ـ في خلوته حيث كان يشعر ويتحسس وكأنه شيء غير هذا العالم .. غير هذه

الدنيا .. جنسه جنس آخر .. كان يشعر أنّه شيء غير هذه الشجرة .. غير هذا الجيل .. غير هذه المخلوقات والحيوانات والطيور .. يشعر وكانه يمتلك شيئاً اضافياً زائداً على جميع هذه المخلوقات وكان يشعر بأنه يحتاج الى شيء لا يعرفه بيد انه شيء غير هذا الذي عنده ... وشعوره بالغربة في هذا العالم يبعث فيه اضطراباً وإثارة داخلية مستمرة، واهتزاز الداخل يولد عنده سوداوية وتشاؤماً من كل شيء .. من حياته المادية ومن هذا العالم الذي يضمه.

وهذه السوداوية والتشاؤم تملأ أعماقه وتشكل جزءاً من فطرته، ولأنها موجودة معه دائماً وأبداً في جميع مراحل التاريخ ولا تخلو منها أمة او عرق أو عنصر بشري أو تراث حضاري وثقافة فالجميع على الإطلاق ينتابهم هذا الشعور بالغربة والحزن والغم والاضطراب وبالتالي السوداوية والتشاؤم بالنسبة الى جميع الواقعيات المحسوسة التي يعيشها[1].

وما دام هذا الشعور بامتلاك شيء إضافي زيادة على ما في العالم، وأنّه أعظم وأشرف المخلوقات موجوداً في بني البشر بلا استثناء فهو -اذن- شعور فطري يشكّل جزءاً من فطرة الإنسان لا يتخلف ولا يتعطل أبداً.

---

(١) لقد تناولت هذا الموضوع بالتفصيل، وذكرت جميع شواهده التاريخية وطبعت البحث، ويؤسفني أنّني مضطر هنا للإشارة الى عناوين الموضوع فقط لضيق الوقت.

ولما كان الإنسان يعتقد في أعماقه بـالنقص والحـاجة إلى شـيء مجهول لا يعلم ما هو بالضبط ، بيد أنّه يشعر شعوراً غامضاً مبهماً أن ثمة حاجات يمكن أن يلبي نداءاتها خارج هذا العالم المحسوس وخارج ما هو متوفر لديه ، مما أدىٰ به الى الشعور بالنقص والخيبة والضجر مما هو فيه وعدم الانسجام مع المادة لأن عالم المادة لا يعطيه كلّ شيء ، ولهذا أخذ يتطلع إلى « دنيا أخرىٰ » و« مكـان آخـر » حـتى الفـلاسفة غـير الإلهيين .

إنّ هذا الشعور بعث في ذهن الإنسان أول فكرة « للمكان الآخر » لأنه يشعر : إنّني لم أخلق لهذه الدنيا ، إنّني غريب في هذا العالم ، كأنّ ما ألقاه هنا أقل ممّا أحتاجه وأنّ طموحي أكبر من هذا ، وهكذا انقدح في الأدمغة فكرة وجود عالم أكبر وأعظم يتمنىٰ الإنسان أن يكـون فـيه ... ويشعر بأنّه يليق به وأنّ كلّ طموحاته تتحقق هناك وكلّ حاجاته تـلبّىٰ ، ولهذا فاننا حينما نلاحظ تاريخ التراث والثقافة مطلقاً حتىٰ الثقافة البدوية نجد أنّ أوّل مشروع فلسفي جاش في ذهن الانسان البدائي هو الاعـتقاد بوجود عالمين ! وقد وجد هذا التعبير منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، حيث نقرأ كلمة « هدس » أو « هُدِس » عند السومريين ـ وقـد اخـذها السومريون ممن سبقهم ولا يُعلم من هم أولئك القوم الذيـن اسـتعملوها أولاً ـ فالإيمان بعالم اسمه « هدس » موجود منذ سبعة آلاف سنة في بلاد

مابين النهرين ، أي أنّ عالم « لاهنا » بل « هناك الأسمىٰ والأعلىٰ » موجود في أدبيات تاريخنا البدائي وثقافتنا البدوية ، وهذا إنّ دلّ على شيء فإنّما يدلّ علىٰ أنّ ثمة فرضاً فلسفياً استولى على ذهن الإنسان البدائي منذ الوهلة الاولى لأنشاء « دنيا أخرى » مهما كانت .. حتى لو كانت مجهولة لا يعلم ما هي ولا يحمل في ذهنه أي تصور عنها يؤهله لتجسيدها وتخيلها بالتفصيل . المهم أنّه يعتقد بعالم آخر غير هذا العالم مهما كان ذلك العالم مبهماً غامضاً مجهولاً غائباً في ذهنه ، لأنه مضطر إلى هذا الاعتقاد نتيجة لإحساسه بالغربة في هذا العالم وإيمانه بعدم تجانسه معه وقصوره عن تحقيق كل طموحاته وتلبية كل احتياجاته ، فلا بد له إذن من التطلع إلى عالم آخر متجانس معه يتجاوب معه ويستوعبه ، فتولد أوّل مشروع للقول بـ « ثنوية العالم » والاعتقاد بوجود عالمين ، وانطلقت هذه الفكرة منذ أولى أيام حياة الإنسان ، ويشهد لذلك بقايا آثار الإنسان الذي كان يفتقد الحضارة والمدنية .

افراز آخر : ان ثمة إفرازاً آخر ينشأ عن هذا الشعور بعدم الالتئام مع هذه الدنيا ، حيث إنّنا نرىٰ أنّ الإنسان ـ أي إنسان كان حتى العاري قبل أن يعرف اللباس ـ منذ القديم كان يؤمن بـ « المقدسات » و« القدسية »[1]

---

(١) اثبتت ذلك التحقيقات الاجتماعية والاكولوجي في القرن السادس عشر، ولا سيما التحقيقات التي أجراها استنسر ولوى برول في القرن الثامن عشر .

بمعنىٰ أن هذا الشي « مقدس » وكلّ شيء سواه پروفان « *PROFANE* » وعادي ، مادي ، لا يستحق الاحترام وليس له قيمة ذات خطر ... ولكن لماذا أصبح هذا الشيء أو هذه الرقعة أو هذا الشكل أو هذا اللون أو هذه القطعة من الجبل مقدسة .. لماذا التقديس ؟ السبب مجهول ، وقد يكون في كلّ قبيلة سبب يختلف عن الأسباب الأخرىٰ ، وقد تكون علة التقديس قضية تافهة بدائية جداً ثم انقرضت العلة وزالت ، وظل الشعور بالتقديس باقياً تتوارثه الأجيال .

ولا تخلو اي أمة واي ثقافة وفكر ـ بدائية أو متحضرة ـ من تقسيم العالم إلى عالمين علوي وسفلي ، وتقسيم الاشياء إلى مقدسة وغير مقدسة ، والاعتقاد بتقديس بعض الظواهر واعتبارها مقدسات تستحق التعظيم والثناء والاحتراز عن إهانتها والحط من قدرها .. ووجوب وضعها في معابد خاصة وتزيين تلك المعابد والاهتمام بها والوقوف أمامها بخضوع وتضرع ضمن مراسمَ وتشريفات خاصة .

وهذا كلّه وليد الاحساس الأولي لدى الانسان والشعور العميق القديم بأنّه شيء غير هذا العالم ، وأنّ ثمة عالماً أعلى وأسمىٰ من هذا العالم ... إن هذا الاعتقاد وهذا الإحساس والشعور وهذا الميل الروحي والفطري والإنساني نحو عالم آخر ، نحو الغيب ، نحو ذلك العالم المجهول والمكان الذي لا أدري أين هو ، إلّا أنني أعلم بأنّني لست من هنا ، وإنّما

أنا من هناك .. هناك الذي يحقّق جميع طموحاتي ويلبي كلّ حاجاتي ، لست من هنا المقيد المحدود بل من هناك المطلق .. كلّ هذه المشاعر ولدت عند الإنسان وولد فيه الإيمان بأنّ العالم مملوء بالقوىٰ والموجودات المقدسة غير المرئية .. وهذه أولىٰ صور الأديان البدائية البَدَوية .

اذن فثمة مشاعر ثابتة لم تتغير أبداً على طول التاريخ ـ وقد يتغير الفهم والتلقي وطريقة التعامل حسب التكامل الفكري والتطور العلمي ـ من قبيل انكماش الانسان وتشاؤمه تجاه « ما هو موجود » وتطلعه نحو الفرار من « الواقع الموجود » وأنّ « ما هو فيه » قليل ناقص أقلّ مما يطمح اليه ويتمناه ، وأنّه سجين غريب في آماد العالم المادي وآفاقه المحدودة .. .

وهذا الشعور العميق بالغربة يبعث في الإنسان الحنين والأنين والألم والحزن العميق ونوعاً من الغمّ المبهم والهمّ المجهول ـ ولا نقصد الهموم والغموم العادية المعروفة ـ ..

وهذا الحزن والغم العميق المبهم يصاحب الانسان ويلقي ظلاله على محيّاه على طول خط التاريخ ، وهو موجود في جميع الأدبيات والمذاهب العرفانية وغير العرفانية وجميع الفنون والإبداعات الفنية السامية في العالم ...

ونجد هذا الغمّ يتركز ويتكثف في الأفراد كلّما تجردوا أكثر وانتابتهم مشاعر أعمق وأكثر إنسانية ووعياً ..

إنّه غمّ الغربة التي سمعنا أنين التضور منها ولوعة معاناتها منذ خمسة آلاف سنة خلت .. سمعنا حشرجات الاستنجاد وهي تنطلق من حناجر الأبطال من أمثال « جلجامش » .. قبل خمسة آلاف عام ارتفعت صرخات بطل سومر الكبير تخترق عنان سماء سومر .. حيث سمع انينه تحت تلك السماء وهو يقول[1] : « إنّني لست من هنا .. إنّني غريب تحت وطأة هذا التراب .. إنّني غريب في هذه السماء ، وهذه السماء تضيق على روحي وتخنقني ... أيتها الآلهة انتشليني من هنا وخذيني إلى هناك .. أيتها الآلهة أرشديني ودلّيني لكي أعرف أن « هناك » أين ؟ .. أيتها آلهة دلّيني على الطريق لكي انجو من هنا ... انقذيني من هنا ... » .

مفردات « النجاة » « الفلاح » « الفوز » وكما قال بودا « موكشا » آمال وامنيات تمتد اليها أعناق جميع الأمم والمدارس والمذاهب والثقافات على طول تاريخ البشر .

وهذا التطلع نحو « النجاة » وليد الاعتقاد بنقصان هذا العالم وعدم كفايته وبالتالي فهو سجن للإنسان ليس إلاّ بالرغم من إحساسه بروابط

(١) اقدم « ملحمة » في تاريخ البشرية وقد اكتشفت اخيراً .

القربىٰ مع هذا العالم ، وبالرغم من إحساسه بالحاجة والأواصر القوية التي تشدّه إلى هذا العالم إلّا أنّه يحس لا شعورياً بأنّ هذا العالم ليس هو كلّ شيء وليس به يختم الوجود وينتهي الأمر ، وأنّ ثمة عالماً آخر يحقق الانسان فيه كل ما يريد وفيه كل شيء ، وهكذا يتصاعد هذا الشعور ويستمر ، وكذلك تستمر حملات الغم وتتناوب جيوش الاضطراب والقلق في عمليات الهجوم المتتالية ...

وقد قال المتخصصون في علم النفس الطبقي المعاصر إنّ الهموم المعنوية والفلسفية تتركز عند البرجوازيين ... ! وهو قول صحيح وذو معنى ... لأننا لو سألنا من هو البرجوازي ؟ لعرفنا أنّ البرجوازي هو المرفّه في الحياة ، الذي يعيش في سعة .. يعني أنّه يتمتع بمعطيات المادة والعالم ، ولكنه بالرغم من ذلك حزين كئيب مغموم ..

واذا لاحظنا المذاهب المترفة في التاريخ وجدناها جميعاً مذاهب انزواء ، عزلة ، كآبة وحزن ، ألم وتشاؤم ، ... لماذا ؟

لأنهم سخّروا كلّ ما في العالم وأخذوا نصيبهم منه حتى وصلوا إلى حد يقف عنده التجاوب حيث يريدون الانطلاق والتحليق الى نقطة أبعد ومدىٰ أعلى ، بيد أنّ هذا العالم يفقد تلك النقطة ولا يمتلك ذاك المدىٰ ... انهم انتفعوا بما في هذا العالم ، ولما شبت ضروراتهم الأخرىٰ وبدأت حاجاتهم ـ التي تختلف عما تمتعوا به قبل حين ـ تلحّ عليهم وتتكشف

شيئاً فشيئاً وجدوا أنفسهم في عالم لا يعدو مسافة محدوده ... إنّهم كانوا في عالم « المحسوس » .. عالم المادة .. وهو عالم عاجز لا يقدر على تلبية حاجة الإنسان مطلقةً ، ولا يستطيع سد الثغرات جميعاً ، فثمة ضرورات تبقىٰ بلا جواب في هذا العالم ؛ ولهذا قيل إن العزلة والانزواء والتفكير المر والسوداوية والتشاؤم والغم والكآبة الفلسفية من نصيب الطبقة البرجوازية المرفهة .

وهذه قضية عميقة غاية في العمق ، وتدلّ على أنّ الإنسان أكبر واكثر من وجوده .. الوجود المادي الذي يعرفه ويلمسه ويراه ويحسه .. ويدل على أنّ الإنسان كان دائماً وأبداً يشعر شيء أكثر وأسمى ، مما يولد فيه التشاؤم والانقباض ، ومن هذا التشاؤم يتولد الإحساس بالمرارة والغم والكآبة ، ومنه يتولد الشعور بالنقص والوسوسة ، والآمال .. وتمني النجاة .. وتمني التقرب والوصول الى المجهول الذي « لا اعرف اين هو » بيد أنّه غير موجود هنا حتماً ، وتلك الحاجات التي يحسها ولا يمتلكها هذا العالم ، ولا يمكن أن يمتلكها أبداً ...

أين ذلك المجهول الذي أطمح اليه ولا أدري اين هو ؟

ما هي تلك الحاجات التي « لا أدري ما هي ؟ » ولكنني أشعر بالحاجة اليها وليست هي في هذا العالم ؟

هذه أسئلة واجهها الإنسان البدائي والإنسان المتحضر المعاصر وقد

تكفلت مختلف المذاهب والأديان والآداب والفنون بالاجابة عنها .. لأن هذا السؤال سؤال آحاد البشرية .. سؤال كلّ إنسان عاش ويعيش في أيّ مرحلة من مراحل التاريخ ... سؤال كلّ انسان مهما كان عنصره وعرقه ...

لقد سعى الانسان وبذل جهده وسلك مختلف الطرق في سبيل مُثله تلك في سبيل طموحاته وآماله السامية التي تفوق « ما هو موجود » .. في سبيل الثغرات والنواقص التي يحس بها في هذا العالم وهو يحتاجها ويتمنىٰ ملأها ، ولكنّ هذا العالم يفتقدها ويعجز عن توفيرها ... لقد سعى الانسان في سبيل اشباع هذه الحاجات والتقرب الى ذلك العالم المجهول « الذي لا أدري أين هو ؟ ولكنه أسمىٰ وأعلىٰ » ... سعى من أجل التقرب والتوسل بتلك المقدسات التي لم تخلق من جنس هذا العالم غير المقدس ... سعىٰ من أجل التخلص من « هنا » المحدود والتحليق في عالم « هناك » المطلق الذي ينسجم معه ومع طموحاته ، وحاول سلوك أي سبيل يحقق له هذا الغرض السامي إنطلاقاً من شعوره الفطري العميق ، فوجدت بذلك الأديان البدائية ، وهذا هو معنىٰ فطرية الدين وأنّ الدين فطرةِ الله التي فطر الإنسان عليها .

وقد استعملت كلمة « الفطرة » في القرآن استعمالاً رائعاً جداً ، وإنّي لا أتفق مع من يقول إنّ الدين غريزة ، لأنّ الغريزة والفطرة متقاربتان بيد أنهما متغايرتان وليستا شيئاً واحداً ، فالفطرة تعني بناء آدم (الإنسان)

والغريزة تعني مجموعة الخصائص والقوىٰ المودعة في ذات الانسان وفطرته بحيث تجره بشكل لا شعوري باتجاه معين ، والدين ليس كذلك ، لأنّ الدين ليس غريزة لا شعورية عمياء كامنة في الإنسان ، وإنّما الدين فطرة بني عليها الانسان ، ومزج في ذاته مزجاً واعياً هادفاً بحيث شكل منه بناءه لكي يكون وسيلة وواسطة يسلك من خلالها طريقه ، ويكتشف سبيله ويقطع المسافة ليصل الى « الفلاح والنجاة » .. ويصل الى ذلك الكامل المطلق « المجهول المكان » « الذي لا ادري أين هو ؟ » .. لأنه يشعر أنّ هذا العالم ناقص .. ويشعر بالنقص هنا .. يشعر أنّه شيء مكوّن من جنس غير جنس هذه الدنيا .. يشعر أنّه غريب هنا .. وهناك وطنه الاصلي .. يشكو ويتضور من غربته في هذا العالم ... شكوىٰ وأنين سمعناه من أفواه أناس لا توجد بينهم قواسم مشتركة .. يختلف بعضهم عن البعض الآخر تماماً ، ولا يوجد أيّ شبه بينهم ، شكوىٰ سمعناها تنطلق من حناجر جماعة من البشر المتناقضين المتغايرين في التاريخ ... إنّهم يشكون جميعاً ويئنون من هذا العالم .

إنّني اعتقد ـ وهذا واضح وبديهي جداً ـ أنّ شكوىٰ جلجامش وأنينه الذي أبدع ملحمته[1] الحزينة الكئيبة انما هو انين الغربة في هذا العالم ..

---

(١) عثر أخيراً على نص « الملحمة » في الآثار السومرية والبابلية ووجدت كاملةً في آثار البابليين ، وللاسف الشديد كم أتلف وسحق من صور الجمال والعظمة فيها لمجرد أنّها وقعت بأيدي شعوب لا تستحقها ولا تعرف لها قدراً .

أنين النجاة والحنين الى العالم الآخر .. انين الطموح للتخلص من هـذا العالم ... كما انني اعتقد ان الروح العظيم العجيب المتفجر بالعظمة المملوء بالعجائب والجمال .. روح علي كان يأن نفس الانين ويبث نفس الشكوىٰ ...

إن ثمة آية في الإنجيل أعجبت بها وأحببتها حباً جماً ، وأظن أنّ الانجيل كلّه لو تعرض للتحريف فأنّ هذه الكلمة لم يَنْتَبْها شيء منه ، لأن أريج الروح النبوي يفوح منها ، ولا أظن أنّ أولئك الذين يقدمون على تحريف الكتاب السماوي يمتلكون من الفهم والذوق ما يؤهلهم لصياغة كلمة من هذا القبيل ... يقول في الإنجيل وهو في معرض صناعة الإنسان العظيم المستقل : « أيها الإنسان .. ايها الإنسان .. إنّك تسير في الطرق المزدحمة ... سر في الطرق التي يقل سالكوها .. سر في الطرق التي لا يمشي فيها الكثيرون ولا يزدحمون .. وذلك لأن التاريخ والتكامل من نصيب أولئك الذين يشقّون طريقاً جديداً بأنفسهم أو يختارون الطريق الجديد الذي لم يسلكه بعد الناس ، ولم تسلكه الاكثرية التي تسير دائماً تبعاً للآخرين ، ويفكّر لها ابداً غيرها من الآخرين ، ويقرر لها ويتخذ لها المواقف والقرارات ... سر في الطريق التي تمر منه الأقلية .. سر في الطرق التي يقل سالكوها ، ولا تسر في الطرق التي تملأها الأكثرية ويكثر فيها الإزدحام » .

ولكي يعمل علماء القسطنطينية بمضمون هذه الآية ويلتزموا بما فيها من أمر ونهي كانوا يتجنبون المرور بالشوارع العامة ، ويتنقلون عبر الازقة والطرق الفرعية البعيدة الملتوية ، وفي هذا دلالة على أن الجمال ، العمق ، العظمة التي تتميز بها الفكرة أو القول إذا اصبح فكراً لطائفة لا تمتلك تلك العظمة وتفتقد اللياقة الكافية فإنّه سوف يظهر بشكل مضحك ، وينتج نتائج مضحكة بالمرّة .

ويعد علي احدىٰ تلك الشخصيات العظيمة ، بل إنّي أعتقد أنّه أعظم شخصية إنسانية على الإطلاق ـ عدا رسول الله باعتباره يحمل رسالة خاصة ـ بيد أنّها مجهولة لم تعرف اليوم ، ويا ليتها كانت شخصية مجهولة لم تعرف فحسب ، بل لقد عُرفت اليوم معرفة رديئة وفهمت فهماً سيئاً ، ويا ليتنا لم نكن نعلم ولا ندري من هو ثم يعثر عليه العلماء ويكتشفونه لأول مرة ...

فعلي في الحروب بطل مقاوم مقاتل ، وفي المدينة والسلام سياسي مثابر وحاذق حساس ، وفي الحياة العادية أب وزوج حنون عطوف يمثل رجل الحياة بكل أبعاده ... هكذا نراه أحياناً ونراه أحياناً أخرىٰ كما يحدثنا التاريخ : وحيداً ، فريداً يتسلل الى غابات النخيل المحيطة بالمدينة ويذهب هناك اذا جنّ عليه الليل ، يلتفت يميناً وشمالاً ليأمن العيون والأسماع ثم يدلي رأسه في حلقوم البئر ويشكو ويئن ! ...

ان علياً يحمل روحاً اكبر بكثير من الكون كل الكون ، ولهذا فانني لا أستطيع أن اتصور أنّ معاناة المدينة ومعاناة العرب والمجتمع العربي بل حتى المجتمع الاسلامي وحتى أصحابه وأنصاره يمكن أن تضيق على علي وتجعله يئن بهذه الصورة . أبداً .. أبداً .. إنّ عليّاً أكبر من ذلك كله ولابد أن يكون الألم والمعاناة من القوة بحيث أثرت في هذه الروح وجعلتها تتململ وتتضور .

لا شك أنّه ألم الانسان ومعاناته وهو يرىٰ نفسه سجيناً في هذا العالم ويشعر بالاختناق في هذه الدنيا ، وكلما توغل الانسان في الانسانية شعر بعمق الحاجة لأن معيار الانسانية ليس الرفاه وإنّما هو الشعور بالحاجة والتطلع .. فكلما أحس بالحاجة إلى السمو أكثر فهو إنسان ، ولا شك أنّ عليّاً كان يشعر بالحاجة الى الضرورات والتطلعات التي يفتقدها هذا العالم أكثر من أي انسان آخر ، ويشعر أعمق من أي شخص آخر بالغربة في هذه الدنيا ، ويتضور ويئن أشد من أي شخص آخر أنين الغربة المدوي في هذا الكون .. وهذه هي المعاناة التي دعت روحاً كروح علي إلى هذا الأنين والتضور والشكوىٰ ...

وها نحن اليوم نسمع هذا الأنين ، وتطرق أسماعنا هذه الشكوىٰ وهي تنطلق من حناجر طائفة ملحدة تنكر ما وراء الطبيعة ، بل تتعمد العمل على محو الله وما وراء الطبيعة من أذهان الناس ، وتعرض الانسان

كموجود مادي من جنس هذا العالم ، وترفض عالم القداسة والعالم الاعلىٰ والمعنويات الماورائية والاهورائية والالهية وكل ما جاءت به الأديان السالفة ... منهم سارتر ..

كان سارتر ينتمي الى هذه الطائفة ، حيث وظف حياته الفكرية والفلسفية لإقناع الانسان بالتفكير بنفسه فقط ، وبأنّه يعيش في هذه الحياة لا غير وليس ثمة حياة أخرىٰ أعلى وأسمى .. وقد طغىٰ على جميع آثاره الفلسفية الاعتقاد بأنّ جميع الحقائق والواقعيات الانسانية وعالم الوجود بأسره ينحصر في دنيا المادة لا اكثر .

وكل ما احتوت فلسفته إنّما هو محاولة اثبات أنْ ليس ثمة شيء وراء الإنسان والمادة ، وكلّ ما في الكون عبارة عن إنسان ومادة فقط .

وعليه فالمفروض أن ينظر هذا الانسان ـ والحال هذه ـ إلى الدنيا بعين الرضا والتفاؤل لا بعين السخط والتشاؤم ، لأنه يعتقد بأنّ الإنسان من أجزاء هذا العالم ومن جنس مادته منسجم معه ومساوٍ له تماماً . فالمفروض اذن أن يعيش معه حالة الرضا والتفاؤل والانفتاح ، ولا يشكو الغربة ، ولا يعاني ، ولا يشعر بالقلق والاضطراب والتطلع نحو الخلاص ، لعدم وجود مكان آخر يتطلع اليه فيعاني من بقائه « هنا » أو يحمل همّ الوصول إلى « هناك » ويعاني ألم فراقه ...

ولكننا اذا لاحظنا آثاره الادبية ـ على العكس من آثاره الفلسفية ـ

نجده يشكو دائماً ـ وكم هو جميل ورائع ـ من الحياة ويعاني منها ويصورها غثياناً وقيئاً ! ويعبّر عن هذا العالم بالعالم السافل ، التافه ، الأحمق ، الأبله ، عجباً ! اذا كان هذا العالم هو الحقيقة كلها والواقع كله فلماذا يـعبّر عـنه بالأحمق اذن ؟! لماذا هو أبله ؟!

وهل يحق لأحد أن يعبّر عن هذا العالم بالأحمق والأبله ما لم يكن يعتقد بوجود عالم آخر أعلى وأقدس وأعقل وأعلم ؟ وانت لا تعتقد بذاك العالم الآخر وتؤمن بأن الانسان من جنس الطبيعة لا أكثر فلماذا الشكوىٰ إذن ؟

إنّ جميع أعمال سارتر الأدبية تعج بالشكوىٰ والمعاناة من نقصان هذا العالم .. وأنّه عالم لا يدرك ، ولا يفهم ، لا ينسجم مع الانسان لأنّه شيء آخر غير الإنسان والإنسان أعلى وأسمىٰ من هذا العالم بأسره .

معنىٰ الوجودية (اگزيستانسياليسم)

الوجودية تعني : أن ماهية العالم تسبق وجوده ، أي أنّك إذا أردت صناعة أي شيء أو أي آلة ـ وليكن فأساً مثلاً ـ فإنه سيوجد فـي الذهـن ـ أولاً ـ ماهيته ثم تصنع الفأس ، فحينئذ قد منحت تلك الماهية وجوداً .

أما الانسان فـإنّ وجـوده (*EXISTENCE*) يسـبق مـاهيته أي أنَّ

الإنسان كان خواءً ولم يكن أي شيء وليس له اي معنى ومحتوى ثم وجد، ولما اكتسب الوجود بدأ يبني شخصيته ويكوّن ماهيته بنفسه، فالإنسان هو الذي يعطي لنفسه المعنى والماهية والشخصية الإنسانية، ونحن لسنا الآن بصدد مناقشة هذا الرأي ومقارنته بموازين الحق والباطل، ولكننا نريد أن نقول له: أنت الذي لا تعتقد بما وراء الطبيعة ولا تؤمن بوجود عالم أسمى وأعلى لماذا تقف في آثارك الأدبية والفنية إلى صفّ علي وأمثاله ممن يعتقدون بأنّ الإنسان سجين في هذه الدنيا ويؤمنون ببلاهة هذا العالم وحماقة عالم المادة، ويعتقدون بدنيا أخرىٰ ما ورائية أقدس وأسمى وفيها الشعور المطلق والإحساس المطلق، الحياة المطلقة، البصيرة المطلقة، العقل المطلق، وذاك العالم من جنس الإنسان، ينسجم معه والإنسان سجين هنا وهو أكبر من دنياه هذه ... لماذا تشكو أنت كما يشكو هؤلاء وتعاني مما يعانون منه، في حين أنّك تعتقد ـ في آثارك الفلسفية ـ بمساواة الإنسان وتجانسه مع هذا العالم وتدعي أن لا شيء وراءه ؟ .. لماذا ؟

المهم فليكن سارتر وجودياً أو مادياً أو اي إنسان آخر فإنّه ـ مهما كان ـ حينما ينظم قصيدة ويكتب شعراً وحينما يستبطن نفسه ويتأملها لوحده وحينما يريد أن يستشعر نفسه ويتحسس « الأنا » يشعر بأنّ هذا العالم قليل ناقص، ويشعر أن ثمة مكاناً آخر أفضل من هذا المكان وأشياء أخرىٰ فوق ما هو موجود هنا وأقدس مما يعيشه هنا ...

إنّ هذا الشعور وهذه المعاناة كانت تنطلق من حنجرة الإنسان على طول خط التاريخ ، وقد خيمت بظلالها الحزينة الكئيبة على جميع الافكار والأدبيات والثقافات الانسانية السامية على مدىٰ التاريخ .

وان ثمة مقولة قديمة منذ زمن ارسطو تنصّ على : انّ جميع الآثار الفنية سواء كانت رسماً أو موسيقىٰ أو نحتاً أو غيرها من التراث الفني والأدبي تنقسم الى نوعين : إما أن تكون فكاهية ، وهي آثار عادية متداولة رخيصة ، وإما هي آثار سامية وإنسانية وجيدة ، وهي جميعاً آثار حزينة وتراجيدية تبعث الغم ...

لماذا صارت التراجيديا فنا سامياً ؟ ! إنّما صارت كذلك لأنها إبداع شعور الإنسان حينما ينتابه الغم الكبير والحزن العظيم وهو يشعر بضحالة هذا العالم الذي حبس فيه ، ويتلظّىٰ شوقاً لذلك العالم الذي لا يدري أين هو ولكنه يعلم أنّه سينتهي اليه ...

ولقد وجدنا ـ على مدىٰ التاريخ ـ الفن والدين ينبريان للتجاوب مع هذا التطلع والاضطراب والشعور بالنقص .

فالفن عبارة عن نافذة تطلّ من هذا العالم على عالم المطلقات والمقدسات والجمال ، الجمال المقدس السامي .

والدين بوابة تنفتح نحو ذلك العالم .

وكأن الإنسان كان يعيش دائماً في غرفة يشعر انها لا تليق به ، وبالرغم من أنّها تلبي كثيراً من حاجاته وتحقق كثيراً من طموحاته وآماله ، بيد أنّه يحمل في ذهنه صورة لعالم اكبر وأوسع .. يحلم بعالم أعظم وفضاء أرحب وسماء بعيدة الآماد ... يحلم دائماً وأبداً أن يكون هناك ، ويعاني من ألم البقاء في هذه الغرفة التي تضيق به ... وهو يحاول باستمرار ويسعىٰ جاهداً ويعاني من هذا الهم أبداً ويصبو الى التطلع والتعرف على ذلك العالم والنجاة من هذه الدنيا والتخلص من هذه الغرفة ... إنّها حالة تعتري كلّ انسان مهما كان دينه وعرقه وقبيلته وعصره ـ سواء كان قبل التاريخ أو بعده ـ لابد أنّه يعيش هذه الحالة ، وإنني امتلك الشواهد والأدلة الكافية على اثبات ذلك .

وقد صاغ الإنسان أحلامه هذه بصور فنية أحياناً . ومن هنا انبثق الفن لأنه تعبير عن الاحساس بالحاجة والشعور بالنقص .. فالفن خلق وإبداع .. وكل خلق وإبداع وليد الشعور بالنقص والحاجة لذلك الشيء المفقود في هذا العالم ، ولولا هذا الشعور لما ابدعتُ ؛ لأن الشيء المتوفر لا أحتاج إلى إيجاده وخلقه ، فلو أنّ السمفونيات كانت تنبعث من كل جانب ومكان وتتناهىٰ إلى أسماعنا دائماً وفي كل زمان لما شعرنا بالحاجة اليها ولما أبدعناها أبداً ، تماماً كما أنّنا لا نبدع الماء أبداً لأنه موجود دائماً ، ولو كان الجمال متوفراً لما جهدنا أنفسنا في سبيل خلق الجمال وإبداعه ...

إذن فانا محتاج إلى الجمال المفقود في هذا العالم ؛ ولهذا أعمل على إيجاده من خلال الإبداع الفني ...

أشعر بالحاجة الى الحديث ، بشرط أن لا يكون حديثاً تعودت عليه من خلال مكالماتي اليومية ؛ لأنها لا تستوعب عواطفي ولا تشبع حاجاتي ولهذا أبدع لغة خاصة للتعبير اسمها « الشعر » .

وأشعر بالحاجة إلى الجمال ، وأنّ جميع الصور الموجودة في هذا العالم لا تشبع الحس الجمالي والطموح لديّ ، ولهذا أُبدع الصور الجمالية التي أحتاجها ويفتقدها هذا العالم ...

فالفن ـ اذن ـ نافذة من هذا البيت الضئيل الحقير الذي حبس فيه الإنسان الشريف تطل على ذلك العالم الذي لا أعرف مكانه بالضبط ، بيد أنّه يوفر لي جميع طموحاتي وتطلعاتي المطلقة ..

وإنما يؤدي الفن هذا الدور بالذات لأنه يقوم على أساس عاطفي وليس له جذور فلسفية عميقة :

أنا سجين في بيت ، وهذا البيت قبيح ، نسبي ، يخلق في أعماقي الشعور بالنقص ... بيت لا يتوفر فيه الجمال الكافي ... ولهذا افتح نافذة تطل على الخارج .. تطل على العالم الافضل .. تطل على عالم ما وراء هذا البيت وأجمل واسمىٰ منه .. هذا هو الفن .

اما الدين فهو باب يفتح من هذا البيت لينطلق الإنسان من بيته ـ وهو التراب ـ نحو الخارج ، باب يفتح للإنسان ويقوده على الطريق ـ الدين ـ إلى الله .. طريق يوصل الإنسان الى الله ! .. الى الله .. !

من هنا نعرف أن الدين عبارة عن « خلاص معقول » من « هنا » الذي أحسّ بالغربة فيه وإنقاذ طبيعي من السجن الذي أعيش فيه . والفن عبارة عن اشباع كاذب للحاجات التي أعاني منها واستجابة زائفة للتطلعات التي يفتقدها البيت الذي أعيش فيه .

إنّ الإنسان كان ولا يزال يشعر بأنه سجين في هذا العالم ، وكلّما ازدادت إنسانية الإنسان ازداد شعوره بالسجن ؛ ويشهد لذلك التراجيديا والتراث الفني والادبي الحزين منذ عهد ارسطو ـ كما ذكرت ـ والى يومنا هذا ، حيث كانت بأجمعها نتاجات راقية سامية .

ونحن بالذات نجد في أنفسنا خفة وطرباً ونشاطاً حينما نقترب من قضايانا العادية الدنيئة ـ القضايا الدنيوية ـ فنرقص ونرفس وننطلق بحيوية للقيام بأعمالنا اليومية في جو طبيعي وإحساس رخيص ... فاذا وجد نوع من الإحساس العميق والاستبطان والتأمل العميق جداً فإنّه لا ينفك عن « الغم » و« الاضطراب » وحالة من التململ الشفاف الداخلي وعدم الاستقرار اللطيف ، بيد أنه عميق ومؤثر للغاية .

فالتأمل والاستبطان توأمان مع الغم والحزن . ولهذا تكون النتاجات

الحزينة نتاجات راقية رفيعة سامية : ولهذا أيضاً نحب الغم والحزن . وكلّما كان الإنسان أسمى مال إلى النتاجات الحزينة أكثر ...

ولو أننا قسمنا الأفلام والاشعار إلى راقية وعادية اتضح لنا أنّ جميع النتاجات الجميلة الرائعة والآثار العميقة الإنسانية تبعث الحزن ، فيما نجد جميع النتاجات العادية والرخيصة ـ بدون استثناء ـ تبعث النشاط والمرح ..

لماذا نحب الشعر الحزين المؤثر ؟

لماذا لا يقرأ ذوو النفوس الكبيرة والشخصيات السامية الكتب ذات الطابع المرح المفرح ؟

لقد أجريت احصاءيات في اوربا فتبين أنّ رواد الافلام الفكاهية (الكميديّة) اكثرهم من الهازلين المبتذلين ذوي المستويات الثقافية الواطئة بينما كان رواد الافلام الحزينة من النخبة والطلائع ذوي المستويات الثقافية الأرفع .

وبناءً على هذا قام أساس تصدير الافلام ، حيث تصدر الافلام الهازلة (الكوميديّة) الى الشعوب ذات المستوىٰ الثقافي الواطي بينما تصدر الافلام الحزينة إلى الشعوب ذات المستوىٰ الثقافي الافضل ...

لماذا نحب الخريف ؟ لأننا نشعر بالنهاية ، نحس أنّ الخريف نهاية .. لأننا نحس بالم « النجاة » الدائم في الغروب أكثر من أي وقت

آخر ، وذوو الإحساس الأعمق يستأنسون بالغروب ويشعرون باللحمة والقرابة معه اكثر من غيرهم .

إنّ الإنسان الذي كان يعيش هذه الحالة بشكل من الاشكال كان يشعر بأنه حبيس هذا السجن ؛ ولكي يخفف معاناة الاسر وآلام السجن كان يحاول تصوير سجنه بشكل البيت الذي يطمح فيه .. وهذا هو الفن . ويحاول أحياناً فتح الباب والنجاة من خلف القضبان لكي يعبر إلى وطنه ويتوصل الى بيته وهذا هو الدين .

اذن فالفن والدين كلاهما وليد فطرة واحدة ونتاج منشأ واحد .

وقد اكد تاريخ العلوم والفنون أنّ الفن ولد وترعرع في احضان الدين مدىٰ التاريخ ، وكان أول من صرّح بهذه الحقيقة « دوركايم » الذي أثبت من خلال علم الاجتماع أن جميع الفنون ـ بدون استثناء ـ كانت جزءاً من الدين حتىٰ فن تزيين المباني (الديكور) فقد اهتم الإنسان بمعابده منذ أن كان بدوياً يجوب الصحاري والقفار وقبل أن يستقر ويتخذ لنفسه بيتاً ، حيث كان يحتفظ بنتاجاته المقدسة التي تحمل طابعاً دينياً في امكان ومغارات مزينة .. ويصنع لنفسه محاريب ، ويبذل جهده في تزيينها وصبغها وتلوينها بألوان زاهية تسر الناظرين .

فالفن المعماري ـ إذن ـ وفن الديكور « تزيين المباني » وجدا قبل أن يتخذ الإنسان بيتاً لنفسه ، والهدف منهما سد الحاجات الدينية لدىٰ

الإنسان ، ومن هنا نعرف أنّ الفن والدين تجمعهما أواصر القرابة : وأحدهما يخفف الآلام من خلال العلاج الخادع والاستجابة المزيفة (الفن) والآخر محاولة وسعي من اجل « النجاة » و« الخلاص » الحقيقي من هذا السجن (الدين) .

* * *

ومن ثم بادر الإنسان ـ على مدىٰ التاريخ ـ الى البناء والابداع ، الذهني والواقعي ـ لعله يسد النقص الذي يشعر به فيهذهالدنيا ـ[1] وتلبية الحاجات الذاتية التي تلح عليه .

ومن الأساليب التي اتخذها في التعبير عن تطلعه إلى العالم الآخر وعزمه على الانتقال اليه وملء الثغور الناشئة عن شعوره بالنقص هو تصوير وبناء « النموذج الامثل » و« الطموحات المتكاملة » و« كمال المطلوب » .

وقد كان هو بنفسه يجهل « غاية المطلوب » لأنه لا يمتلك الثقافة

---

(١) وهذا غير الدين الذي قلنا بأنه باب « نجاة » يفتح السجن ويقود على الطريق المنتهي الى « المقصود » و« الغاية » التي بعثت في الإنسان الشعور بالقلق وعدم الاستقرار والتطلع ، حيث انه يعيش في دنيا غير مقنعة ويتطلع الى ذلك العالم الذي ينتهي اليه طريق الدين ، والإنسان يشعر بشكل شعوري أو لا شعوري بأنه عالم يحقق جميع آماله بلا استثناء ويعدّه بمستوىٰ الطموح .

الكافية التي تؤهله لتصويره وتحديده بالضبط ، بيد أنّه كـان يـعاني مـن الحالة التي يعيشها من جرّاء اعتقاده بأنّه ليس من جنس هذا العالم وأنّـه شيء آخر لا ينسجم معه ، وأنّ هذه الدنيا عاجزة عن الاستجابة لتطلعاته الرفيعة وحاجاته السامية ، فاضطر تحت وطأة هذا الإحساس إلى تصوير « غاية المطلوب » و« الطموح الأكمل » في ذهنه تصويراً فرضياً .

فأقدم على صياغة القصة تأميناً لهذا الغرض ـ والقصة كانت منذ بداية التاريخ والى يومنا هذا ـ ...

لماذا القصة ؟

لماذا اختراع ابطال وأحداث مستحيلة لا يمكن أن توجد في هذه الدنيا أبداً ؟

لماذا هذا التصوير المستحيل يـغزو أجـواء القـصة ويـحبك فـيها العلائق والأواصر بشكل مثير لا يمكن تحققه بحال ؟

كل ذلك نابع من أنّ الإنسان يحلم دائماً وابـداً بـ « المـطلق » .. المطلق هو الطموح الذي يطرز آمال الإنسان ويبعث فيه حالة من النفور وعدم الاستقرار الداخلي ..

فما هو المطلق المقصود إذن ؟

المطلق .. أجمل جمال ، أجل جلال ، أعظم عظمة ، الذروة والغاية

في كل شيء ، الإفلات من مخالب الموت ، الخلود ، الحب المطلق ، الحب المنزه النظيف من دون أي شائبة أو أي شيء يلوثه ، العشق المطلق ، المحبة والتضحية والإيثار بلا حدود ، بطل لا يقهر .. لا يهزم .. لا تحده حدود ، الطهارة والتقوىٰ والورع المطلقة الخالصة من أي ضعف ، بحيث لا يمكن أن تتطرق اليها شائبة أبداً ، البقاء بلا نهاية ، بلا حدود والتحول الى مطلق ، الكمال المطلق ، وهكذا كانت هذه المعاني صوراً تراود الإنسان وتغرقه في عالم من الوسوسة والتسويل ، وتقنعه بأنه منها ومن جنسها وتجعله يعيش حلماً دائماً في التحليق نحو تلك المطلقات والتمتع بها والخلود في ظلالها ونعيمها ... فيما كان الإنسان ينظر الى واقعه فلا يرىٰ سوى الدناءة .. فاذا كان ثمة حب .. عشق فهو ممزوج بالدناءة والشوائب .. حب ملوث ، والإنسان يحتاج إلى حب منزه غير مدنس بالأهواء والانحرفات ، ولهذا يخلق القصة التي تصور له « الحب » الذي يطمح فيه وليس بموجود ...

ومن تلك الاساليب تصور « العالم المثالي » .. صياغة المدينة أو المجتمع الافضل الأكمل الأسمىٰ .. مجتمع « يوتوبيا » .. المدينة الخيالية .. هذه المدينة التي وجدت منذ زمن افلاطون ولا زالوا يقيمونها ويصورونها إلى يومنا هذا .. المدينة التي لا يمكن أن تتحقق في هذه الدنيا ، بيد أنّ الإنسان يبنيها في ذهنه ويشيد صروحها في دنيا الخيال ، والاعتقاد

بالمدينة الفاضلة جزء من فطرة الإنسان ، ولهذا تجد الإيمان بالجنة عند جميع الامم بلا استثناء .. والجنة عبارة عن مجموعة المثل النموذجية والمطلقات التي لا يوفّرها أي تراث وأي ثقافة ... الجنة عبارة عن تحقيق الطموحات البشرية بأسرها .. وفكرة الجنة فكرة فطرية تشكل جزءً من فطرة البشر ، غاية ما في الامر تختلف الأمم والافراد في تصويرها باختلاف المستوى الثقافي والمعنوي الذي يتمتعون به ، فكل يصورها بالشكل والمستوىٰ الذي ينسجم وتطلعاته فيما يتفق الجميع ويجمعون بلا تردد على ضرورة وجود حياة أخرىٰ ارفع من هذه الحياة تتجاوب مع الإنسان كل الإنسان وتنسجم معه .

ومن أهم واعظم الاساليب المعبرة عن الإنسان وعن هذه الروح وهذا الشعور الانساني الخاص المتجذر في فطرة البشر ... الاساطير ..

والاساطير عبارة عن مجموعة الشخصيات ، الظواهر ، الاحداث ، أساليب الحياة ، العواطف ، العلائق ، الأواصر ، الروابط ، التفاعل الانساني، وكلها بمستوىٰ الذروة في الكمال ، ولما كانت هذه جميعاً مفقودة وغير موجودة على وجه الارض في حين كان الإنسان دائماً وابداً يتلظّى ظمأً لها ، ويجأر من الم الجوع اليها ، ويعاني من مراودتها المستمرة والحلم الذي لا ينقطع بالتحليق في عالمها وملاحقتها كآمال وأماني بعيدة المنال ، كان مضطراً الى إشباع هذه الحاجات بوجه من الوجوه ، فصنع تلك المثل

في ذهنه وأقام لها صروحاً ومقامات ، ثم انطلق في تقديس هذه الرموز والمظاهر و« رب النوع » والآلهة وأخذ يعبدها ويتوسل اليها كمنقذ من هذا العالم المنحط الدنيء .



الخلاصة :

والنتيجة التي اردت الخلوص اليها الليلة ـ واني لأعتذر اعتذار شديداً لأني مضطر الى بتر الموضوع هنا وتأجيل متابعته الى الليلة القادمة ـ هي :

إنّ ما ذكرته ليس خاصاً بأمّة من الأمم ولا بدين من الأديان أو ثقافة معينة أو حضارة خاصة .. أبداً إنّما هو من خصائص الإنسان أينما كان وكيف كان بلا استثناء . شعور دائم بضحالة هذا العالم .. شعور مستمر بالنقص .. وهذا الشعور بالنقص يورث الإحساس بالغربة في هذا العالم .. والإحساس بالغربة يولّد الاضطراب والغم والتململ في داخل الإنسان ، وهذا بنفسه يحرّض الإنسان ويوقظ فيه الحنين إلى الوطن وإلى ذلك الغيب وتلك الديار التي يعلم أنّه جزء منها ، وان كان لا يدري ماهي واين تقع إلاّ أنّه يعلم أنّه لابد أن يكون فيها هناك ...

وهذا التململ الدائم وعدم الاستقرار الذي يعيشه الإنسان في هذا العالم أوجد فيه « الفن » لتعويض النقص وسد الخلل ، فيما قام الدين بدور أداء الرسالة في تلبية كل ما يحتاجه الإنسان وسد الثغرات والنقصان الذي يفتك به وإنقاذه من « الغربة » التي تنهش داخله عبر التاريخ وانتشاله إلى الطريق الواضح الذي ينجيه من الغربة ويقوده نحو وطنه .

ومن الشواهد التي تدل على أنّ الإنسان يعيش دائماً في حالة عدم الاستقرار والتململ والغم الحزن والشعور بالنقص في هذا العالم ـ حتىٰ لو كان منكراً لله ملحداً مثل سارتر ، بيد أنّه مضطر للإيمان بهذه الحقيقة ـ شعور الإنسان بأنّه أكبر من هذا العالم وأنّه يعشق المطلق ويقدسه ويتمنىٰ دائماً اكتسابه والتحلي به في جميع الأبعاد ونيل « كمال المطلوب » في كلّ شيء ...

وهذا الشعور واضح جلي طافح على الفن والرسم والأدب في جميع الأديان والاتجاهات عبر التاريخ .

والأساطير من جملة هذه الوسائل والأساليب المعبرة عن هذا الإحساس ، حيث كانت الأساطير تقوم بدور التخفيف عن الإنسان الغريب الذي يتعذب بمرارة العيش في هذا العالم الضيق والضحل الضئيل من خلال تعويضه بامتداح وتقديس دنيا الاساطير ودنيا الآلهة و« رب النوع » والمعاني الماورائية التي يحتاجها الإنسان ويفقدها الواقع .



وسوف أتحدث في ليلة غد عن سعي الإنسان على طول خط التاريخ في سبيل صياغة الأساطير منذ عهد جلجامش إلى سارتر ، ومنذ عصر الإنسان البدوي قبل التاريخ وإلى الإنسان المتحضر المعاصر الاوربي .. وما هو دور الأساطر في الحياة المعنوية لبني البشر ؟ وما هو موقع علي في هذه القصة ؟

والسلام

عود علىٰ بدء

قد يكون بعض السيدات والسادة الحضور غائباً ليلة أمس ، ونحن نريد الليلة الاسترسال في بحث البارحة ، ولذلك سوف نعرض الخطوط العريضة التي تحدثنا عنها قبل ليلة لكي نستطيع متابعة البحث .

موضوع البحث « علي حقيقة على غرار الأساطير » أساطير الإنسان ، ولقد أشرت البارحة الى أن الباحث يستطيع أن يدرس علياً من عدة زوايا :

الأولىٰ : من خلال التاريخ والمذهب الشيعي ، وعلي عنوان هذا المذهب .

الثانية : من خلال التاريخ الاسلامي بشكل عام ـ اي التاريخ المشترك

بين جميع الفرق الاسلامية ـ وعلي من أبرز واعظم الاوائل في الاسلام .

الثالثة : من خلال ملاحظة علي في إطار التاريخ الاسلامي باعتباره من أهم وأدقّ مراحل التاريخ البشري ، ودوره المؤثر العميق في تشييد حركة التاريخ خلال أربعة عشر قرناً وأثره في التاريخ عامة والقرون التي تلته خاصة .

بيد أنّي لم أتناول البحث من خلال زاوية من الزوايا الثلاثة المذكورة ، وانما تناولته من خلال علم « معرفة الإنسان » وخصوصياته الذاتية وخصاله الثابتة على طول خط التاريخ أو ما يطلق عليه في أوربا بـ « طبيعة الإنسان » أو « الحقيقة الكلية للانسان » أو « الانسانية » المشتركة بين جميع بني البشر ، في محاولة لدراسة علي على ضوء هذه الخصوصيات والخصال والضرورات التي تقتضيها طبيعة الإنسان توصلاً الى معرفة منزلة علي وشخصيته وموقعه ومقامه ودوره في « الانسانية » وبطبيعة الحال نحتاج حينئذٍ إلى « معرفة الإنسان » و« معرفة علي » في وقت واحد وكلاهما أمر عسير مستصعب .

وأشرت البارحة إلى أن علياً مجهول عند أتباعه وأنصاره الذين يتحدثون عنه ، وكذلك هو الإنسان ، فالإنسان كان مدى التاريخ مجهولاً سيما في القرون الثلاثة الأخيرة ، كما قرر ذلك جان ديوي بالرغم من التقدم العلمي والتقني والتوسع في معرفة الطبيعة والمادة والعمل على

تسخيرهما . كما أكد ذلك أيضاً رئيس مؤسسة العلوم الإنسانية في العالم « في فرنسا واوربا وامريكا » الكسيس كارليل[1] .

وقد ذكرت بالأمس أيضاً أنّ التاريخ كله ـ تاريخ الإنسان والأديان والعلوم والفنون ـ يشهد لحقيقة لا تقبل التشكيك والانكار وهي أن الإنسان كان يعيش منذ انطلاقة التاريخ حالة من الحزن والغم والشعور بالغربة بمجرد أن يتفرغ ويبتعد عن حياته اليومية ويستبطن نفسه ، وكلّما ازداد الإنسان رفاهاً ـ في المجال المادي ـ ازداد شعوره بالقلق والغربة في هذا العالم العاجز القاصر ، وازداد تطلعاً الى دنيا أفضل وعالم أرقىٰ وأسمى يحقق كلّ الطموحات والآمال الإنسانية ، ومن هنا وجدت فكرة العالم الأسفل والعالم الأعلىٰ منذ بداية التاريخ في التراث البشري على اختلاف عقائده واتجاهاته وافكاره .

ثم ذكرت أنّ علم النفس الطبقي توصل إلى أنّ الطبقات البرجوازية المرفّهة تعاني من ألم هذه المعاناة والشعور بالقلق والغربة

---

(١) وهو أول من بادر إلى انشاء مؤسسة لـ « معرفة الإنسان » جمع فيها نخبة من المتخصصين في الفزيولوجيا والمخ ، القلب ، البيسكاناليز ، علم الاجتماع ، علم النفس الاجتماعي ، علم الأجناس ، بحيث تجمع المعلومات وتقدم الى هيئة علمية يترأسها السيد الكسيس كارليل ، وبعد الدراسة والتحقيق جمع عصارة العلوم الانسانية المعاصرة في كتاب اسماه « الإنسان ذلك المجهولٰ » في محاولة لمعرفة الإنسان .
ويحق لنا أن نقول إنّ السيد الكسيس كارليل هو الذي وضع حجر الاساس لعلم « معرفة الإنسان » المعاصر في اوربا .

ونفاد هذا العالم ، والتطلع إلى شيء وراء المادة يحقق الآمال وينسجم مع الإنسان أكثر من طبقة « البرولتاريا » التي تمتاز بنظرتها الواقعية وتعاني من التفكير بالمحسوسات والحاجات الآنية والآمال المحدودة .. لقمة العيش ، الغذاء ، اللباس ، المسكن ، الظروف الصحية ، المال ، الثروة ، وهذه حاجات يمكن أن يوفرها هذا العالم ، فيما يحتاج اولئك الذين وفّروها إلى حاجات أخرىٰ تلهب أعماقهم ولا يمكن الحصول عليها في هذه الدنيا أبداً ولهذا تراهم يعيشون مرارة المعاناة والتطلع الى « هناك » الأمل ، والشعور بالغربة من « هنا » الفاني الذي استنفدت فيه الاغراض ، ويثابرون بلا هوادة في سبيل « النجاة » و« الفلاح » . ولم تنقطع محاولة الإنسان هذه ولا لحظة واحدة على طول خط التاريخ بل كانت هذه الفكرة تشكل اللب والروح في جميع الأديان والعقائد والفلسفات القديمة كما هو الحال في روح الفلسفة الآرية وروح فلسفة الصين وفلسلفة الهند « موكشا » أي الحركة نحو العالم المطلق « نيروانا » والنجاة من هذا العالم « سامسارا » الداني الفاني ، الساقط الغاص بالألم والمعاناة والعذاب ... الرحيل الى « نيروانا » ، النار الصامتة الوديعة ، المطلق ، الهدوء والاستقرار ، لا قلق ولا اضطراب ولا منغصات .. هناك حيث تروىٰ روح الإنسان ، وتشبع جميع حاجاتها وتستوفي متطلباتها .

يتطلع الإنسان إلى ذاك العالم الذي قامت عليه فلسفة « ودا »

و« بودا » الهند عبر التاريخ .

وكذا تراث اليونان الأثنيين .. سعي دائم وتمثيل لحركة الإنسان باتجاه دنيا الآلهة وتمنّيه العيش هناك ، والفرد الأثيني والحضارة والتراث الأثينية تركز اهتمامها وتكرس مناها في قمة « مونبارس » .. مونبارس المكان الذي تسكنه الآلهة .. زيوس وبناته التسع آلهة الجمال والفنون الجميلة ... « هناك » الذي يعتبره الفكر اليوناني موضعاً يليق بالإنسان وينبغي أن يعيش فيه ، بيد أنّه ليس على التراب ، إنّه « هناك » ، بعيد وينبغي علينا أن ننقذ أنفسنا من التراب وننطلق نحو قمة « مونبارس » دنيا الجمال المطلق والخير المطلق .

ونرىٰ ـ أيضاً ـ قضية الفلاح والرجوع الى الله والنجاة من عالم المادة في الأديان الابراهيمية التي تبدأ بآدم وتنتهي بالخاتم ـ ومثّل إسلامنا آخر حلقة وأكمل صورة في هذه السلسلة ـ حيث تعتبر من الأصول الأساسية ، والضرورات الحتمية، والإحساسات الرئيسية في هذه الأديان .

وكذلك تؤكد الدراسات العلمية في التراث البشري أنّ الإنسان البدائي الذي كان يعيش قبل ثمانية آلاف سنة أو عشرة آلاف أو عشرين ألف او ثلاثين ألف سنة ، وحتى أولئك الذين كانوا يعيشون في الغار المكتشف أخيراً في اسپانيا قبل ثلاثة وثلاثين الف سنة ، الإنسان البدوي البدائي الذي لا يعرف اللباس ، والخط ، بل حتى اللغة ، كلهم كانوا في

سعي حثيث ومحاولات متتالية من أجل الوصول الى ذلك الغيب ، والى ذلك المكان اللائق بالإنسان ، المنقذ له من براثن واقعه الضحل القليل بما فيه من قدرة مطلقة على تحقيق الآمال والأماني والتوازن للانسان بكل أبعاده .

ولطالما كانت فكرة الجنة تشغل ذهن الإنسان مدىٰ التاريخ ، ولهذا لا تجد دينا أو فلسفة تخلو من الاعتقاد بالجنة حتى ا لفلسفات غير الدينية تبني لنفسها « المدينة الفاضلة » ، « ايوتوبيا » افلاطون ، « مدينة الله » توماس مور ، « سن سيته » جان ايزوله .

إنّ هؤلاء قوم لم يتعرضوا قط إلى جنة ما وراء الطبيعة ولربما انكروها من رأس ، بيد أنّ حاجتهم المستمرة والقلق والعوز والاختناق في هذا العالم جرّهم إلى تصور وافتراض عالم المطلق الجميل وبناء « المدينة الفاضلة » و« مدينة الله » و« المدينة المقدسة » كما فعل جان ايزوله .

وقلت أيضاً : إنّ الدين باب حقيقي يفتح للإنسان طريق النجاة من هذه الدنيا « السجن » إلى الله وإلى المكان الطموح الذي يحلم به الإنسان ، وإنّ الفن بكل أقسامه نافذة نحو العالم الأمثل ، وإشباع كاذب ، وتصوير مزيف ، يقصد به تزيين السجن واخراجه بصورة يستسيغها الإنسان بعد أن فتك به عذاب المعاناة من ضيق هذا السجن وقلة ما فيه ، فيخلق ويبدع ما افتقده في صور فنية ، وإذا ما عجز أحياناً عن القيام بأعمال

فنية عظيمة فذلك يعود الى ضعفه الفني أو ضعف قواه الفكرية عن تصور الأمثل المطلوب بمستوى الطموح . ويبقىٰ كل قسم من أقسام الفنون وكل نوع من انواعها تعبيراً عن النقص الذي يعيشه الإنسان في ذلك المجال ، ولو كان في الوقت متسع لاستعرضتها واحدة واحدة وبيّنت كيف يقوم كل نوع بإشباع الحاجة التي يعاني منها الإنسان ويطمح اليها ولا ينالها .

لماذا يصنع الإنسان الأسطورة :

من الأعمال التي كان يقوم بها الإنسان دائماً وابداً منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا ـ حتى الإنسان المادي المعاصر ، الإنسان المنطقي المعاصر ، العالم الفيلسوف الملحد بما وراء الطبيعة ـ صياغة النماذج المثلىٰ ، صياغة صور الجمال وعالم الحلم المفقود ، فيصنع في ذهنه وخياله ما يتمنىٰ أن يكون ولا يكون .

والأسطورة من تلك الاساليب التي كان يضطر اليها الإنسان تحت وطأة الشعور بالنقص في هذا العالم والطموح إلى سد الخلل .. فبادر منذئذٍ إلى « الاسطورة » والاسطورة على نحوين :

النحو الاوّل :

ما تتخذ من الشخصيات الواقعية في التاريخ أبطالاً تدور عليهم

محاورالأسطورة، فتؤخذ الشخصية الواقعية التي عاشت برهة من الزمن كأي إنسان عادي خلال ثلاثين أو خمسين أو ستين سنة وقامت بفتوحات وسجّلت انتصارات ثم استسلمت للمرض وبالتالي الموت ، ثم يأتي الإنسان بعد حين ويجعل منها شخصية غيبية ماورائية من نوع الإنسان الطموح الذي ينبغي أن يكون ولا يكون أبداً ، فيتحول هذا البطل من الواقع إلى الأسطورة ويصور في الذهن كما يحلو للإنسان الذي يتمنىٰ أن يكون كذلك لا كما هي الحقيقة التاريخية .

ومن النماذج التي نعرفها لمثل هذه الاساطير « أبو مسلم الخراساني » .. كان أبو مسلم غلاماً قوياً في خراسان يتربص الدوائر ويترصّد الفرص ، ويعدو هنا وهناك لعله ينال السلطة ويأخذ بحظه منها ولا يهمه بعدئذٍ الوسيلة التي توصله إلى هدفه ، يطرق كل باب ويتوسل بكل قوة إيرانية كانت أو عربية أو اسلامية أو شيعية لا فرق عنده بين اي جهة أو أي شيء ، المهم أن يصل إلىٰ الغاية .

شخصية مغامرة ، متعطشة للسلطة ، تمتلك اللياقة العسكرية والقيادية المطلوبة .

ولما أخذت الحركة العباسية تنمو والسلطة الأموية تتضاءل وتضعف ، وأصبح من المعلوم أنّ الريح بدأت تملأ البالون العباسي وتقيم خيامه حتى صار من الواضح جداً أن المستقبل مع بني العباس ، جاء أبو

مسلم وجعل نفسه في دائرة العباسيين وانخرط في حركتهم ، وأخذ يواجه بني أمية الذين بدأ نجمهم بالأفول يوماً بعد يوم ويلتصق بالعباسيين ويخدمهم بلا حد ولا تريث ، وارتكب الجرائم في سبيل اكتساب المناصب ، واكتسبها بالفعل ووصل إلى ما يريد الوصول اليه بالمقدار الذي تمكن منه ، والعباسيون يسخّرونه ويستفيدون منه ما استطاعوا ، فاحتفظوا به وحموه ما دام وجوده نافعاً لهم حتى إذا حان الوقت ونوى ابو مسلم تصفية الحساب واستلام الأجر أشار الخليفة بيده فانهالوا عليه من وراء الستائر أو النوافذ وقضوا عليه وانتهت القصة .

هذا هو أبو مسلم في التاريخ ... ولكننا حينما نقرأ عنه في المكتبات أو المقاهي أو نسمع عنه في القصص نجده أبا مسلم آخر سوى من عرفنا لا يشبه ابداً أبا مسلم الذي سمعت قصة مقتله وما ارتكبه من جرائم في التاريخ ، بل لا يشبه أعظم وأكبر الشخصيات التي عرفها التاريخ من أوله إلى آخر .

فهو : أولاً : حي لا يموت أبداً .

وثانياً : لا يقهر أبداً ولا يعرف الهزيمة .

وثالثاً : سيظهر مرة أخرىٰ ويستأنف العمل وهو موجود في كل مكان ، في تركيا ، وايران ، وكل مكان وكل مدينة ... ثم نراه يصبح شخصية تجمع خصالاً عجيبة ، فهو حكيم عظيم جداً ، وأخلاقي كبير جداً ،

ومقتدر عظيم جداً جداً ووجود آخر لا علاقة له بأبي مسلم الحقيقي في التاريخ ، ذاك شيء وهذا شيء آخر لا يتشابهان .

ومن الشخصيات الأخرىٰ الاسكندر الذي أوغر صدر « يورداود » فكان ينادي حتىٰ الممات « لماذا عظّموا هذا الملعون إلى هذا الحد .. لماذا قدسوه وعظّموه ؟ ! » .

الاسكندر شاب يوناني هجم على ايران فاسقط الحكم فيها واشعل النار في عرش جمشيد « تخت جمشيد » وكسر شوكة الحخامنشيين واباد جلالهم وأبهتهم ، ثم حكم ايران هو وخلفاؤه مدة من الزمن وسحق بجيش اليونان حضارة الشعب الايراني وعظمته وقدرته .

فالمفروض ـ اذن ـ والحال هذه أن يكون الاسكندر رجل التاريخ المبغوض في ايران ولابد أن يذكره الايرانيون بسوء ، يذكرونه كأبليس ، كملعون ...

ولو لم يذكروه كرجل ملعون ـ والكلام لي ـ فهو على كل حال عسكري غزىٰ ايران من الغرب ، وأباد الحرث والنسل ، وقضىٰ على الحخامنشيين ، ثم تربع مدة على سلطان ايران وجاء من بعده خلفاؤه ثم هزموا وفرّوا وطويت صفحتهم .

فهو اذن بطل مثل جميع الأبطال الآخرين في التاريخ ، بيد أنّه في

« اساطير الاسكندر » رجل آخر غير « اسكندر التاريخ » . لقد جعلوا من هذا الشاب اليوناني المنحرف الضعيف الفاسد الذي لا يملك اي شيء سوى الفتوحات التي أنجزها بالحرائق والتشريد والتخريب والهدم والمجازر ... لقد جعلوا منه شخصية موحدة ، حي ، لا يقهر ، جرّد سيفه لانقاذ البشرية منذ طفولته ، وجعلوا منه في « قصص الاسكندر » شيعياً يحب علياً ويحضر في بلاط سليمان ليعلن عن حبه لعلي ويدعوهم الى ذلك ويتحدث لهم عن موالاة علي ، يتحلىٰ بجميع الفضائل والخصال الحميدة .. ولكنها ليست تلك الفضائل التي يتحلىٰ بها الناس ، وإنّما هي الفضائل التي ينبغي أن تكون عند الناس ولا تكون ولا يمكن أن تكون ، .. لا يموت أبداً ، لا يهزم أبداً ، لا يعمل فيه السيف أبداً ، ليس فيه أي عيب أو منقصة روحية أو أخلاقية ، ورسالته انقاذ البشرية و« إنقاذ الإنسان » ولهذا هجم على ايران ... إنّه إنّما غزىٰ ايران من أجل الإنسان ومن أجل تعميم التوحيد ونشر رايته على البشرية واقراره في قلوب العالمين .

لقد صنعوا من اسكندر الواقع « رب النوع » المأمول وبطلاً خيالياً عظيماً ..

النحو الثاني :

النوع الثاني من المثلوجيا أو الأساطير : هي الأساطير التي ليس لها

اســاس مــن الواقـع أبـداً ، فـلا الاحـداث ولا الشـخصيات ولا العـلائق والارتباطات لها وجود في الدنيا إنما هو خـيال مـحض بـعيد عـن عـالم الواقع ..

وهذا النوع من الاساطير يحكي الآلهة وأربـاب النـوع والنـموذج الأمثل الذي يتمناه الإنسان .

فلو أخذنا مثلاً عاطفة الحب ، الحب الشديد الذي يشعر به الإنسان تجاه فرد أو جـماعة .. الحب الخـالص مـن الشـوائب والدنس .. الحب الصافي الخالص الذي لا تلوثه الخيانة والمصالح الشخصية والأغراض .. الحب فقط خالياً من أي عيب أو نقص حاجة يعيشها الإنسان ويتمنىٰ أن يعمر قلبه بحب لا دغل فـيه ولا غـل ولا أنـانية ولا أهـواء رخـيصة ولا مصالح ، فيتجه باحثاً عنه في صفحات الواقع فلا يجد له مصداقاً ، وكلّ ما يراه انما هو حب مـدنّس مـلوّث مـلفّع بـالأهواء والأنـانيات والمـصالح والمطامع ، ولو لم يكن كذلك فضعيف متزلزل سرعان ما يزول أو ينقلب إلى احقاد وضغائن فيمسخ وينحرف وهكـذا دواليك .. لا يـوجد الحب الطموح في أي مكان وأي زمان ، الحب ملوث دائماً وأبداً ولا يمكن أنْ يحقق طموح الإنسان وآماله ، إنّه يشعر بالحاجة للحب « العشق » المطلق المقدس النظيف ولا يمكن لمثل هذا الحب أن يشرق في قلب الإنسان الذي يعيش على وجه التراب وتتنازعه آلاف الغرائز الأُخـرىٰ .. واذا مـا

وجد فسرعان ما يذوب ، ولا يمكن أن يكتب له الدوام أبداً .

اذن .. ما هي الحيلة ؟ وما هو سبيل الخلاص ؟ ما ذا يعمل وكيف يحقق هذا الأمل ويستجيب لهذه الحاجة ؟

يلجأ الىٰ صناعة النموذج الامثل « رب النوع » ، يبحث عن عاطفة ، فكرة ، شخصية ، يجسدها في الخارج فتكون صنماً ، ربّاً نموذجياً وشبحاً خيالياً .

مثال آخر :

إنّ حب التضحية والإيثار حاجة يعيشها الإنسان .. وهو يحتاج أن يرىٰ نفسه أو يرى فرداً آخر أو آخرين في أمته أو في عصره أو على امتداد التاريخ يضحّون بأعلىٰ وأكمل مستويات التضحية .. التضحية المطلقة بحيث ينسىٰ ذاته تماماً من أجل الآخرين وحينما تثار قضية المحبة .. حب المجتمع والأمة والبشرية وتتعرض مصالحها للخطر ينفي نفسه ويبيد جميع غرائزه ويغمض النظر عن جميع مصالحه ويذبح الأنا في داخله ويضحي ببساطة ورضا من أجل الآخرين ، ويقدم نفسه قرباناً وفداءً ليحقق مصالح الناس .

هذه أمنية الإنسان وطموحه الذي يتطلع اليه ولكنه حينما يتصفح

التاريخ بطوله فاحصاً عن مثل هذه الشخصية يجد أن الإنسان الواقعي الذي يتحرك على الارض لا يمكن بحال من الأحوال أن يمتلك مثل هذه المشاعر والقوة والاقدام .. فقد يضحي بعض الناس ويجعل نفسه فداءً للآخرين ، وبالرغم من ذلك يبقىٰ ثمة شعور بوجود مؤثرات دخيلة كالأنانية أو حب الشهرة ، فاذا كان المضحي قد سلّ سيفه وخاطر بنفسه بنسبة ثمانين بالمائة من أجل العقيدة ومصلحة الآخرين فتبقىٰ نسبة ٢٠ ٪ منها بدافع « الظهور » و« عرض الذات » والعضلات والكفاءات .. وهنا نرىٰ « الانانية » تلوح إلى الرائي حتى في لحظات المخاطرة بالنفس وتسليم الروح ولربما القت الانانية بظلالها علىٰ أنزه «موتة» ونثرت نقطها السوداء على صفحة الموت الابيض الطاهر .

حكاية مولوي :

حكىٰ مولوي في « المثنوي » قصة مجاهد كبير كان يضرب بسيفه ويقتحم ساحات الوغىٰ ويجاهد بحرارة وإقدام ويرجع منتصراً مخضباً بالدماء ، وفي أواخر عمره جلس مرة يفكر في أمره فوجد نفسه يخوض المعارك ويصب جام غضبه على رؤوس الاعداء ويروي غليل حقده من الدماء ، بيد أنّه في نفس الوقت كان يحس بلذة نشوىٰ من خلال ابراز عضلاته واشباع غرائزه الشخصية الفردية ... كان يتلذذ وهو يحقق غريزة

« حب الظهور » ويثبت للآخرين أنه .. بطل .. بطل كبير .. وشخصية عظيمة ، وكانت هذه الايحاءات تؤثر بشكل أو بآخر على إقدامه وتضحيته وخلوصه ، فقرر الاعتزال ثم قبع في زاوية وتفرغ للعبادة[1] ، ومرّت عليه ايام ثقيلة عسيرة وهو مشغول بالصلاة وقراءة الاوراد والرياضة . وفي ذات يوم سمع طبول الحرب تقرع وصرخات الجهاد ترتفع والابطال يتجمهرون ويتدافعون والضجة تملأ الأسماع في الشارع .. صهيل الخيول وصليل السيوف وزعقات الابواق وأجواء الحرب تسيطر على الساحة .. إذن فثمة جهاد وميدان صراع .

وبعد قليل ستدور رحىٰ الحرب .. فاستثيرت حمية الرجل الذي قضىٰ عمره في الجهاد والقتال فانتفض قائماً وخرج إلى الشارع .. فهذه طبول الحرب والحرب تطربه وتهزه وتقتلعه من زوايا الخلوة والرياضة وتدفع به إلى لهوات الموت .. وفجأة .. انها « الانا » ... « حب الذات » تقنّعت بقناع التضحية والفداء وتريد أن تخدعني باسم الجهاد .. وأخذ يحاور نفسه ويحاكمها :

.. ألا يا نفس .. لماذا الاستجابة هذه المرة بالذات ؟! أنسيتِ يوم كنت أُدعى إلى الموت والتضحية والجهاد وكنت تغررين بي وتسوّلين لي أن انسحب إلى زاوية من زوايا البيت وأترك الجهاد في سبيل العقيدة

(١) ولا اريد هنا تبرير فعله هذا ، وإنّما سقت القصة لغرض آخر .

وتسوّفين وتوسوسين لي : أن اترك هذه المرة فقط وسوف تشترك غداً أو بعد غد ، ولقد أديت ما عليك وجاهدت بما فيه الكفاية ... تَريّث .. إلى متى يشترك الإنسان في الحروب ؟ لا حرج عليك بعد كل ما قدمت ... يا نفس .. ألم يكن هذا حديثك معي قبل اليوم فما الذي حدث فغيّرك وانت اليوم تدعينني للحرب وتدفعين بي الى الجهاد ؟! ... هل تغيرت النفس .. الم تكوني قبل هذا تسوّلين لي أن انحاز في ساحة المعركة وأجوب المناطق التي يقل فيها الخطر ؟! ألم تذوديني عن المخاطر وتبعديني عن المواقع التي يتحتم فيها الموت ؟! اذن فلماذا كل هذا الإصرار على اقتحام الحرب هذه المرة ؟!

إنّني اعلم لماذا .. انك تقولين : ما دمت قد قررت التخلص من « الانا » وذبح « الذات » والقضاء على الأنانية فلا ينفع معك شيء بعدئذٍ .. فبدلاً من أن تقتلني في الزاوية المظلمة وتخنقني بصمت بعيداً عن الانظار وتذبحني من دون أن يفهم أحد أو تطّلع عين خذني إلى ساحة المعركة واقتلني هناك على رؤوس الأشهاد ليرىٰ الجميع أنّي ضحية .. ليشهد الجميع أنّك قدمتني فداء ويعترفوا بي كمجاهد ، وهذا أفضل من الموت البطيء الهادئ والاختناق السري الغامض في زاوية مظلمة تعمّي الآثار وتكتم الأخبار ، فلا يعلم أحد أنّي ضحية قدمت فداءً للاهداف الكبرىٰ !

قصة أبي جهل

لما صرع أبو جهل جلس أحد المسلمين على صدره ليحتز رأسه فقال له أبو جهل : أقطع رأسي من أسفل الرقبة ! فقال له المسلم : وما الفرق ؟ انك ستقتل سواء كانت رقبتك مع رأسك أو مع جسدك قال ابو جهل : اذا حملت الرؤوس على الرماح يجب أن يكون رأسي أعلى الرؤوس ليعلم الجميع أنّه رأس أبي جهل !

وهذا الشعور موجود بشكل أو بآخر عند الجميع ، غاية ما في الأمر انه ربما تستر تحت ضباب التأويل والتفسير والتبرير ، بحيث يصبح من الخفاء والشفافية بمكان يصعب على الإنسان نفسه الالتفات اليه .

نموذج لحب الذات المبطن

قال أحد اساتذتي : انّ الذين يدخلون المجلس ويحاولون تخطي الرقاب للوصول إلى صدره والحصول على مكان هناك مهما كان المجلس مكتظاً ضيقا تتوجه اليهم الأنظار ويهمس الجميع : إنّه أناني .. أناني جداً .. ويأتي الآخر فيجلس على الأحذية وكلما يتوسل اليه الآخرون : تفضل هناك .. المكان رحب وفيه متسع .. يرفض قائلاً : كلا أجلس هنا على الأحذية .. ثم يدعونه مرة أخرىٰ ويرفض ، ويلتمسون ، ويصّر : إنّ مكاني

جيد ... يلتفت اليه الناس ويهمسون : إنه متواضع .. متواضع جداً .. ولربما كان تكبر هذا الأخير وأنانيته أكثر من الأول ، لأن الأول يمتلك شيئاً من التكبر والانانية فيصرح أنّ مكاني في صدر المجلس وأُريد أن أجلس هناك ليعلم الناس أني من ذوي الوجاهة . أما الثاني فإنّه يريد أن يصرّح بنفس ما صرح به سابقه ، بيد أنّه يعبّر عنه بصيغة أخرىٰ وكأنه يقول لهم .. إنّ مكاني في صدر المجلس ، وهذا ما تعرفونه أنتم أيضاً ولذلك تلحون عليّ بالجلوس هناك ، والآن بعد أن عرفتم مكاني الحقيقي وفهمتم ذلك جيداً اتضح لكم أنّ انانيتي لا تقل عن أنانية صاحبي السابق ، غير أني أريد أن تعلموا شيئاً آخر وهو أني بالرغم من قناعتي بسمو مقامي وارتفاع مجلسي ، وبالرغم من قناعتكم أيضاً اتواضع وأجلس دون مجلسي فهل اكتشفتم كم « أنا » متواضع وطيب ؟ .. وبهذا تكون انانيتي أعمق ، وفيها زيادة على أنانية الرجل الأول الصريح .

وهكذا قد تبدو أحياناً بعض القضايا النفسية مزينة بحلّة جميلة وظاهر وقور وكأنها حقيقة مطلقة ولكن التحليل الدقيق يكشف عنها الستار ويمزق القناع فتتعرىٰ « الذات » و« الانا » و« النفس » و« المصالح » بعد أن كانت كامنة مختفية في لفائف « المُثل » .

الأساطير ضرورة نفسية

يتمنّىٰ الإنسان أن يكون روحاً خالصاً .. روحاً محبوباً مهيمناً ..

روحاً يمكن أن يعتمد عليها ويحبها بل ويقدسها إلى حدّ العبادة .. على أن تكون روحاً غاية في التضحية والفداء والإيثار .. روحاً منزهاً من الذاتيات والأنانيات والمصالح الشخصية ... روحاً طاهرة لا يلوثها شيء أبداً .. روحاً بيضاء ناصعة ليس فيها أي بقعة حتى لو كانت « الاعلان عن التضحية » .. روحاً عظيمة كبيرة تتدفق منها نيران التضحية والفداء وإبادة الذات من أجل الآخرين ...

وهذا مستحيل .. غير ممكن ألبتة .. غير ممكن أبداً .. ولكننا نحتاجها .. نتطلع اليها بشغف لانها ضرورة نعيشها ... فماذا نصنع ؟ ... نصنع « برومثيوس » !!

اسطورة برومثيوس

« برومثيوس » .. « برومثيوس » .. « رب النوع » والآلهة المشهور المعروف جداً في العالم ... صنعه الاثنيون واليونانيون ، ثم رحل إلى روما ومن هناك سافر في كل الدنيا .. « برومثيوس » إله من الآلهة اليونانية في دنيا الالهة .. يعيش في عالم الآلهة .. هناك حيث يتوفر كل شيء .. الجمال ، القدرة ، الخير ، الحب ، « برومثيوس » منهمك هناك مع زملائه الآلهة يعيش سعيداً ، لديه كلّ شيء وغني عن أيّ عمل وأيّ شخص .. إله سعيد ، تمر أيامه بسلام ووداعة ، وعلى حين غرة يقدم « برومثيوس » على عمل

مثير يمثّل القمة في التضحية والفداء .. عمل جريء ضد « ذاته » و« مقامه » و« جميع زملائه ـ الآلهة الأخرىٰ » وضد الدنيا التي كان يعيش فيها سعيداً مرفهاً محظوظاً .. فيثور من أجل الإنسان ويختطف « النار » من أرض الآلهة ، من العالم العلوي الذي تسكنه الالهة .. يسرقها ويهبط بها خفية إلى الارض ويقدمها هدية للإنسان الذي يخيم عليه الظلام ويعذبه البرد القارس في الليل الحالك المستمر بلا ضياء وهو بحاجة ماسة الى « النار » و« النور » وليس عنده شيء منها .

ويأخذ الإنسان هذه « النار » فيمزق النور ظلمات الليل ويتصل الليل بالنهار فيشعر الإنسان بالدفء وينتشر النور في حياته ويذوب الجليد الذي يجمده ، وبكلمة لقد منح « برومثيوس » « النور » و« الدفء » للإنسان وأنقذه من العذاب ، ويا لها من خدمة عظيمة لا تضاهىٰ .

وما إنْ قام « برومثيوس » بهذا العمل حتى غضبت عليه الآلهة ـ ومن البديهي أن بروميثيوس كان يتوقع هذا المصير المحتوم من قبل ـ فالقوا القبض عليه وكبّلوه بالأصفاد وحبسوه في جبال القفقاز على القمم الثلجية المتجمدة .. سجنوه هناك ووكّلوا به كركياً وحشياً فظيعاً له منقار خشبي حاد كبير ينقر كبد « بروميثيوس » المغلول بالسلاسل في ثلاجات الجبال المظلمة الموحشة المقفرة .. فكان هذا الطائر الوحشي مكلّفاً بنقر كبده ، يقطّعه ذرة ذرة ، ويأكله حتى يأتي عليه ، وبروميثيوس يتجرع الالم

الشديد ويقاسي العذاب المرير مرة بعد مرة ، وكلما قضىٰ « الكركي » على كبده حلّق طائراً يحوم حوله في عملية استطلاع ورصد ، وما إن ينمو الكبد من جديد حتى يعود الكركي إلى النقر والتقطيع والأكل مرة ثانية .

وهكذا ظل « برومثيوس » منذ أن سرق « النار » رغم إرادة الآلهة ـ وكان منهم ـ ومنحها للانسان وضحىٰ تلك التضحية الكبرى ، ظل منذئذٍ سجيناً وحيداً غريباً في جبال القفقاز يصابحه ويماسيه « الكركي » فقط .. وحيداً ليس له جليس نديم الا هذا الوحش الكاسر . مغلولاً بالسلاسل والاصفاد والكركي يأكل كبده باستمرار والكبد ينمو أيضاً باستمرار ، وهذا هو مصير برومثيوس لا يتغير ولا زال إلى الآن كذلك ـ ولربما رآه أولئك الذين ذهبوا إلى القفقاز !! ـ .

من هو « برومثيوس » ؟! هل كان إلٰهاً كهذا حقاً ؟! هل ثمة إنسان كمثله حقاً ؟! هل توجد ـ أساساً ـ دنيا كدنياه ؟! .

أبداً .. ومن البديهي جداً أن ليس ثمة أحد في العالم يصدق هذه القصة .

اذن فما الذي أدىٰ إلى صنع « برومثيوس » على هذه الشاكلة ؟!

إنه الإنسان ! .. الإنسان الذي يشعر بالحاجة الماسة لبرومثيوس ولا برومثيوس ، لاستحالة تحقيقه في الواقع ..

الإنسان يحتاج إلى نموذج للتضحية بهذا المستوىٰ ، بيد أنه لا يحصل على « إنسان مثله » ولو فتش عنه كل التاريخ ، وتسلق عمود الزمن بحثاً عنه ، وهو يعلم أن هذا الفرد مستحيل الوجود .. الفرد الذي كان يعيش في سعادة مطلقة .. السعادة الالٰهية في دنيا الآلهة التي تتوفر على جميع النعم المادية والمعنوية وجميع صور الجمال ، وتشبع جميع الحاجات مهما كانت ، ثم يطلّق هذه الحياة ويورّط نفسه بهذا العذاب من أجل سعادة الإنسان وهو من « نوع آخر » ...

انه نموذج الطموح المثالي : حرمان من عالم الآلهة .. حرمان من منصب الرب ، وابتلاء بتعذيب وحشي ، وعزلة دائمة في جبال القفقاز ، وألم خالد ، وعذاب مستمر ثم لم ولن يندم بروميثيوس .. أبداً .. أبداً ..

وهكذا ظل بروميثيوس وتعاطفه مع الإنسان وتضحيته من أجل الآخرين حلماً يراود البشرية ويدغدغ عواطفها ويحقق آمالها بوجه من الوجوه ، ولهذا تجد قصته تصاغ كل يوم بشكل جديد ـ إلى يومنا هذا ـ ولا زالت المسارح تعرض قصته باستمرار والكتب تصوّر ملحمته ، وآخر نتاج في هذا الحقل « بروميثيوس في السلاسل » للكاتب المعروف « أندريه جيد »[١] .

---

(١) كاتب فرنسي معاصر مات قبل سنوات ، يعد من أعظم الكتّاب المتنوّرين المعروفين .

وكل ذلك تعبير عن حاجة الإنسان للمثل الموجودة في قصة « برومثيوس » المعدومة في حياته .

فينـــوس :

الإنسان يحتاج إلى الجمال ، بيد أن كل افراد الجمال التي يعيشها نسبية ، ناقصة ، مؤقتة ، مزيفة ، مصطنعة ، متزلزلة ، سرعان ما تتبخر وينتهي الجمال ، والإنسان يبحث عن جمال مطلق .. وليس ثمة جمال مطلق .

فيبتكر ذهنه « فينوس » .. يصنع « فينوس » آلهة الجمال .. الجمال الكامل الذي لا يعتريه نقص أبداً .. الجمال المطلق .. لا يشوبه « القبح » ولا يحده الزمان .. لماذا « فينوس »؟ لأنه يريد أن يعوّض عمّا لديه من « قبح » ويشبع حاجته للجمال ولو بالخداع ، وكم نستعمل نحن هذا الاسلوب فنخدع أنفسنا ونشبع حاجاتها ! ...

وكذلك الأمر في حب العظمة .. حيث يشعر الإنسان بالحاجة الى « العظيم المطلق » إلى « العظمة والسؤدد » بيد أن جميع العظماء عظمتهم نسبية .. قد يكون « اعظم شيء » ولكن ثمة شيء آخر اعظم منه .. « الأعظم » .

يبحث عن الروح العظيم .. الفكر العظيم .. العظيم الخالد الكامل

الذي لا يعرف النقص .. ولا يطرأ عليه العجز والانحراف .. فلا يجد .. فيصنع الطموح في اسطورة ..

وكذا يحتاج إلى « تاريخ مطلق » .. تاريخ لا يحده بزمان ولا مكان ولا تلوثه انانية ولا فساد ولا قبائح .. غير أن تاريخ البشر والشعوب والأمم ، وتاريخ الأبطال جميعاً ملوث ، ناقص ، معيب ، منحرف ، نسبي ، واذا كان في جانب من جوانبه حسن تسطع منه آيات الجمال والسمو والرفعة والقداسة ففي جانبه الآخر نذالة وكدر وضعف وهزيمة .. جميع أبطال التاريخ يهزمون .. يقهرون .. يموتون .. يستولي عليهم الضعف ، محدودون بالزمان والمكان والبيئة والظروف ، محكومون بالغرائز والشهوات والوان الضعف مثل باقي افراد البشر الحقيقيّين .. فيما يحتاج الإنسان إلى « تاريخ » و« سيرة » ينبغي أن تكون بمستوى الطموح .. وليس ثمة تاريخ كهذا .. فماذا يصنع ؟ يصنع الاسطورة ، فالاسطورة إذن عبارة عن « التاريخ » الذي يتمناه الإنسان وهو يعلم أنّه « كذب » .

* * *

رستم وتهمينة :

إنّي أبحث عن « بطل » ، بطل يمثّل العنصر الآري ... أفتش في كل

مكان فلا أجد الا ناقصاً ، ذاق طعم الهزيمة ولو مرة واحدة .. أراه عرضة للضعف والفناء ، أبحث في « سيستان » فأجد بغيتي « البطل » .. أصنع منه « رستماً » يخوض الحروب وهو في الثالثة من عمره .. أصنع منه « رستماً » لا يهزم ابداً .. واذا ما اضطررت إلى أن اصوّره في حالة الهزيمة ، فلتتحقق الهزيمة على يد ولده .. وهذا بنفسه فوز كبير .. لا يمكن أن يهزمه الآخرون .. وهل يهزم من يعيش مع « العنقاء » وغيرها من الطيور ؟! ..

رستم الذي لا يعرف الضعف بتاتاً حتى حينما وقع في بئر « شغار » ـ البئر المزروعة بالحراب ـ وغاص جواده فيه لم يمت ولم تبدُ عليه أمارات الضعف ..

رستم الآن لا زال حياً يعيش في احدىٰ القرىٰ ويشتغل بالزراعة .. إنّه بطل لا يموت وإنسان خالد لا يفنىٰ حتى اذا أُلقي في البئر .. لا يقهر ولا يهزم في أي معركة ، نزيه لا يدنسه شيء ، وحينما رحل رستم إلى « توران » موطن أفراسياب أغرم هناك بحب « تهمينه » .. عشقها وهام بها .

وفجأة نرىٰ القصة تجمع بين رستم وتهمينه في مكان واحد .. فليلتفت الإنسان إلى أن بطله المثالي تورط في « الفساد » و« الخطأ » و« الرذيلة » و« الحب غير الشرعي » و« العشق غير القانوني » وهذا نوع

من الهوس والركض وراء الشهوات وسوف يلوث « البطل » وتدنس أذياله الطاهرة ... فما هي الحيلة .. وماذا أصنع لانقذه .

وهنا يتحرك فردوسي ويذهب في منتصف الليل ليعود بالموبدان وليعقد قران تهمينة ورستم ، ليكون ابناؤه أولاد حلال ، وبهذا تمحىٰ جميع الآثار ولا تبقىٰ نقطة سوداء في صفحة « البطل » ، لان المفروض أن تكون صفحته ناصعة حتى لو كان الواقع يسجل غير هذا ، وهذه مهمة الاسطورة .. كلما حصل نقص عالجته الأسطورة ، ومتىٰ مات الابطال فالاسطورة تلاحق اخبارهم وتسجل آثارهم ومتى تعرضوا للضعف والفساد فالاسطورة تطهرهم وتنزّههم .

وبهذه الصورة يصنع الإنسان « التاريخ الطموح » من خلال الأساطير ... يصنع التاريخ الذي يتمنىٰ أن يكون ، ولا يكون ، ويضمّنه أفراداً وعلاقات وأحداثاً ومشاعر يتمنىٰ أن تتحقق في الخارج ويبحث عنها فلا يجد لها عيناً ولا أثراً .

روميو وجوليت

توجد ثمة مقبرة في مدينة ايطالية صغيرة تدعىٰ « وارونا » ، يزورها السواح وحشود من المثقفين المعاصرين منهم الشباب والشيوخ

والكتاب والشعراء ، والفنانون ، .. يزورونها في أجواء عاطفية وأشواق ملتهبة وخضوع منكسر ويرون لها حرمة شبه دينية عجيبة ، يدخلون المقبرة كمعبد مقدس يؤدون فيه طقوسهم ...

قبران متجاوران .. لمن هذان القبران ؟!

قبر روميو وجوليت .. مزار وضريح وتشريفات وابهة .. من هما روميو وجوليت ؟!

لم يكونا أحداً بعينه بل لم يكونا شيئاً .. ليس لهما وجود أصلاً ، وكلّ ما في الأمر أنّها كانت قصة في قديم الزمان ثم جاء من بعد كاتب يدعى « شكسپير » فصبّ هذه القصة في قالب مسرحي ـ تماماً كمجنون ليلى الخيالي الذي ليس له وجود خارجي أصلاً ـ والآن نجد مقبرة « روميو وجوليت » اللذين صنعهما كاتب في بيته .. انبعثا من بطن الكتاب وصارت لهما مقبرة ، فيما يعترف الكاتب نفسه بأنهما خيال ليس له نصيب من الصحة الواقعية بتاتاً[1] ولكننا نعيش الحاجة الماسة لهذه العاطفة الصادقة العميقة تماماً كما صورتها قصة « روميو وجوليت » :

روميو وجوليت .. ذابا في الحب .. هاما في العشق .. ومن ثم تيقنا

---

(١) فردوسي بنفسه أيضاً يعترف أن رستم كان بطلاً في سيستان وأنا جعلت منه بطلاً لقصتي ، لأن ايران والايرانيّين يحتاجون الى « رستم » ولا يملكونه ... حتى لو لم يكن رستم ولم يكن بطلاً فإنّنا سوف « نكوّنه » استجابة لتلك الحاجة .

أن لا وصال .. اذن فليموتا متعانقين .. يموت كلٌّ منهما في أحضان الآخر .. فانتحرا معاً ... انهما ماتا في الكتاب بيد أن مقبرتهما الآن على الارض !!

وليست القصة أسطورة قديمة .. فلقد ظهرت القصة في القرن السابع عشر وشيدت المقبرة في القرن التاسع عشر ، والكل يعلم أن لا شيء تحت التراب .. سواء كان أولئك الذين شيدوها أو أولئك الذين يزورونها زرافات ووحدانا ، ولكنهم جميعاً يشتركون في شعورهم بالحاجة إلى الجمال الرائع والعواطف الصادقة النزيهة .. والعلاقات الإنسانية الوثيقة النظيفة .. يشعرون بحاجة ماسّة تلح عليهم بمستوى يتحول ـ أحياناً كما قرره علم النفس ـ إلى حقيقة خارجية و« روميو وجوليت » مثال واضح لتحقق الحاجة في دنيا الخارج .

لقد صنعوا « روميو وجوليت » استجابة للضرورة التي يعيشها الإنسان .. حتىٰ أولئك الذين يعلمون أن هذا الكيان الخارجي كذب محض .. بيد أنهم يحتاجون لمثل هذا المكان ولمثل هذه القصة .. بل هم يحتاجون إلى هذا الخداع ! .. ويحتاجون إلى الإشباع ولو « كذباً » .

٧

راما ، فوتوشي شي ، زيوس :

الإنسان إذاً يحتاج إلى « بروميثيوس » وحين لا نجد « بروميثيوس »

في واقعنا نبادر إلى صنعه ثم نعبد ما صنعنا بأيدينا ، نحبه ونقدسه ، ونشعر بعواطف جياشة تجاهه .. فيخفف فينا ذلك الظمأ والتعطش الدائم الذي نعاني منه ، ولهذا تواجدت الاساطير منذ فجر التاريخ وصاحبت مسيرة الإنسان دائماً وأبداً باعتبارها تحكي النموذج الأمثل لكل عاطفة وكلّ قداسة وكلّ جمال معنوي كان أو مادي ...

يصنع الإنسان ما يطمح اليه ويتمناه فيعبر عن « أحلامه » ولا يعبر عن « واقعه » الحقيقي الذي يعيشه فيحكي قصة البطل كما يحب لا كما هو في الواقع ، فيصنع النموذج الاعلىٰ للعظمة بصورة الآلهة « راما » والآلهة « فوتوشي شي » في الصين واليابان ، وبصورة « زيوس » أو « أزيريس » في روما واليونان .

دموستنس ، تير :

ويصنع « دموستنس » لأنه يحب أن يسمع « الكلام » من فم جميل تنطلق الكلمات على لسانه من دون أن يلوثها حديث « الحياة اليومية المعتادة » ... يحب أن يسمع « الكلام » الذي يعد « خلقاً جميلاً سامياً متعالياً مقدساً » ..

يفتش عن هذا الطموح فيجد حديث الناس جميعاً لا يتعدىٰ دوائر

محدودة .. حديث معتاد مسموع كل يوم .. واذا ما لفعه بشيء من الجمال كالكناية والاستعارة وما شاكل فهو كلام فارغ عليه طلاء جميل وداخله لا حقيقة فيه .. مشوب بالكذب ، والمصالح والرياء ..

يفتش فلا يجد كلاماً يقطر من جوانبه الصدق والاخلاص ويزين ظاهره الجمال اللغوي والبلاغي .. لا نجد فنصنع « دموستنس » نصنع « تير » .. آلهة الكلام .

هرقل ، راما ، لاخس :

نصنع بطلاً عزيزاً لا يقهر .. يلتحم مع الأعداء ولا يهزم في أي مواجهة لأنّ أبطالنا يهزمون .. تتألق فروسيتهم وقدرتهم في برهة معينة ثم تخمد .. تغزو اسماؤهم كل مكان ثم تتراجع القهقرىٰ فتموت ، وتطفو على السطح أسماء أخرىٰ ، واذا تأملناحروبهم وبطولاتهم نراها ملوّثة غير نزيهة مطلقاً .. يلفها الغموض والغبار أحياناً .. أذن فليسوا هم ابطالنا المثاليين .. فماذا نصنع ؟

نصنع « هرقل » .. نصنع « راما » في الهند .. نصنع « لاخس » في روسيا واروپا الشرقية .

* * *

نصنع ابطالاً للمحبة والوداد والحنان .. وهذا ما نجده في جميع العقائد .. نجدها جميعاً تمتلك « شخصية » تتفجّر بالمحبة والعطاء والخير والبركة والتضحية من أجل الآخرين .. المفروض أن يكون هذا الشخص لأننا بحاجة اليه .. ولكننا محرومون منه .

إنّنا نحب ذلك الإنسان ـ أو ذلك الروح ـ الذي يفنىٰ وينسىٰ ذاته من أجل الحقيقة التي يؤمن بها .. من أجل النزاهة .. من أجل المقدسات التي يؤمن بها الإنسان .. يضحي فيشعل النيران في حياته ويحرق أيامه ويستسلم للمستقبل المظلم الاسود ويتحمل تعذيب « الكركي » والطيور الوحشية .. كل ذلك من أجل الآخرين !

اننا نحب مثل هذا « المثل الاعلى » فنبحث عنه في التاريخ فلا نجده وتخيب آمالنا ، بيد أننا نجده في دنيا الاساطير فنركن اليه .

إنّها الحاجة التي يعيشها الإنسان دائماً وابداً .. الحاجة إلى العلائق والعواطف المطلقة المثالية التي يصنعها الإنسان إلى اليوم في صورة رواية ، وقصة ، وفيلم ، ومسرح تعبر عن الطموح تعبيراً كاذباً مزيفاً ، ولكنّه مرضٍ مقبول يعد في الايجابيات ولا يعد في السلبيات ، لماذا ؟ لأنّ الإنسان يعشق هذه المثل ، ولا يستطيع العيش الا اذا قدسها وأحبها واشتغل بالتفكير بها وتأملها حتى لو كانت « مُثُلاً » أسطورية خيالية ليس لها نصيب من الواقع بيد أنّها تخفف معاناته وتصلح روحه وترطّب جفاف

حياته .

علم النفس والأساطير :

التفكير بـ « برومثيوس » وامثاله من الأبطال الأسطوريين كانت دائماً وابداً معيناً مهماً يتزوّد منه الناس ومُلهماً مؤثراً يناغي أرواحهم ويدفعها نحو المثل ؛ ولهذا اهتم علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التربوي اهتماماً بالغاً بهذه النماذج باعتبارها قدوات صالحة ونماذج تربوية نافعة لتكامل الإنسان روحياً ودوافع قيّمة للإصلاح لا سيما وهي متوفرة في شتىٰ الحقول والمجالات .. فيها نموذج العظمة ، نموذج التضحية العظمىٰ ، نموذج الجمال و...

تجربة الإنسان في توحيد الآلهة الاسطورية :

كان الإنسان يرغب دائماً في توحيد الآلهة الاسطورية وجمعها في آلهة واحدة بدلاً من أن تكون متكثرة .. آلهة الجمال .. آلهة القداسة .. آلهة المحبة .. آلهة الصبر والتحمل .. آلهة الفورسيّة والشجاعة .. آلهة الكلام والبيان .. آلهة التضحية والفداء من أجل الناس .. وهكذا كان الإنسان يحاول ـ علىٰ مدىٰ تاريخ الاساطير ـ جمع هذه الخصال في آلهة واحدة

لأن « بروميثيوس » إله التضحية والفداء من أجل الإنسان وهو يشبع فينا هذه الحاجة ، ولكنه لا يمتلك القوة كـ « هرقل » ولا يمتلك روحاً جميلة مثل « هلدريس » ولا يمتلك البيان الساحر والقدرة على الكلام مثل « دموستنس » حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الآلهة الآخرين ، ولهذا يشعر « بروميثيوس » بالاسىٰ والالم لحرمانه من تلك الصفات والخصال وشعوره بالنقص ...

ومن هنا بدأت الآلهة تتدرج عبر مسيرة التاريخ الأسطوري نحو جمع « المثل » فأضحت كل الهة تسعىٰ رويداً رويداً إلى أن تكون نموذجاً مثالياً والهة في كل صفات العظمة والجمال .

علي النموذج الأمثل لجميع الآلهة الاسطورية :

ونلتقي في التاريخ بشخص ـ بغض النظر عن عقائدنا وميولنا الخاصة ـ يجمع الصفات والنماذج العليا المطلقة التي يتمنىٰ الإنسان أن تتحقق على وجه الارض ثم يراها لا تتحقق أبداً .. يجمع كل الخصال التي يعلم بها الإنسان ويحتاج إليها ، الحاجة التي دعت الإنسان وبعثه عبر التاريخ إلى اختلاق امثال « هرقل » و« راما » نماذج العزة التي لا تقهر والقدرة والبطولة .

.. إنه « رب النوع » الذي أسفر حديثه الحلو الجميل الصادق عن إثبات قدرته على تحقيق طموح الإنسان المستحيل تحققه في « الإنسان » مما دعاه إلى ابتكار امثال « دموستنس » و« تير » .. تكمن فيه « القدرة العسكرية » التي صنعت لها جميع الأمم والشعوب آلهة أسطورية ..

لقد التقينا بشخصية جمعت أضداد التاريخ ، لا أضداد الأساطير .

نموذج في البيان ، نموذج في الحرب وضرب السيف ، « رب النوع » في التضحية المطلقة من أجل الإنسان ـ الذي كان يصنعه الإنسان دائماً في هيئة « برومثيوس » الوهمي ـ...

تنازل عن سعادته ، ومقامه ، ومنصبه ، ومنزلته ، واستقراره ، وقدرته ، وقوته ، وراحته ، .. تنازل عن كل شيء شخصي من أجل الإنسان ..

تحمل القهر هو وأهل بيته من أجل الآخرين .. من أجل مصلحة الآخرين ، تحمل وصبر ... وتجرع « السلاسل والاصفاد » مثل « برومثيوس » ! صبر على الكركي ! صبر على « نقر كبده وتقطيعه وازدراده » ...

من هو ذا ؟ إنّه علي نموذج النماذج و« رب النوع » لجميع الانواع ، إله جميع الآلهة .. إله العظمة ، إله القداسة ، إله الجمال ، .. إنّه الحلم

الطموح الذي كان يراود البشرية دائماً وأبداً ، وكان البشر يتطلّعون اليه ويتمنّون أن يروه فيقدسوه ويعبدوه ولكنّهم لم يروه بتاتاً ، حتىٰ آمنوا باستحالة تحققه على التراب ، ... واعتقدوا باستحالة تحققه بهذا المستوىٰ في صورة إنسان .. فاضطروا إلى تصويره في الخيال واختلاقه اختلاقا ...

علي .. استجابة لكل حاجات الروح الانسانية التي كان يشبعها « بروميثيوس » في حب التضحية والفداء ، و« دموستنس » في فخامة البيان وعظمته وقدرته على « الحديث الصادق النزيه » و« فينوس » أو « فوتوشي شي » في العظمة وجمال الروح ، والآلهة الأخرىٰ التي لا تقهر لما امتازت به من شجاعة واقدام وتضحية ، والآلهة التي تحملت العذاب والألم والغصص من أجل الآخرين ، من أجل الطهر والفضيلة ، والآلهة التي تقطر ـ روحها ـ رقة ورأفة ومحبة وبركة للآخرين .. الآلهة التي تشمل الجميع بالحب والوداد والرعاية .

علي شخصية جمعت صفات كل هذه الآلهة التي كان الإنسان يتمناها وحلم بها . علي « رب النوع » الذي جمع كل تلك الآلهة في شخصيته ...

علي إشباع لكل الحاجات التي اضطرت الإنسان وجرّته إلى خلق النماذج الخيالية وافتراض الآلهة الوهمية .. اشباع عيني حقيقي عاش في التاريخ .

علي يجمع الاضداد ويحقق المستحيل :

إنّ الآلهة الاسطورية تؤكد للإنسان أنّ القابليات والعواطف البشر ية يمكن أن تنمو إلى الحد الذي توفرت عليه الآلهة ، فيسعىٰ من أجل تنمية قابلياته وعواطفه وتحقيق طموحاته من خلال اتخاذ الآلهة قدوة وأسـوة ينبغي التوصل إلى مستواها باعتبارها تمثل القمة التي لا يتمكن الإنسان من الوصول اليها أبداً ...

إنّ هذه الآلهة تمثل مستوى الطموح في حياتنا وآرائنا ومسيرتنا وتكاملنا ... وهذا ما حققه علي وارشدنا اليه في التاريخ وأثبت أنّه المثل الأعلىٰ الذي ينبغي الاقتداء به ودلنا عليه دلالة واضحة المعالم ...

وأعجب من ذلك !! إنّه جمع كل تلك القابليات والعواطف التي كنا نصورها تحت وطأة العجز في الآلهة الاسطورية المتعددة ونشعر باستحالة جمعها حتى في الآلهة المفترضة الموهومة ... اقتنعنا باستحالة جمعها في آلهة خيالية واحدة ، وجسّدها علي تجسيداً عملياً عينياً في الخارج :

ففي الحرب ؛ يقاتل ببسالة ، يسفك الدماء بإقدام وشجاعة وقوة وصرامة واقتدار ـ كما تحارب الآلهة الاسطورية ـ ويثبت أنّه يروي ظمأ الإنسان ويشبع حاجته للبطل ... فيما يبدو أمام « اليتيم » الذي يواجهه في

الزقاق ضعيفاً ، مرتجفاً ، واجفاً ، مضطرباً ، حنوناً ، بشكل يصور تصويراً أسطورياً أرق وأرهف عواطف الأم ...

في ساحات الوغىٰ وميادين الحرب ضد الاعداء يبدو غاية في الاقدام والشجاعة والبسالة والخشونة والقسوة ، حتى لكأنه نموذج الخشونة ، وسيفه نموذج البتر والصرامة والسفك والقسوة ضد الاعداء ... وفي البيت لا نجد أرقَّ منه ناعماً لطيفاً ودوداً .. لا نجد أصبر منه .. لا نجد أكثر منه سماحاً وتضحية وإيثاراً .. لا نجد .. ابداً لا نجد ..

صبر علي على الخلافة :

حينما أحس عليّ بأن تجريد سيفه من أجل احقاق حقه واسترداده يؤدي إلى إبادة مركز الخلافة الاسلامية والقضاء على القدرة الاسلامية لجأ إلى الصبر .. صبر ربع قرن كاملاً .. وعاش في ظروف ومعاناة تبعث في الإنسان نفس الشعور الذي توحيه حياة « بروميثيوس » المكبل بالسلاسل .. بيد أنّ علياً لفّ على نفسه تلك السلاسل من أجل الإنسان ... ربع قرن كاملاً يبقىٰ منطفئاً صامتاً ، وهو صاحب الروح الوثابة الذي باشر العمل في النهضة الاسلامية منذ أن كان في العاشرة من عمره .

كلام علي :

الكلام الجميل الفصيح في نهج البلاغة ـ وانتم أعرف به ـ نموذج لجمال الكلام الرائع .. بيد أني أريد أن أنقل لكم كلاماً قاله علي وهو ابن ثمان أو عشر سنين لتتذوقوا جمال التعبير ، جمال التلقي ، جمال البيان ، جمال الروح ، لتعرفوا عظمة البيان وحلاوة المنطق .

كان علي صبياً يعيش في بيت النبي .. دخل البيت مرة فرأىٰ النبي وخديجة يصليّان .. فتعجب لأنه لم ير ذلك من قبل ، فلما أتمّ النبي صلاته سأله علي عما رأىٰ فقال النبي : إنّي بعثت بالنبوة وإنّي لأدعوك للإيمان بي ..

صبي في الثامنة أو العاشرة يسمع هذه الدعوة .. فماذا سيجيب ؟ حتىٰ لو فرضناه عبقرياً ؟! ماذا سيكون رد الفعل لديه ؟

سيلوذ بالصمت ويطلق ساقيه إلى الريح أو يستسلم ويقول : كما تأمر سمعاً وطاعة ، لأنني لا افهم بالضبط ما تقول ، ولكنه أجاب غير هذا الجواب ، وكان ذلك قبل الاسلام .. بعد لم يكن ثمة اسلام ولا تاريخ ولا تربية إسلامية ولا حروب ولا نضوج .. إنّما كان علي الصبي العربي ذو السنين الثمانية أو العشرة .. هذا هو علي يومذاك من زاوية نظر التاريخ .. لم يكن علي أكثر من ذلك ـ بلحاظ التاريخ ـ .

قال : اسمحوا لي ، أمهلوني حتى أفكر وأستشير أبي ثم أعلمكم بالنتيجة ...

ويسهر علي تلك الليلة يفكر بالأمر حتى اذا أسفر الصبح جاء للنبي وقال : فكرت البارحة فوجدت أن الله لم يستشر أبي حينما خلقني فلماذا استشيره أنا حينما أريد عبادة الله ؟! اذن فاعرض عليّ الاسلام* .

علي والشورىٰ

شكل عمر ـ في ظروف حساسة جداً ـ شورىٰ ماكرة عجيبة ، وجعل عبد الرحمن بن عوف رئيساً فيها لما يعتقده عمر من أنّه أكبر أصحاب النبي ... ومن المعلوم جداً ماذا سيجري في ظل هذه الاوضاع ! وماذا ستتمخص عنه الاحداث !

(*) أخرج ابن الأثير الجزري في أُسد الغابة ٤ / ٩٢ : عن ابن اسحاق قال : ثم إنّ علي بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيوم ـ يعني بعد اسلام خديجة وصلاتها معه ـ قال : فوجدهما يصلّيان فقال علي : يا محمد ، ما هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دين الله الذي اصطفىٰ لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك الى الله والى عبادته والكفر باللات والعزىٰ . فقال له علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاضٍ أمراً حتىٰ أحدّث أبا طالب ...
فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع في قلب علي الاسلام فأصبح غادياً الى رسول الله ﷺ حتى جاءه ، فقال : ماذا عرضت عليّ يا محمد ؟ فقال له رسول الله : تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزىٰ وتبرأ من الانداد ، فـفعل علي وأسلم ... » .

وجود علي وآل علي بالكامل يتوقف علىٰ كلمة : نعم ... موافقة تصدر من علي .. كلمة واحدة .. لفظة واحدة .. بيد أنّها مشروطة بشرط .. يضع يده في يد علي ويقول :

أبايعك خليفة لرسول الله علىٰ أن تعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر .. ويأتي جواب علي صريحاً صارماً فاصلاً حدّياً نظيفاً متواضعاً دقيقاً : أعمل بكتاب الله وسنة النبي ما استطعت .. أمّا سيرة الشيخين فلا .. اعمل باجتهاد رأيي* ...

كان علي يعلم جيداً عواقب موقفه هذا .. يعلم جيداً ماذا يعني رفضه لسيرة الشيخين ورفضه لسنة عمر وأبي بكر .. يعرف تلك الشورىٰ وبناءها السياسي المعدّ سلفاً ، يعلم ماذا سيكلفه هذا الموقف .. يعرف الثمن .

يعرف الجو الذي عقدت فيه الشورىٰ ويعرف أفرادها جيداً .. يعرف عبد الرحمن منذ ثلاثين سنة وهو صاحبه يعيش معه ويشاركه مسيرة الأحداث .. يعرف طلحة .. عثمان ، سعد ، الزبير .. يعرفهم جيداً ويعلم القصة والإعدادات المسبقة والأسباب التي دعتهم إلى تقييد البيعة بهذا

(*) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج ١ / ١٨٨ في قصة الشورىٰ في حديث طويل : « ... فبدأ بعلي عليه السلام وقال له : أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر فقال : بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي ... » .

الشرط ...

وعبد الرحمن أيضاً يعرف علياً ويعلم أنّه لا يكذب مهما كان الكذب ظاهرياً .. لا يكذب .. ـ وان كانت السياسة تجوّز الكذب الأكبر حتى على الواعين والأصدقاء ـ .

قصة معاوية :

ثم تأتي قصة معاوية : الخليفة بعد لم يسيطر على الأوضاع في المدينة ، لا زالت الاحداث مرتبكة والوضع غير مستقر .. تواجهه أقوىٰ الشخصيات وتقف أمامه ، والشام بيد معاوية ، والشاميون لا يعرفون قرابة للنبي سوىٰ معاوية وأبي سفيان ، وفي ظل هذه الظروف لا يمكن الإقدام على خطوات خطيرة وهذا من البديهيات التي يعرفها السياسي المتوسط .. والمفروض أن يأخذ بزمام الأمور ويعمل على تهدئة الاوضاع الداخلية واستتباب الأمر والقيام بعدة عمليات نصب وعزل للولاة وخدع العدو الخطير وتمويه الأمر عليه وتربص الدوائر به حتى إذا حانت الفرصة المناسبة انقض عليه وأباده ـ كما كان يفعل الخلفاء الآخرون ـ .

بيد أن عليّاً لم يصبر ولم يتحمل معاوية لحظة واحدة وهو يعلم ضريبة اشتباكه مع معاوية وعزله عن الحكم .. يعلم أنّ الثمن سيدفع غالياً ..

الحرب ، الحرب ، وبالتالي أفول حكمه وانقراض ذريته وإبادة اهل بيته ومحو ذكرهم من صفحات التاريخ ـ التاريخ الاسلامي الذي سيقع بيد معاوية وبني أمية وبني العباس ـ .

ان هذه النتيجة واضحة جداً لمثل علي ، إن لم يكن يدركها بعلم الإمامة فبعلم السياسة باعتباره رجلاً مطّلعاً تماماً على الظروف والأجواء والأوضاع ، ويعرف العدو وأجنحته وتشكيلاته وقوته ، وهو رجل عاش لهوات الحرب وترعرع في أحضان السياسة والصراع منذ أن كان في العاشرة من عمره .

وبديهي أن يكون عارفاً بالضريبة التي سيدفعها لقاء عزل معاوية ؛ لأنه يستوعب الأحداث والخيوط كلها بيده ؛ يعرف الساحة ويعلم بكل تفصيلاتها .. إلا أنه يرضىٰ بالهزيمة ـ الظاهرية ـ لئلا يرتكب عملاً يخالف الحق .. !

لماذا يتحمل عليٌّ كل هذا ؟! لأنه إمام .. عليٌّ إمام ..

معنىٰ الإمام :

إنّني لا افهم من كلمة « امام » معنى القائد السياسي بل حتى القائد الاجتماعي في مجتمع ما ، وإنّما « الإمام » يعني : ذلك النموذج الأعلىٰ

الذي كانت الإنسانية على طول تاريخها تشعر بالحاجة اليه ، حيث كانت تبحث بدافع الحاجة الملحّة عن المثل والنماذج العليا للفضائل الإنسانية ـ المفقودة في هذا العالم ـ فلا تراها ، وتلح الحاجة فتنطلق الإنسانية إلى صياغتها في عالم الذهن وتتخذ منها قدوة وأسوة وتحبها وتقدسها وتتعامل معها كنماذج مثالية تسمو علىٰ التراب وترتفع عن مستوىٰ « الإنسان في الواقع » ...

فكما كان هؤلاء الأبطال العظام في تاريخ الأساطير قدوات يقتدىٰ بها ، ويحتذىٰ بحذوها ، وتقلّد في فعالها ، وتتخذ رمزاً ومَعلَماً في الحياة والعاطفة والشعور ، والفكر والفضائل فكذلك علي .. لم يكن قائداً سياسياً واجتماعياً مؤطراً منحصراً باعتباره إماماً في مجتمع المدينة أو المجتمع العربي أو المجتمع الاسلامي يومذاك .. بل كان « إماماً » يخاطب التاريخ ويعلّم الإنسان ... : أولستم تعيشون الحاجة للمثل والنماذج العليا للفضائل الكاملة بلا نقص ؟ أولستم تبحثون عن الفضائل المطلقة ؟ مما حدىٰ بكم إلى اختلاق نماذج في أذهانكم تصورنها في صور أبطال مبرّزين لا يحدهم حدّ ثم اتخذتموهم « قداوت » للحياة المثالية التي تطمحون إليها ... لقد جمعت جميع تلك النماذج والمثل والفضائل وجسّدتها لكم في فرد إنساني محقق له وجوده العيني الخارجي ...

أنا علي الإنسان تجسيد لكل طموحاتكم وتطلعاتكم وتصوير

عملي للمثل الانسانية العليا ... « أنا الكتاب الناطق » .. هذا هو معنى قول الإمام « أنا القرآن الناطق » وليس معناه « أنا قائدكم » وما دمتم كذلك فالمفروض ان « لا يغلب » القائد ولا يهزم .. القضية شيء آخر غير القيادة .. أنا « إمام » .. نموذج مثالي أعلى .. والنموذج لا يزل .. لا يشط .. لا يضعف في حياته أبداً .. لا يعتري فضائله ولا عواطفه ولا أفكاره وأعماله أبسط صور النقص والتلوث .. حياته صافية ...

إنّه إمام .. والإمام يعني القدوة المثالية في جميع أبعاد الفضائل المثالية الرفيعة لدىٰ الإنسان .. وعلى الإنسان أن يصمّم حياته على أساس « المدنية الفاضلة » و« الإنسان السامي ذي الفضائل المطلقة » التي يستحيل اجتماعها في فرد واحد ، ولكنها تحققت الآن في « الإمام » ، في طريق اتباع هذا « القدوة الطموح » .. القدوات السامية .. القدوات المثالية .. القدوات المطلقة .. لا تتحقق في العالم بيد أنها تحققت في علي .

علي امام :

وبناءً على ما مرّ لا يستطيع علي وباعتباره نموذج العدالة المثالي أن يرضىٰ بظلم من أجل المصلحة ... لأنّ المصلحة تلوث الحقيقة ..

مصلحة علي في أن يتحمل معاوية .. يساومه اليوم لينتصر عليه فيما بعد .. وتحمُّل معاوية جائز للقائد السياسي .. ولكنه لا يجوز ـ مهما كلف الامر ـ لمن يريد أن يكون مثال العدالة .. العدالة التي لا ينتابها أي ضعف وأي هزيمة ولا يشوبها ذرة ظلم ولا تتحمل الانحراف ..

علي باعتباره « القدوة » و« النموذج » لإنسان المستقبل يريد أن يثبت عملياً للعالم وللمستقبل :

إنّنا حينما نؤمن بقضية عادلة ونعتقد أنّها الحق ، وحينما نؤمن بفضيلة ما ونعتقد بأنها فضيلة ، فالمفروض أن لا نرضخ لأي ضعف أو خيانة ولا نصبر أبداً على أي فساد مراعاة للمصلحة .. كل المصالح فداء للحق الذي نؤمن به مهما كلّف الأمر حتى لو كلّفني مصير « بروميثوس » .. حتى لو أدّىٰ بي إلى المصير الذي كان ينتظرني .. لابد من تحمل ربع قرن كامل من العذاب ... حتى لو كلفني الحرمان من المستقبل .. مستقبلي ومستقبل أبنائي وذريتي ... يجب أن أرفض الضعف والنقص مهما كان ضئيلاً .

لماذا ؟ لأني ـ أنا علي ـ نموذج النماذج و« رب النوع » لجميع المثل والفضائل الإنسانية التي كانت حلماً يراود الإنسان عبر التاريخ فيحاول الوصول اليها واكتسابها وتقليدها وتقديسها و.. بيد أنّها لم يكن لها وجود على وجه الارض ...

هذه النماذج الاسطورية الرفيعة يـجب أن لا يشـوبها ضـعف ولا تلوّثها المصالح والابتزاز والانتهازية من أجل النجاح وتحقيق النصر .

فعلي ـ اذن ـ نموذج وليس قائداً فحسب .. دليل ، مرشد ، مَعْلَم على الطريق ، إمام مبين ، والإمام المبين لا يكون قائداً لمجتمع خاص محصور بالحدود الزمانية والمكانية ، ليس قائداً لمجتمع يريد توجيهه وجهة معينة ، فالمفروض أن يحقق أهدافه بدون تلكؤ ويمضي قدماً بدون هزيمة ولا انكسار حتى لو اقتضىٰ الأمر المساومة .

إنّه نموذج رفيع مطلق ، والنموذج المثالي لا يمكن أن يتحمل هذا الضعف .. لهذا نرى علياً بطل « البيان » المثالي .. نموذجاً في الكلام .. في جمال الكلام .. في صدق الكلام وطهارته ونزاهته ..

هو نموذج أعلىٰ في الشهامة والشجاعة والإقدام في الحروب ..

نموذج أعلىٰ في طهارة الروح بمستوى الخيال الفرضي الذي كان يراود ذهن الإنسان على طول التاريخ ...

النموذج الأعلى للمحبة والرقة والرأفة وشفافية الروح ..

النموذج الاعلىٰ للمحبة بمستوى النماذج الأسطورية .

النموذج الاعلى للعدل الجاف الدقيق الحدي بمستوى لا يتحمله رجل طيب مثل عقيل ـ أخيه ـ .

النموذج الأعلى للصبر والتحمل في المواطن التي يعدّ فيها عدم الصبر خيانة .

النموذج الأعلى للجمال .. وجميع الفضائل التي كان الإنسان يحتاجها ويفتقدها ...

علي إمام بهذا المعنىٰ : إمام إنسان من ذلك النمط الذي كان ينبغي أن يوجد ولا يوجد ، فكان الإنسان يصنعه صنعاً ويختلقه اختلاقاً ..

علي إمام من ذلك النمط الذي ينبغي أن يوجد ويتمنى الإنسان أن يتحقق ولكنه تحقق في علي ... علي نموذج فريد في التاريخ .. طموح الإنسان وأمنيته التي كان يحلم بها دائماً وأبداً .. علي نموذج تحقق في التاريخ مرة واحدة ...

علي ليس إماماً فحسب ، وانما امتاز بخصيصة لم يشاركه فيها أحد في التاريخ قط : إنّه إمام .. وأهل بيته « إمام » وأسرته « إمام » .. أسرته « إمام » .. أسرته « إمام » يعني أنّها أسرة على غرار الأساطير ... أسرة :

الأب : علي .

الأم : الزهراء .

الابناء : الحسن والحسين .

البنات : زينب .

والسلام

عصرنا يفتّش عن علي

أبارك ميلاد الامام علي لجميع المؤمنين بالعدالة والانسانية والمحبة والفضيلة والعقيدة .. ابارك ميلاده لأمة علي .. لكل الأجيال المتعاقبة على مدىٰ أربعة عشر قرناً وهي تلجأ إلى علي في خضم بحثها عن الحق والعدالة ، وترفع شعار « ولاية علي » في فرارها من الظلم والقوىٰ الجائرة ، وتترنم بصرخات « علي ، علي » تحت التعذيب وسياط الجور ... أبارك ميلاده ـ أيضاً ـ للجيل المعاصر الذي يحتاج إلى علي اكثر من أي وقت مضىٰ ولجميع بني البشر في أصقاع الارض وأطراف العالم ممن يجاهدون اليوم من أجل العقيدة والعدالة والحق ...

ليتني كنت أتحدث هذه الليلة عن علي في مكان آخر من هذا العالم ... ليتني كنت اتحدث في وسط من الشباب في أي بقعة من هذه الأرض ، في الشرق الاقصىٰ ، في أمريكا اللاتينية ، في آسيا ... ليستمعوا اليّ بأذهان خالية عن أي خلفيات والقاءات موروثة وأي تصورات سلبية

وتشكيكات تاريخية حول التراث والعقيدة ... ليتني كنت أتحدث لأولئك الشباب الذين يعيشون خارج دائرتنا فيستمعون الحديث لأول مرة عن رجل لا يعرفونه بيد أنّهم يعرفون المثل والقيم الإنسانية .. وحينئذٍ يتيسر لي الحديث أكثر ، ويتيسر لهم الفهم والإدراك أكثر ...

ولكن ـ ومن حسن الحظ ـ إنّي أتحدّث هنا إلى مجموعة تتفق معي فكرياً وتمتلك القدرة على انتشال أفكارها ومشاعرها من قيود الإلقاءات والايحاءات الموروثة والمعلومات السيئة التي زرّقت لنا عبر القرون باسم علي وباسم ولاية علي وحكومته ومدرسته وحياته وشخصيته .. يستطيعون التحرر من الخلفيات المريضة ؛ لأنهم متدينون بدون تعصب ديني أعمىٰ ومثقفون واعون بدون تعصب أعمىٰ ضد الدين .. ثم إنّهم جميعاً يشتركون بقاسم مشترك واحد وهو معرفة المثل والقيم الإنسانية أينما كانت وفي أي دين وتحت أي عنوان كانت .. إنّها القيم الإنسانية التي يشترك فيها البشر جميعاً ...

إنّني اخاطب جماعة تدرك جيداً أنّني سأتحدث معهم عن « وجه بديع » تماماً ، وشخصية جديدة تماماً ، ومنهج وقيم موضوعية مجردة عن أي خلفية ذهنية ... أتحدث لهم عن كل هذا باسم علي الذي يملأ الآفاق ، ويتكرر دائماً ذكره واسمه وحبه في هذا المكان .

مفردة من تربيتنا الخاطئة

لقد ربّونا تربية خاصة بحيث لم ينقدح ابداً حتى في ذهن أولئك الذين يلهجون باسم علي « علي ، علي » صباح مساء أن يسألوا أنفسهم ويفكروا قليلاً :

لماذا لم يقرؤا كتاب علي ولم ييمّموا وجوههم نحوه قط بالرغم من وجوده في هذه الدنيا ؟

لماذا نذكر كل هذه المكارم والفضائل والمدائح عن علي ، ونسمع ونطبع ولكن لا نسمع علياً يتحدث معنا ابداً ؟

لماذا نقرأ الكتب الدينية التي أُلّفت أخيراً ـ قبل عشرين أو ثلاثين سنة ـ ونكررها ونحفظها عن ظهر قلب ونقتنيها ونحتفظ بها في بيوتنا ولا نتعامل مع نهج البلاغة كذلك لنجعله على أقل التقادير في عداد تلك الكتب .. ولكنك لا تجده في بيت ولا تجد من تعرّف اليه ...

إنّهم يعلمون لماذا وكيف يعظّمون علياً بمستوى عالٍ من الدهاء ، بيد أنّهم لا يتحدثون عن علي ولا كلمة واحدة ... تعظيم وتكريم لعلي من دون استكشاف لشخصيته وتعريف بحقيقته ..

مسؤوليتنا تجاه التشيع العلوي والتشيع الصفوي :

كنت أراجع في الأيام الاخيرة كتاب « التشيع العلوي والتشيع

الصفوي » بغرض إعداده للطبع ولكنّي اكتشفت ـ وللاسف ـ أن ثمة قضايا مررت عليها في المحاضرة مروراً عابراً وأشرت اليها إشارات كلية عامة في حين أنّها تحتوي على مسائل حساسة ودقيقة ومعقدة للغاية ، سيما وقد اثار هذا الكتاب حساسيات غير طبيعية وردوداً غير متوقعة مما نبّهني إلى موضع الهجوم الحقيقي وجعلني أؤكد عليه أكثر وأوليه عناية أشد .

ثم إنّي اكتشفت مدى النبوغ والذكاء وعمق العمل والتخطيط الذي استطاعوا من خلاله تحريف « التشيع » الذي ابتدأ بكلمة « لا » وانطلق من الرفض لكل قوة وعدوان وخداع وكافح خلال الف عام كل نظام وتنظيم قام على غرار الأنظمة والتنظيمات التاريخية وفرض على الناس وحمل على ظهورهم باسم الاسلام[1] ..

واكتشفت كيف استبدل التشيع موقعه على حين غرة واذا بتشيع الـ « لا » ، تشيع الرفض ، تشيع الحرب الضروس مع العدوان والمواجهة المستمرة مع الظلم ، تشيع المطالبة بالعدالة والتحرر يغيّر موقعه فجأة ، فيهجر الوسط الجماهيري ويتربع على الأريكة التي تربع عليها « التسنن »

(١) أئمة الشيعة العظام وقادتهم الكبار وعلماؤهم الكبار ومحققوهم وكتابهم وشعراؤهم وفنانوهم لم يهادنوا ولم يساوموا لحظة واحدة خلال الف عام من تاريخ الاسلام ولم يتركوا الجهاد ضد الظلم والجور لحظة واحدة ، والتشيع كان دائماً وابداً بين الجماهير المضطهدة حارساً للحق والحرية والعدالة وقبضة صلبة في فم الخداع والتجبّر والظلم والاكتناز .

باستمرار .

لقد كان التسنن ـ كما ذكرت مراراً ـ عبارة عن إسلام الخلافة ، إسلام الحكومة ، إسلام السلطة ، الإسلام الرسمي ، والتشيع اسلام الناس .. إسلام الشعب .. اسلام الجماهير التي دخلت الاسلام طلباً للعدالة والقيادة والحرية .. فكيف انتقل التشيع فجأة من مواقعه فتسلم زمام الامور وعلا منصة الحكم وأخذ يوجّه دفة القوى الحاكمة ؟ ومن ثم لم يقل « نعم » للظلمة المعتدين فحسب ، بل صار حارساً أميناً لقواعد حكمهم وحامياً للبنى الأساسية التي يقوم عليها والمبرر القوي الذي يدافع عن وجودهم .

يا له من تخطيط دقيق وعمل دؤوب .. يا له من عمل موفق ذكي قام به هؤلاء ، حيث لا يستطيع أحد انتقاد الخداع والمكر الذكي[1] بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة قرون عليه ، ولا زال يحتفظ بقدسيته في وسطنا العلمي وبين الواعين من أفراد الامة والمتحضرين المتنورين في القرن العشرين .

ولهذا ركزت بشدة وآمنت بقوة واهتممت غاية الاهتمام بهذا الموضوع وعزمت على مفاتحتكم به باعتباركم تعشقون بلا شك رسالة علي وتعشقون أهل بيته بكل قوة وحرارة تنبعث عن الايمان والخلوص

---

(١) قلبت ماهية « تشيع علي » وحولوا أئمة الشيعة الذين كانوا نموذج الدفاع عن الحق والعدالة ، بحيث قضوا جميعاً بين مقتول ومسموم في طريق المواجهة ضد الجور حولوهم ـ فجأة ـ قبل ثلاثة قرون إلى ادوات تبرير للنظام الحاكم .

والحب للعقيدة .. تعشقون بحرارة آل علي ، ومنهج علي ، وقيم علي ، ودعوة علي ورسالته .

أقول لكم : إنْ لم نتحرك ولم نسارع إلى تحطيم الجدار السميك الذي أقاموه رسمياً بيننا وبين « تشيع علي » منذ ثلاثة قرون ـ منذ عهد الدولة الصفوية ـ (وكان قبل ذلك بشكل غير رسمي) .. الجدار الذي أقاموه بيننا (نحن الجيل المعاصر) وبين تشيع علي المنبثق من رسالة النبي .. التشيع الذي ولد مع ولادة الاسلام ، وبقي على مدى الف عام ملجأ لآمال المضطهدين وإيمانهم ومدافعاً عن الجماهير التي كانت دائماً وابداً ضحية الظلم والجور والتفرقة والتمييز العنصري . إذا لم نحطم هذا الجدار السميك الذي يحول بين تشيعنا المعاصر وتشيع علي ... بين الجيل الباحث عن معرفة علي وبين شخص علي ومنهجه ورسالته بحيث لا نستطيع الآن الوصول مباشرة إلى ذلك المعين الصافي والانتهال من تلك العين الرقراقة الزلال ...

اذا لم نتسلح بالتضحية والفداء واليقظة والشعور بالمسؤولية الثقيلة وتحمل جميع العواقب التي تلاحق طلاب الحق والحقيقة .. ولم نفتح النافذة للوجدان المعاصر والجيل المعاصر الذي يبحث عن عقيدته ويفتش عن طريقه وهدفه[1] ..

---

(١) عصرنا عصر الانتخاب ولا يمكن الوقوف بوجه الجيل الباحث عن « الخيار » الذي

إذا لم نشق الطريق المستقيم المباشر نحو العين الأصلية والمنبع الأول لتشيع علي ، ونقضي على هذا الجدار وننسف جميع قواعده وأسسه لنرىٰ عياناً الوجوه الحقيقية في هذه المدرسة ونريها لهذا الجيل أيضاً ، إذا لم نؤد هذه المهمة فإنّ الجيل القادم سيحجب عن رسالة علي ومدرسته .. سيحجب عن عقيدتنا وتراثنا ، وسينتهي كل شيء ويمحق تشيع علي ولا يبقىٰ له عين ولا أثر !!

قد يقول البعض : « إنّ الله هو الحافظ .. ان للدين ربّاً يحيمه .. وما دام الله يحفظ دينه ورسالته فلا يمكن أن تضيع الحقيقة .. »

وهذا بديهي لا شك فيه .. ونحن لا نخاف على الحقيقة أو على منهج علي ومدرسته أو على « الذكر » وذلك لأن الله تعالىٰ يقول ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾ .. وبهذا ضمن الله حفظ رسالة النبي وقرآنه وطريق علي ومنهجه ، وللدين رب وحام وحافظ يقيه من الضياع والاضمحلال ولا مجال للتردد في ذلك ، بيد أنّنا نخاف على أنفسنا حيث سنبقىٰ محرومين مما نحتاج اليه أشد الحاجة ، حيث نحرم من علي ، وعلي هو الحق بعينه ، ولهذا أجد تعبير من يقول « ضيّع حق علي » تعبيراً ناقصاً لأن المفروض أن يقول « ضيع حق الناس » .. فعلي حق .. على حق بذاته ..

➲ يريد الانطلاق من خلاله .

لقد تحددت تدريجياً جميع المواقف والاتجاهات ، ونوع الحساسيات والانتقادات والاشكاليات وردود الفعل من خلال المحاولات العملية الحثيثة والدراسات النظرية والتحقيقات العلمية ...

لقد تحددت الأهداف والشعارات وأضحىٰ كل فرد على بينة من أمره ، يعرف الجهة التي ينبغي التحرك نحوها والانطلاق فيها والجهة التي ينبغي أن يسدد اليها سنان حرابه وحد سيفه ..

لقد تحددت معالم الطريق لكل ذي عينين من خلال الافرازات التي طفحت علىٰ السطح ، وليس علينا الآن سوىٰ الانطلاق في العمل وإعلان « الكلمة » ليسمعها ذوو الالباب ..

ولهذا أحببت أن أقول لكم ولكل من يشاركنا في التفكير ويتحسس الآلام والمعاناة التي نعيشها ويشعر بالمسؤولية تجاهها ويؤمن بأننا نمتلك أفضل الوسائل والأفكار والثقافات التي تؤهلنا لحلّ مشاكلنا وتسلّحنا بالإيمان والعقيدة التي يحتاج اليها جيلنا المعاصر .

احببت أن أقول لكم باعتباركم وعاة دعاة متدينين ـ سمّوا أنفسكم من تشاءون ـ إنّ مسؤوليتكم ورسالتكم الأهم تتلخص بكلمة واحدة ، نستطيع من خلالها أن نكون بمستوى الاستجابة لمتطلبات العصر ونشر الوعي في الوسط الجماهيري وإحياء الروح الإيمانية التي ذوت فينا ، وتجديد روح الرسالة التي ذابت أو ماتت أو مسخت ولم يعد لها وجود

حقيقي بيننا ، واعادة الأواصر المقطعة التي تربطنا بعقيدتنا ، والتعرف الى الحقائق الضرورية التي نحتاجها اليوم حاجة عملية ، فعلية ، فورية ، ضرورية ، حيوية ...

تتلخص مهمتنا في طريق واحد : وهو أن نحطم الحواجز بيننا وبين علي ، ونرفع الحجب التي تحول بين هذا الجيل وبين تشيع علي وإسلام علي ، ونمزّق القناع لنفضح تشيّع الانحراف المزيف الذي صاغته المصالح الصفوية ...

واذا تمكّنا من إنجاز هذا المشروع وحذف الفواصل وتحطيم الجدران فسوف تشعّ علينا شمس علي وتمنحنا الدفء والحرارة وسوف تشملنا روحه العيسوية « مسيحائي » وتفكّ عنا إصرنا والأغلال المتجمدة المتهرئة التي كانت تكبل أرواحنا .. وسوف تتقشع الظلمات التي تغرق عصرنا ، ويضاء الليل الذي يخيم على حياتنا ومصيرنا وتمطرنا سحائب النور المتوهجة من النار الالهية المشتعلة في صدر علي .. وسوف يعلّمنا علي كيف نعيش .. كيف نحيا .. كيف نفكر .. كيف نعبد .. كيف نصنع أمة .. كيف نؤدي رسالتنا تجاه مجتمعنا وتجاه البشرية .. وبكلمة .. كيف نكون مسلمين .

محاضرة اليوم امتداد لعدة محاضرات سابقة

إنّ الموضوع الذي أنوي طرحه الليلة إنّما هو امتداد طبيعي لعدة

مواضيع تناولتها سابقاً في بعض الدروس أو الندوات حول التشيع والدين والمجتمع ؛ ولهذا قد تكون ثمة مصطلحات او تعابير أو إشارات غامضة مبهمة لدىٰ بعض الحاضرين ، وقد يتصور البعض أنّ المفاهيم التي سأطرحها مبتورة مقطوعة مفككة لانهم غير مطّلعين علىٰ خلفيات الموضوع ، ولهذا سأتناول العناوين الرئيسية لمحاضراتي السابقة حول الإمام علي والتشيع لكي يتسنىٰ للاخوة جميعاً متابعة هذا البحث وفق حلقاته ومقدماته المترابطة :

(١) الموضوع الاول الذي تناولته قبل ثلاث أو أربع سنوات ضمن أربع محاضرات متتالية كان تحت عنوان « الأُمة والإمامة » دراسة اجتماعية ، ودرسنا فيه « الأُمة والإمامة » باعتبارها القاعدة الأساس والبنية التحتية في التشيع العلوي .

(٢) تناولنا موضوع « الحسين وارث آدم » كدراسة للنظرة الشيعية للتاريخ ولمحة خاطفة عن « فلسفة التاريخ » بالمنظار الشيعي .

(٣) « فلسفة التاريخ في الأديان الإبراهيمية » وهي دراسة مقارنة بين فلسفة التاريخ في الاسلام (بالمعنىٰ الاعم) والفلسفات التاريخية الأخرىٰ .

(٤) « الانتظار مذهب الرفض والتحدي » وهي دراسة عن الإيمان بالمنجي الموعود والمهدي المنتظر ، ونظرة التشيع العلوي في ذلك .

(٥) وصلنا في البحث إلى الإمام علي شخصياً فتحدثنا تحت عنوان « علي حقيقة على غرار الاساطير ».

(٦) « علي الإنسان الكامل » وهو دراسة عن الإمام علي في ضوء المدارس الجديد في علم « معرفة الإنسان ».

(٧) « علي وحيداً ».

(٨) « ما هي الحاجة لعلي » : وهي دراسة تحليلية لحياة الإمام علي ، حيث واكب الامام حركة الرسالة وسجل حضوره مع الرسول خلال ثلاث وعشرين سنة من عمر الرسالة ، كانت ثلاث عشرة سنة منها في مكة ، وهي مرحلة البناء الذاتي وتربية الأفراد وتشكيل الجماعة الواعية المسؤولة المغيّرة للنظام الاجتماعي . وعشر سنين في المدينة ، وهي مرحلة الجهاد ضد العدو الخارجي وبناء المجتمع « الأمة » ..

كان الامام علي أول من استجاب لدعوة النبي وبقي مع الرسول حتى اللحظة الأخيرة من عمره حيث قضىٰ ورأسه في حجر الأمام علي وفاضت روحه على صدره ، وبعد ذلك ظل علي جليس داره خمساً وعشرين سنة ـ من سنة إحدىٰ عشرة إلى سنة خمس وثلاثين التي مات فيها عثمان ـ فيما كان هو الرجل المعد لإدامة الرسالة بعد رسول الله بدون تعثر ولا انقطاع ولكنه اصبح جليس داره ، ولو كان قد استلم زمام الأمور بعد النبي مباشرة لقاد الناس ـ كما اعترف بذلك عمر نفسه ـ على المحجة

البيضاء ، ولباشر القضاء والمواجهة والقيادة بدلاً من قضاء خمس وعشرون سنة بحفر الآبار في ينبع والاشتغال بالزراعة وغرس النخيل . ولكانت سنوات حكمه الخمسة بالاضافة إلى هذه (٢٥) عاماً ـ أي مدة ثلاثين عاماً كاملة ـ سنوات حكم علي وقيادته المباشرة للمجتمع وحينئذٍ كانت المعادلة بشكل آخر (فلربما كانت حياته لا تنتهي بالشكل الذي انتهت به) ولكان مصير الاسلام مصيراً آخر ، وكان عندنا اليوم إسلام آخر ومسلمون آخرون ..

ولكفينا مؤونة « الفتوحات » وتجييش الجيوش وزحفها شرقاً وغرباً في عمليات نهب وغارات يقوم بها جنود يفتقرون إلى تعلم مبادئ الاسلام ولم يتقنوا ـ بعد ـ أولياته بيد أنهم جردوا سيف الدعوة إلى الاسلام وقيادة البشرية جمعاء في وجه الناس شرقاً وغرباً ، ولكانت بدلاً من ذلك « حركات بناء الإنسان » وكان « الاسلام الفاتح » بدل « السيف الفاتح » ولانتشر الاسلام في القلوب والأفكار كما تنتشر النار في الحطب اليابس ...

ولكن تغيّر المصير .. تغير ومن ثم غيروا مصير التشيع العلوي أيضاً ..

علي ـ إذاً ـ كرس وجود ثلاث وعشرين سنة في الجهاد إلى صفّ النبي ، وشعاره في هذه الفترة « العقيدة والرسالة والمواجهة الفكرية من

أجل نشر الايدلوجية » والدعوة للعقيدة الالهية وإيجاد بؤرة القوة العقائدية الفاعلة وإنجاز مهام الرسالة الاجتماعية والرسالة المعنوية النبوية للنبي ...

لقد كان علي منذ انطلاقة الدعوة إلى نهاية حياة النبي ـ فترة البعثة ـ من السباقين في خطوط المواجهة الاولىٰ خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشر سنوات في المدينة وبهذا قضىٰ ثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد من أجل العقيدة .

وبعد ذلك خمسة وعشرين عاماً من التحمل والصبر .. خمسة وعشرين عاماً من الصمت .. خمسة وعشرين عاماً وهو يرىٰ أقبح صور التعدي .. وأسوأ المشاهد ، ويعاني أقسىٰ الآلام والشدائد ، وممارسات السوء والقبائح وهي ترتكب في قلب الاسلام باسم النبي وفي مدينته :

لقد شهدت هذه الارض والسماء .. وشهدت هذه الدنيا أنّ علياً كان يأخذ بزمام عدة جمال في ينبع ، ويحفر هناك الآبار والقنوات ويحرث الارض بيديه ويغرس النخيل ، فيما كان كعب الاحبار يتربع على أريكة القضاء الاسلامي ، ومروان واضرابه يتربعون على دكة القوة التنفيذية ويضع عثمان وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأمثالهم أقدامهم على مواطئ قدم الرسول ويحتلون مواقعه !!

بيد أنّ رسالة علي الكبرىٰ التي فاقت كل شهادة وكل جهاد وكل موقف بل كانت اعظم من جميع المشاهد التي شهدها الأمام في بدر وأحد

والخندق وحنين تتلخص في السيوف والطعنات التي نالها في هذه الفترة صابراً محتسباً ، لم يلفظ ببنت شفة حفاظاً على الاسلام كما قال هو نفسه « صبرت وفي العين قذىٰ وفي الحلق شجىٰ » .

بقي خمسة وعشرين عاماً ساكتاً ليبقىٰ الاسلام تماماً كطفل تنازعت فيه امرأتان والأم الحقيقية تعلم أنّ تلك المرأة الغريبة التي تحتضن الطفل لا يضرها مصيره أبداً واذا ما جرّ النزاع إلى صراع مرير ومساجلات حادة تؤدي بحياة الطفل ومصيره فإنّ المرأة الغريبة مستعدة لكل شيء حتىٰ للتضحية بالطفل ، ولهذا تسكت الام وتغض النظر وتترك المرافعة حفاظاً على وليدها .. تصبر لكي يبقى الولد ولو فيأحضان الآخرين ..

انقضت هذه السنين العجاف فحكم خمس سنوات بعد عثمان ، وكانت هذه السنين تختلف عن الثلاثة والعشرين عاماً الأولىٰ التي كانت جهاداً عقائدياً فكرياً واجتماعياً من أجل نشر الاسلام وتعميم الرسالة ، كما كانت تختلف عن الخمسة والعشرين عاماً من التحمل والصبر وتسجيل أروع الصور وأسماها في الرشد الاجتماعي وإلغاء الذات والسكوت عن الحق الشخصي وحق الاسرة (الحق المطلق البديهي الذي لا شك فيه) من أجل الحفاظ على الوليد الذي تولّىٰ وصايته الآخرون .

لقد كانت هذه السنوات الخمسة جهاداً مستمراً في كل الميادين

وعلىٰ جميع الاصعدة من أجل استقرار العدالة[1] على العكس تماماً من أغلبية القادة ، حيث إنّ الغالب في قادة العالم أنهم يمرّون بمرحلتين :

إحداهما : المرحلة الثورية التي يقارعون فيها السلطة الحاكمة ويواجهونها ويحاربونها ، وهم يحملون أفكاراً ونظريات ثورية ويمتازون بسلوكهم الثوري .

والأخرىٰ : مرحلة استلام السلطة ، حيث يبدأون بشكل أو بآخر بالميل نحو سلوك المحافظة والاعتدال ، وعلىٰ حدّ تعبيرهم تبدأ مرحلة الحياة الوديعة الهادئة والتفكير بالمصالح الوطنية والقومية .

هكذا هم غالب القادة في العالم ، وعلي لم يكن كذلك بل كان على العكس تماماً .

فحينما كان علي يعيش في الفترة التي سبقت استلامه للحكم كان الحكم بيد الخلفاء المتسلطين الذين اغتصبوا حقه في الخلافة حتىٰ وصل الأمر إلى أن نزا أمثال عثمان علىٰ دفة الحكم ، فلم يراع واحدة من القيم والضوابط الاسلامية ولو ظاهرياً ، ومع هذا يصبر علي ، فيما كان يعيش ـ بلحاظ المسؤولية الاجتماعية ـ كفرد مجرد عن المناصب الرسمية .. يسكت ولا يمارس النشاط الثوري بالرغم من استلام السلطة من قبل

---

(١) ومن العجيب أنّها فترة جديرة جداً بالدراسة ، وللأسف إنها لم تدرس الاّ قليلاً .

الآخرين وهو قائد للاقلية المضطهدة في المجتمع .. يصبر ويتحمل من أجل « الوحدة » .

وحينما يستلم زمام الحكم ويصبح في موقع رسمي تبدأ مرحلة الثورة وممارسة النشاط الثوري .

ولربما كان علي الإنسان الأول ـ في تاريخ البشرية ـ الذي يتجرع الغصّة ويسكت قبل فترة الحكم من أجل الحفاظ على قوة الأمة ووحدتها وسلامة العقيدة من تهديدات العدو الخارجي ، وبعد أن يصل إلى الحكم يبادر إلى الثورة والتغيير .

ولهذا كانت السنوات الخمسة من حكم علي تمثل مرحلة الثورة في حياته ، وهذا غير ما يقوله جورج جرداق حيث يقول : إنّ جميع القادة الاقوياء المعروفين في العالم كانوا يعيشون مرحلة الثورة قبل الحكم ، وبعد استلام الحكم يخلدون إلى « المحافظة » في تصرفاتهم إلاّ عليّاً حيث عاش الثورة قبل وبعد الحكم .

فما أقوله يختلف قليلاً عما يقوله جورج جرداق ، حيث إنّي أقول إنّه لم يمارس الثورة قبل الحكم حفاظاً على الوحدة وقوة الأمة وإنّما بدأ الثورة منذ استلام الحكم ، فثورته تنطلق اجتماعياً منذ أن استلم زمام الأمر سياسياً .

وبناء على ما مرّ تنقسم حياة علي إلى فصول ثلاثة : ٢٣ عاماً من الجهاد من أجل الرسالة ، و ٢٥ عاماً من الصبر من أجل الوحدة ، و ٥ سنوات من الثورة من أجل العدالة .

هذه خلاصة إحدىٰ محاضراتي التي ألقيتها هنا وانما استعرضتها بهذا الشكل الخاطف لكي أمهد الأمر لما انوي طرحه الليلة باعتبارها أبعاداً مهمة في شخصية الامام علي .

لمحة خاطفة عن التشيع العلوي والتشيع الصفوي :

إنّ « التشيع الصفوي » الذي أخذ يستشري هذه الايام ويرفع راياته قبال التشيع العلوي لم يكن وليد العهد الصفوي فقط بل انه وجد منذ أن وجد التشيع العلوي ، غاية ما في الأمر أنّه اكتسب الرسمية والسيطرة في العهد الصفوي .

إنّ التشيع الصفوي باعتباره اتجاهاً ومذهباً صنع بصورة التشيع العلوي ـ وان كان من حيث المحتوىٰ ضد التشيع العلوي ـ منذ البداية ، وكان الرجل الأول الذي رفع شعار التشيع ـ الصفوي ـ بوجه علي وشيعته المخلصين هو ابو سفيان ، حيث دخل علىٰ علي والعباس حينما امتنع علي

عن بيعة أبي بكر وجلس في داره[1] وقال: ايها الضعفاء لما ذا تسكتون عن حقكم وتتركون تيماً وعدياً يحكمون فيكم .. الحكم حقكم، قوموا إلى القوم ولأملأنّها عليهم خيلاً ورجالاً !!!

وهكذا نرىٰ في قبال ولاية علي ثمة ولاية ((ضد علي)) بيد أنّها تنطلق باسم علي من حلقوم أبي سفيان في نفس الوقت الذي تتبلور فيه أول بؤرة تشيع في بيت فاطمة تلتف حول علي المنطفئ المغموم .. انطلقت أول صرخة تشيع ضد علي من حلقوم أبي سفيان، وظلت صرخة مدوية تنطلق من حناجر الذين يريدون مسخ التشيع وتحويله إلى اداة لمصادرة الاسلام[2] ..

---

(١) قال الامام علي في نهج البلاغة: « فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجىٰ » فسكت معترضاً ولكنه اعتراض يرىٰ في أيّ إقدام عملي انفجاراً داخلياً يقضي على كل شيء، ولهذا سكت، لأنه رفض أن ترتبك الاوضاع في المدينة بعد وفاة النبي مباشرة، وهو يعلم علم اليقين أن خصومه لا يتريثون لحظة في إرباك الوضع ولا يخافون من الفوضىٰ بل لا يبالون أن تسقط المدينة اذا اقتضىٰ الأمر ذلك، فهم مستعدون للقيام بأي عمل في سبيل البقاء على الحكم وعلى فرض خروج الأمر من هذا الخط فليكن ما يكون، بينما كان علي يفكر بأنّ الصحابة إذا شهروا السيوف في وجوه بعضهم فسيطمع في المدينة كلّ طامع، إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الشمال والقبائل المنحطة المعاندة الحاقدة في الداخل .. يرون قلب الاسلام ومركز الحكومة مصاباً بالضعف والاختلال الداخلي. فلماذا إذاً الانتظار وهم يتربصون منذ حين لينقضوا على المدينة ويبتلعوها لقمة واحدة .. وعلي كان يخشىٰ هذه العاقبة ولهذا فقد صبر وسكت.

(٢) لأنّهم يخافون من التشيع ومن الإسلام ويعلمون أنّ تشيع علي ـ اذا بقي كما يريده علي ـ يقضي عليهم ولا يبقي بأيديهم شيئاً!.

بدأ أبو سفيان بهذا التشيّع وجاءوا من بعده فأخذوا يضخّون فيه عناصر خارجية ويضيفون عليه قليلاً قليلاً ، ويعظمونه ويغيّرون معالمه ويغنونه ويثرونه حتى جاء العهد الصفوي فتحول إلى مذهب منظّر مقنّن من خلال محاولات في غاية الدهاء والذكاء والتخطيط ، تماماً كما وضع الإمام الصادق أسس المذهب العلوي ، ونظّر قواعده تنظيراً علمياً ودوّنه وقننه فعل هؤلاء ، حيث أسسوا التشيع الصفوي ودوّنوه ونظّروه وقنّنوه وأعلنوا عنه إعلاناً رسمياً .

ثم إنّنا حينما نقول إنّ التشيع الصفوي أصبح رسمياً في العهد الصفوي فإنّ هذا لا يعني أنّ كلّ ما هو موجود بعد هذا العهد فهو تشيع صفوي ، لأنّ الخصائص والضوابط والملامح المميزة بين التشيع العلوي والتشيع الصفوي واضحة بيّنة يمكن من خلالها الفصل بين الولاية العلوية وولاية أبي سفيان ...

يمكن الفصل بينهما بسهولة بعد أن تحددت المعالم ووضعت النقاط على الحروف .. المعاني معروفة والسلوك مميز في كلّ جهة .. النظرة العامة ، الميول ، الاتجاهات ، الوظائف الاجتماعية ، المسؤوليات ، المواقف ، طبيعة التعامل مع الحياة ، القيم الانسانية ، الأخلاقية ، المناهج الفكرية ، وكل شيء يمكن لذي عينين أن يتوصل من خلاله إلى إحراز نوع التشيع الذي يدين به الأفراد .

علماء الدين يحرسون حريم التشيع العلوي :

منذ العهد الصفوي وإلى الآن كان علماء التشيع العلوي العظام المخلصون ولا زالوا حصوناً منيعة وحماة عظماء للحقيقة ومدافعين أقوياء عن الحرية وحراساً أمناء للاسلام الحقيقي ومنهج علي الحقيقي .. وإلى جانب هؤلاء العلماء الكبار كان روحانيو التشيّع الصفوي لذا أرجو أن لا يفهم من قولي إنّ التشيع الصفوي وصل إلى الحكم واكتسىٰ حلّة الرسمية في العهد الصفوي أنّ التشيع العلوي انقرض بعدها ولم يعد له وجود .. ابداً .

ولحسن الحظ أنّ التشيع العلوي ما زال حياً ، وحقيقته ورؤاه ما زالت متدفقة بالعطاء في أوساطنا العلمية وبين علماء الدين المخلصين ، وما زال قوياً فاعلاً مؤثراً يحظىٰ بحماة وحراس مخلصين بالرغم من جميع المحاولات والمناورات والدهاء والعمل على دثر معالمه وتشويه صورته .

الوحدة بين الشيعة والسنة لا تعني التنازل عن الحقيقة* :

أنا لست من أولئك المثقفين الذين يقولون « ينبغي أن لا تطرح

(*) نقلنا هذا المقطع من الهامش الى المتن نظراً لأهميّته .

هذه القضايا اليوم لأنها تثير الخلاف وتقضي على الوحدة » كلا .. إنّي لا اعتقد بهذا بالرغم من اعتقادي القوي بالوحدة الاسلامية ، بيد أنّي في نفس الوقت أؤمن بجد أنّ المفروض أن لا نغفل لحظة واحدة عن إثبات الحقيقة والإعلان عنها والمبادرة إلى التحقيق والتحليل العلمي الدقيق الموضوعي للواقع التاريخي بعيداً عن التعصب والعناد .

وهذه هي الوحدة التي أؤمن بها .. وحدة الأمة الإسلامية بما فيها من مذاهب مختلفة تجاه العدو الاسلامي .. وحدة الشيعة والسنة ضد العدو الخارجي .. توحيد الموقف داخل البيت الاسلامي على ما فيه من اختلافات ضد الامبريالية والصهيونية .. هذه هي الوحدة .

وفي غير هذه الصورة لا معنى للوحدة بين الشيعة والسنة لأنها تخالف العقل وتخالف العلم بالإضافة إلى أنها مستحيلة عملياً .

وعلى العكس مما قد يتصوره البعض فإنّ الدفاع الواعي المبتني على أصول منطقية علمية وطرح قضايا التشيع الخاصة والتبليغ لها على أساس من التحقيق العلمي لا يبعث على التفرقة والضغائن ، وإنّما هو أكبر عامل للتفاهم والتقارب والإنسجام بين الأقطاب الاسلامية المختلفة .

ولنا على ذلك أروع مثال في محاولات علمائنا المخلصين الذين تناولوا القضايا المذهبية بصورة تختلف تماماً عن تناول الجهلة الغاص بالشتائم والاتهامات والافتراءات والإهانة ..

نشاهد هذه الأيام محاولات علمائنا المخلصين ، علماء التشيع العلوي الذين انبروا لمواجهة علماء السنّة في العالم الاسلامي والدفاع عن المباني الأساسية للتشيع فخطوا بذلك خطوات مهمة على طريق « التفاهم » وقدموا أفضل الخدمات في سبيل « التقريب » .

وأفضل مثال على ما نقول كتاب « المراجعات » للمرحوم السيد شرف الدين وهو من كبار علماء التشيّع العلوي في عصرنا الراهن حيث سجل مناظراته ونقاشه مع الشيخ سليم ـ من كبار علماء السنة ـ على أساس منطلقاته وأصول مذهبه ، وكذلك سماحة السيد محسن الأمين وكاشف الغطاء ـ هذه الشخصيات الكبيرة في عالم التشيع العلوي ـ .

إنّ الدفاع عن التشيع وطرح الاختلافات العلمية بين الشيعة والسنة من خلال هذه الأقلام وأصحاب النظرة الموضوعية الثاقبة يعد أكبر عامل من عوامل التفاهم ، وأعظم مواجهة ضد نثر بذور التفرقة والأحقاد والجهل والرجعية ، وأعظم سلاح ضد العدو الخارجي .

حينما ندافع بإخلاص وصدق عن مذهب علي فإنّنا نخطو خطوة حقيقة في طريق التفاهم والتقارب بين المسلمين ..

التشيع العلوي تشيع الوحدة .. والتشيع الصفوي تشيع التفرقة .. تشيع وجد من أجل التفريق ..

لا نخاف من التشيع العلوي ، ولا نتصور خطأً أنّ الدفاع عنه والتمسك به يبعث على الفرقة والاختلاف .. أبداً على العكس تماماً .

لقد ألقيت محاضرة في هذا المكان تحت عنوان « علي مؤسس الوحدة » ..

وقلت : على العكس مما هو معروف بين المسلمين فان عليّاً كان أول من وضع حجر الأساس وأرسىٰ قواعد الوحدة في المجتمع الاسلامي .. وهو أول من قدم القرابين وضحّىٰ وتحمّل أثقل ضريبة ودفع أبهض الأثمان التي يمكن للإنسان الراقي السامي بمستوى الكون « فوق البشر » أن يدفعها من أجل الوحدة .. علي تحمّل كلّ شيء من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية .. وهو أوّل من أسسها ودفع ضريبتها .. وكانت قيمتها غالية عادلت حرمان الناس من حكومته يومها واغتصاب حقه الأكبر في إمامة الناس .. ولا نجد أبداً في قادة المسلمين وخلفائهم وائمة الفقه والعلم سابقاً ولاحقاً في أي مذهب من المذاهب الاسلامية قدم هذا « الثمن » وتحمل هذه الضريبة من أجل الوحدة الاسلامية .

علي مؤسس فكرة الوحدة في التاريخ الاسلامي وقد ضحّىٰ بـ ٢٥ عاماً من عمره في هذا السبيل .

فالتمسك إذاً بالحقيقة والتمسك بشخصية علي لا تبعث على التفرقة بتاتاً بل على العكس تماماً سيكون شعار الوحدة .. شعار التفاهم ..

شعار المسيرة الواحدة .. والصف الواحد ضد العدو الخارجي .. ضد أبي سفيان الداخلي واضرابه وضد امبراطوريات الشرق والغرب في ذلك الزمان .

منهج البحث

كنت أنوي تناول البحث هذه الليلة بأسلوب مدرسي بيد أنّي وجدته طويلاً مفصلاً والمجال ضيق لا يسع ، ولربما كان البعض لا يصبر على هذا الاسلوب في مثل هذه الليلة ـ ليلة ميلاد الامام امير المؤمنين عليه السلام ـ؛ ولهذا طويت صفحة الاستدلال وأعرضت عن الأسلوب التدريسي المدرسي الرسمي على أمل الرجوع اليها في فرصة أخرىٰ .

وسوف أتناول البحث من زاوية جديدة ، بمعنىٰ أنّ المتعارف المعهود في الوسط الشيعي المتدين : أنّ المبلّغ أو المحقّق غالباً ما يتناول أحداث الخلافة ، الإمامة ، التشيّع ، التسنن ، اغتصاب الخلافة ، الوصاية ، الولاية ، القرآن ، الحديث ، السنّة ، الأحداث والظواهر التاريخية ، تقييم الشخصيات ، المقارنة بين علي وخصومه ، المقارنة بين علي وبين من غصب حقه أو تحداه أو حاول تأسيس وجود يقابل وجوده وغير هامن المنطلقات التي يتحرك منها الباحث ، لكي يصل إلى علي وشخصية علي ورسالته وحياته وقيمه أو يثبت حقه ويدين خصومه على أساس المباني

الدينية والمنطلقات المذهبية وما يسجله التاريخ الاسلامي ، بيد أنّي سأتناول الموضوع من منطلقات غير تلك المنطلقات المعهودة ، تماماً كما فعلت في « أبي ، أمي ، نحن متهمون » حيث تحدثت نيابة عن الجيل المنفلت عن دائرة الدين ، فذكرت اعتراضاتهم وإشكالاتهم وأسباب انفلاتهم « وردّ علي البعض ذلك » .

وهنا سأتحدث باسم الطبقة والشريحة التي أشاركها في الأفكار أو السنّ أو في المستوىٰ الثقافي في هذا العصر ، في ايران أو خارج ايران ، في العالم الاسلامي أو العالم الثالث أو في أي مكان آخر ، ولكن يجمعنا على كل حال « القرن العشرون » .

أريد التحدث عن هؤلاء لأكشف لكم عن مكامن صدورهم دون التمسك بمذهب معين ودون الاعتماد على ضابط من ضوابط الدين أو الرجوع إلى قواعد علم الكلام والحديث والاختلافات الفكرية والعقائدية والدينية المعقدة التي تكتنف الموضوع* .

والآن ، فلنفترض أنّنا مجموعة شباب مثقف من طبقة « الانتلكتوئيل » من أمريكا اللاتينية ، الشرق الاقصىٰ ، آسيا ، أو افريقيا ،

(*) ذكر الاستاذ في هذا الموضع تعليقه في الهامش عن الوحدة الاسلامية وموقفه منها ، قدمناها تحت عنوان « الوحدة بين الشيعة والسنة لا تعني التنازل عن الحقيقة » وذلك لاهميتها .

ولا أقصد بالانتلكتوئيل ذوي الشهادات وإنّما الشباب الواعي الذي يشعر بالمسؤولية تجاه مصير شعبه وجيله وعصره ، ويجاهد من أجل تثبيت الحقيقة التي يؤمن بها والشعارات والمثل التي يعلن عنها .. يجاهد في طريق واضح المعالم ويعي وعياً كاملاً التزاماته ومسؤولياته الإنسانية تجاه أمّته وشعبه .. فلنفترض أنّي أخاطب هذه الشريحة من الشباب ولنفترض أنّي واحد منهم ، ونريد الآن أن نطرح قضية ..

ما هي القضية ؟

نريد أن نعرض حاجاتنا ..

ومن البديهي أن يختلف الطالب أو الشاب الذي يعيش في أمريكا اللاتينية عن زملائه في المناطق الاخرى من حيث الوضع الاجتماعي .. الحياة الاجتماعية ، النظام السياسي ، النظام الاقتصادي ، الثقافة والتراث ، التاريخ ، الدين ، الرشد النضج الاجتماعي في مجتمعه ، الظروف المعيشية والخلفيات الاجتماعية وغيرها ... يختلف الشاب في أمريكا اللاتينية عن رفيقه الذي يعيش في أقاصي آسيا أو في أفريقيا السوداء أوفي أفريقيا الشمالية أو في الهند ، أو في ايران ، او في تركيا ، أو في اليونان ، أو في أوربا الشرقية .. لكلّ واحد منهم ظروفه الخاصة به .. نظامه الاجتماعي ، تراثه ، لغته ، مشكلاته وممارساته اليومية ، شعبه ، تركيبه الاجتماعي ، نظامه الاجتماعي الحاكم ، أواصره الاجتماعية وعلاقاته الطبقية ، كلّها

تتفاوت وتختلف من منطقة لأخرىٰ ، وبالرغم من هذه الفوارق فثمة قواسم مشتركة بينهم كما قال فرانتس فانون :

« بالرغم من الاختلافات والفوارق الداخلية في العالم الثالث وبالرغم من تكثر الثقافات والتراث والمذاهب والأديان واللغات واللهجات واختلاف المستويات المعيشية والاقتصادية ونوع الانتاج وغيرها من المميزات التي تميزه عن الغرب ، إلاّ أنّه يتحد في أهم الشعارات وأهم المباني العقائدية وأهم الأسس التي تصوغ الايدلوجية وتعطي للمجتمع صورته الاصلية » .

« اذن ـ والكلام لفرانتس فانون ـ ينبغي على مثقفي العالم الثالث ـ سواء كانوا افريقين أو أمريكيين لاتينيين أو أسيويين ـ أن يحدّدوا اتجاه مسؤوليتهم في المجتمع ويصمموا حركتهم على أساس أعمّ الشعارات والمثل والمطالب المشتركة في العالم الثالث ... ينبغي اجتناب القوالب المحلية والشخصية المحدودة والانطلاق من حبس المنطقة إلى عالم واسع ونظرة بعيدة المدىٰ تمتد علىٰ سطح البشرية في القرن العشرين ، وتتوغل نحو المستقبل وفق مسارات الحتمية التاريخية ، وتقوم على أساس أهم القواعد والأصول العقائدية وأكبر الأهداف المشتركة بين أبناء العالم الثالث » .

وبهذا تبيّن أنّ شباب العالم الثالث يعيشون آلاماً وآمالاً مشتركة

تميزهم عن شباب العالم الأول والعالم الثاني ، ولكن بالرغم من ذلك فانّهم يشتركون جميعاً بشعارات وآمال وآلام أكبر وأشمل ، بحيث يشترك فيها الجميع باعتبارهم يعيشون في « القرن العشرين » وهو قاسم مشترك بين الشاب الغربي والشاب الشرقي يجمعهم على رؤىٰ عامة وشعارات ومعاناة مشتركة يشعر بها كل الشباب الذين يعيشون في هذه الفترة الزمنية الخاصة من التاريخ .

إذن فثمة قواسم مشتركة بين جميع شباب القرن العشرين أينما كانوا كما يشترك شباب العالم الثالث في الأهداف والآلام والأصول العقائدية ، بيد أنّها أضيق دائرة من القواسم الموجودة بين شباب العالم وكذا تضيق الدائرة بين شباب العالم الاسلامي وهكذا تنحصر القواسم وتتحدد بين شباب الوطن الواحد والمنطقة الواحدة ...

والآن فلنفترض أنّنا نشترك في مؤتمر عالمي للشباب المثقف وفيه لجان فرعية ، لجنة تضم شباب العالم الثالث ولجنة تضم شباب العالم الإسلامي .

ونحن نريد معالجة أهم الخطوط العريضة لتصوير شخصية وأيدلوجية ومدرسة معينة بشكل خاطف علىٰ جميع المستويات الثلاثة مع الأخذ بنظر الاعتبار تجرّدنا عن كلّ خلفية ذهنية سابقة .

ولهذا أرجو من تلاميذي الحاضرين وغيرهم من الراغبين أن

يسجلوا بعض العناوين العامة لتكون منطلقاً لهم في بحث الموضوع[1] كمشروع يقوم على اساس افتراض مثل هذا المؤتمر .

وأمّا الشخصية والوجه الذي أريد التحدث عنه كنموذج عملي وتجسيد حي لايدلوجية فاعلة في القرن العشرين فهو يتميز بالخصائص التالية (وهذه أهم خصائصه وليست أكمل خصائصه ولا جميعها) :

١ ـ علي ، طليعة الجيل الأول في الثورة الإسلامية :

لقد كان علي عليه السلام طليعة الجيل الاول الذي وجد في اللحظات الأولىٰ من نزول غيث الوحي وانطلاق الايدلوجية والنهضة الثورية ، أي أنّه انطلق مع النبي منذ بداية البعثة حيث نزلت « الكلمة » علىٰ قلب النبي أولاً ـ مؤسس هذه الايدلوجية ـ ونزلت على قلب علي ثانياً وكان يومها في الثامنة أو العاشرة من عمره .

٢ ـ علي في بيت ابن عمه :

من عجب أن تتدخل يد التقدير لرسم المصير في مثل ذاك

---

(١) وان كان المفروض أن تلقىٰ في هذه الليلة محاضرة عامة .

المجتمع القبلي الغارق في التعصبات الأسرية الشديدة ... تمتد يد التقدير لتأخذ هذا الطفل من أبيه ـ أبي طالب وكان شخصية بارزة جداً ـ وتنقله بحجة الفقر إلى بيت ابن عمه ، فيعيش إلى جانب فاطمة عليها السلام وفي كنف رجل قد خطط تخطيطاً عظيماً مدهشاً لمستقبل هذين الصغيرين .

٣ ـ العلاقات المتبادلة بين النبي وعلي :

إنّ ثمة علاقات متبادلة عجيبة بين النبي وبين علي : فالنبي ابن عبدالله وحفيد عبد المطلب الرجل المبرّز الثري يصبح يتيماً فقيراً بحيث يضطر لدخول بيت أبي طالب (أبي علي عليه السلام) وتحتضنه فاطمة (أمّ علي عليه السلام) ، وبعد أن يكبر النبي ويترعرع في احضان أبي علي وأمه ويتحملان مسؤولية رعايته في صباه ، تملق أسرة علي بحيث يضطر علي فيما بعد ـ وكأنه يرد الجميل ـ إلى دخول بيت النبي بحجة الفقر ويعيش في ظل النبي وخديجة ، ويكبر هناك .

قضى النبي طفولته في أحضان أم علي وولاية أبي علي ، وعلي يقضي طفولته في ولاية النبي وأحضان خديجة ، أي أنّه كبر وترعرع في حماية أبي فاطمة وأمها ... إنّها خطة مقررة من قبل ، ومشروع مدون معد سلفاً .

٤ ـ علي نموذج في الجهاد والقيادة العسكرية :

علي نموذج لسيف الجهاد وقوته في الجبهات ونموذج لبطولة القيادة العسكرية ، وهذا شيء يختلف تماماً عن « البطولة في الحروب » ... إنّه نموذج قيادي .

فبعد أن سقط حمزة في معركة أحد ظهر علي مباشرة كأبرز مقاتل وأبرز قائد عسكري في جبهة الحرب ، وكانت المعركة في أحد سجالاً حيث انتصر المسلمون أولاً ثم هزموا هزيمة مذهلة شتتت صفوفهم وقتل القائد مصعب بن عمير ووقع النبي في تلك الحفرة وجرح ... وهنا ينبري علي ويحلق كروح ليتقدم ساحة المعركة ، ويحمي النبي ، ويعود مسرعاً الى الخطوط الأولى ، ويتخذ مواقع حصينة لردّ الفارّين من الزحف ، ويبذل جهوداً مضنية ومحاولات حثيثة مدهشة ، ويتخذ التدابير اللازمة لدرء الخطر الذي أخذ يهدد المدينة بجد ، ثم يبدأ بترميم الصف وتشكيل جبهة دفاع قوية اضطرت أبا سفيان للتراجع ومغادرة ساحة المعركة قبل تسجيل أي نهاية للحرب .

وهنا يظهر علي ـ بعد سقوط حمزة ـ كأبرز قائد عسكري بين المجاهدين الذين كانوا يحفّون بالنبي وقبلها كان مقاتلاً بطلاً محارباً مشهوداً له ، أمّا اليوم فقد أصبح قائداً للجيش في أحلك الظروف وأصعب

المواقف وأشدّ اللحظات .. ظهر اليوم ليعلن عن وجوده ـ كقائد فذ ـ ومنذئذٍ عرفه التاريخ بهذه الخصيصة .

٥ ـ علي .. رجل السياسة والمسؤولية الاجتماعية :

لم ينس علي مسؤوليته الاجتماعية حتى في عصر الخلفاء الذين اغتصبوا حقه وكان علي ساخطاً عليهم .. ولا أريد أن أضرب لكم الأمثال وأسوق الشواهد علىٰ ما أقول لأنكم كثيراً ما سمعتموها من قبل ، لا سيما وإنّي أريد الإشارة إلى الخطوط العريضة كاثارات تنطلقون منها في بحوثكم .

٦ ـ رجل العمل (العمل اليدوي) والزراعة والانتاج :

« النخاولة » هم الشيعة المشغولون الآن بزراعة النخيل فيالمدينة ، وهم ذكرىٰ وامتداد للعمل الأول الذي اشتغل به الإمام أمير المؤمنين بعد أن عزل عن السياسة ، فقد بادر عليه‌السلام إلى الانخراط في العمل الزراعي حيث حفر آباراً في أطراف المدينة عند ميقات مسجد الشجرة وهي الآن معروفة باسم « آبار علي » وأقام مركزاً زراعياً كبيراً في ينبع بعيداً عن المدينة ، وتوجه نحو الانتاج ، ولعله كان أول من أوجد الزراعة في هذه المنطقة

بشكلها الدقيق المدروس كعمل مكثف مقصود توظف فيه رؤوس الاموال .. وهذا لا يعني عدم وجود بساتين النخيل قبل ذلك ، بل كانت حول المدينة وفي أطرافها بساتين نخيل بدائية جداً ، وكان العمل الرئيسي في المرحلة السابقة يتركز غالباً في التجارة والرعي ولكن عليّاً أخرجها من شكلها البدوي الساذج إلى مرحلة الانتاج الزراعي .

٧ ـ نموذج النثر والشعر :

يوجد الآن في متناول الأيدي ديوان شعر ينسب للامام أمير المؤمنين ولا أريد الاعتماد عليه كثيراً ، بيد أنّ المهم الذي ينبغي الاعتماد عليه هو النثر ، وغالباً ما يقارنون نثر نهج البلاغة بالنصوص الأخرىٰ ثم يحكمون بعظمته وجلاله وقيمته ، فيما يغفلون تماماً عن أخذ عامل الزمن بنظر الاعتبار ؛ بمعنى أنّ نهج البلاغة قد دوّن وتكوّن في عصر لم تكن لغة العرب فيه لغة النثر وإنّما كانت لغة الشعر ، وكان ثمة أشعار محدودة تبلغ حدّ الجودة ، بينما كان النثرفي القرن الأول نثراً بدائياً لا يمكن التعبير عنه بـ « النص » كما نلاحظ ذلك في بعض الكتب والرسائل الباقية من ذلك القرن حيث نجدها مجموعة كلمات جافّة تفتقر إلى التركيب الجيد* في

(*) قد ينطبق هذا الكلام علىٰ النثر المكتوب ـ الذي ثبّتت معاييره البلاغية والذوقية في ←

حين نرىٰ نهج البلاغة نصاً شامخاً وكأنه نثر ينتمي إلى فترة الكمال الأدبي في اللغة وأرقىٰ مراحل الجمال اللغوي والأدبي ...

لقد دوّن علي الكتب والرسائل وصرح بالخطب والحكم في عصر لم يكن فيه أي كتاب ، ولربما كان محيط علي وأمته وحواريه لم يقرأوا أي كتاب سوى القرآن . في مثل هذا المستوىٰ وفي مجتمع بدوي بالكامل يوجد نثر غاية في الظرافة والعمق وجمال الإيقاع وغنىٰ المعنىٰ وجزالة التعبير .. إنّه معجزة .. معجزة تتحدث عن إنسان بلغ الذروة في الأدب والفن والبيان .. معجزة تحكي عن إنسان متطور جداً في المجال الأدبي .

٨ ـ الخطابة والبيان :

من المعروف أن الذين يجيدون الكتابة لا يجيدون الخطابة وفن الكلام في الغالب وكذلك العكس ، أي أنّ من يجيد الخطابة لا يجيد الكتابة . ومن النادر جداً أن يجمع أحد بين الفنّين ، فيما نرى الإمام عليّاً يبلغ الذروة على كلا الصعيدين (أي في مجال القلم والخطابة وكلاهما موجود في نهج البلاغة) وقد انفرد بها علي في زمانه كما تؤكد ذلك

➲ القرن الثاني ـ ولكنّه يصبح محل نظر إذا أُريد به النثر الملقىٰ (الخطابة) كذلك ، فقد شهد القرن الأول صوراً رائعة من هذا الفن لخطباء عديدين يمكن عدّها بحقّ نماذج لفن الخطابة علىٰ امتداد العصور الأدبية .

دراسات المناهج البيانية واللغوية .

٩ ـ علي فيلسوف :

اذا تأملنا أوائل نهج البلاغة نجد فيه نصوصاً على شكل مقالات كأنها رشحات من دماغ فيلسوف عقلي ثاقب النظر دقيق الفكر .. إذا استمعت اليها كأنك تستمع إلىٰ أثينا أو اسكندرية القرن الثالث والرابع تتحدث ، وإذا أردت مقارنتها على أساس الأصول الفنية فلا تستطيع التصديق أبداً أن يكون فيلسوف بهذا المستوىٰ من العمق ويحمل نظرة كونية بهذه السعة والشمول ، ويمتلك نظرة عقلية واستدلالاً منطقياً بهذا المستوىٰ من القوة والإحكام ، وهو في ذات الوقت عامل ، فلاح ، وخطيب اجتماعي ومقاتل وقائد عسكري وأمير حرب متمرس يخوض ساحات الوغى وميادين الدم والسيف !

١٠ ـ علي جامع الاضداد :

ثمة اتجاهان رئيسيان في التصور الإنساني : الاتجاه العرفاني والميل الشديد نحو التراب ، النظرة المحدودة والنظرة الاجتماعية ، وهما اتجاهان متناقضان متعاكسان . وبالرغم من ذلك نجدهما يتحدان في

علي ﷺ ويمتزجان حتىٰ لا يمكن التفكيك بينهما ، فمن جهة تجده صاحب نظرة عميقة واسعة وتعقل كيس رزين يبلغان إلى اقصىٰ نقاط الماورائية في الوجود ، الأبدية ، السرمدية ، المطلق ، المجردات ، الرحابة ، ومن جهة أخرىٰ تجده ذا نظرة محدودة واقعية يتعامل مع الطبيعة ويركز على العينيات ، بحيث لا يصدق أحد أن الذي يعبّر ذلك التعبير ويحمل هذه النظرات وهو يتحدث عن الذات الالهية والموت هو نفسه الذي يصف منظراً طبيعياً بعبارات خلابة تسيل رقة وعذوبة وجمالاً ، ويصوره تصويراً رائعاً كما يصور الرسام الماهر الطاووس !!

انها مواهب وقابليات لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد .. وقد يملك البعض مواهب عديدة وقابليات متكثرة ولكنه يكون قوياً في واحدة ومتوسطاً في الأخريات .. الاّ علياً فانه مثال للعاطفة الجياشة المتدفقة بالمحبة والوداد حتى لتخاله أحياناً ـ لرقة قلبه وارهاف مشاعره ـ يحكي لك عواطف عارف شاعر ليس إلاّ .. وفي ذات الوقت يبدي من الصلابة والجلد والحدّية والصرامة والخشونة في طريق الحق ما لا يكاد العقل تصديقه ... يعود من المعركة ، يدخل البيت قائلاً لزوجته خذي اليك السيف واغسلي عنه الدماء ... إنّه رجل محارب شديد ولكنه ـ هو بنفسه ـ ذلك الرجل الذي يذوب رقّة ويفيض رأفة وتتفجر منه العواطف والمشاعر المرهفة !

كان الخوارج اثني عشر الفاً من المقدسين العابدين الزاهدين المعروفين عند المسلمين . قال عنهم ابن عباس : لقد تقرّحت جباههم من كثرة السجود ، وكانت لهم ثفنات كثفنات البعير من كثرة العبادة .. كانوا يقومون الليل ويصومون النهار .. يتلون كتاب الله ويتهجدون بالعبادة .. وكانوا متزمتين متعصبين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وكانوا على استعداد تام للتضحية حتى ادهشوا اعداءهم :

ففي ذات مرة اصيب أحد الخوارج برمح من خلفه فأصابت الطعنة خاصرته وفخذه ، ومع ما كان يعاني من شدة الضربة كان يجر نفسه (جثته) نحو العدو وهو يصرخ : « يا رب .. يا رب .. خذني اليك وادخلني في رحمتك .. اللهم ارزقني الموت ولا تبقني » وهو يحرض عدوه على تكرار الضربة وإعادة الطعنة ...

ومرّةً بعث معاوية أبا أحد الخوارج ليرجع ولده ، فجاء إليه ودعاه الى ترك القتال ـ وكان ابنه من العبّاد المتعصّبين ـ فرفض الولد وكلما ألحّ عليه الأب أجابه بالنفي ، فقال الأب سآتيك بابنك لتنظر اليه فتشفق عليّ ، لعلّك إنْ رأيت ولدك تشعر بما يشعر به أبوك نحوك ، فأجابه الولد : إنّي أشدّ شوقاً الى ضربة السيف وطعنة الرمح منها إلى رؤية ولدي ! .

.. هؤلاء هم الذين كفّروا علياً .. ومن ذا يجرؤ على مواجهتهم بالسيف ؟

فلنشاهد إذاً موقف علي منهم :

عقد لأبي أيوب الانصاري راية أمان ونادىٰ : « من دخل تحت هذه الراية فهو آمن* » ثم خطب فيهم وكلّمهم ووعظهم وأتمّ الحجة عليهم وأعذر وأنذر وصبر وتحمل وداراهم وفعل معهم الاعاجيب فلم ينصاعوا ولم يقبلوا ، ولم يزل يعظهم ويحاججهم حتى رجع منهم ثمانية آلاف وبقي أربعة آلاف ، وهنا وصلت النوبة إلى السيف حيث وجد فيهم خونة يشكلون خطراً على المجتمع ، ولو بقوا لفتّتوا الأمة وخدعوها بتقدسهم المنحرف وعبادتهم وتدينهم الفارغ ، ولابد من الصبر على الجرح واستئصالهم بعملية جراحية .. فأعمل فيهم السيف وأبادهم جميعاً إلاّ قليلاً منهم ثم قال : « أيها الناس فإنّي فقأت عين الفتنة ولم يكن يجرؤ عليها غيري** » ...

هذا ، فيما نراه في موضع آخر يتخذ موقفاً يخالف موقفه السابق تماماً مما يكشف عن عظمته ويكشف عن روحه الكبيرة ... روحه التي تسع العالم بأسره بل هي أكبر وأكبر .. وجوداً يحتوي الكون وزيادة ...

(*) قال الطبري في تاريخه ٣ / ١٢١ في أحداث سنة ٣٧ : .. ورفع علي راية أمان مع أبي أيوب فناداهم أبو أيوب : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ، ومن انصرف منكم الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن .

(**) نهج البلاغة الخطبة ٩٣ .

لقد تصرف الخوارج بنذالة يندى لها جبين البشرية .. وقد وصل بهم الأمر بعد أن اعتزلوا إلى قصة التحكيم .. ففرض التحكيم بالقوة ـ وبكل وقاحة ـ على الإمام علي فيما كان مالك الاشتر علىٰ أعتاب النصر ، وبنو أمية يواجهون الهزيمة ومعاوية مهدد بالفناء ، واذا بعمرو بن العاص يرفع القرآن على رأس رمح طويل (وكان عمرو أول من رفع القرآن ضد القرآن في الاسلام) ..

ملامح النصر قد بانت في آفاق معسكر الإمام علي ، ولكن الخوارج المقدسين صرخوا على حين غرة : « لا نشهر السيف علىٰ كتاب الله .. لا نقاتل القرآن المقدس » !

فصرخ فيهم علي ووعظهم : « أي قرآن مقدس تزعمون ؟! إنّه قرآن علىٰ راية عمرو بن العاص .. ورق وحبر* .. ولا قدسية للحبر والورق .. القرآن خطاب ، القرآن بيان .. فأينما عملوا بالقرآن فالقرآن هناك .. يوجد القرآن حيث توجد رسالته ، حيث يوجد بيانه وخطابه ، حيث يطبق ويعمل به .. القرآن كلام الله وليس هذا الحبر والورق ... اعرضوا عن هذا إنّها مكيدة وخديعة** ! » خاطبهم وكرر خطابه لهم دون

(*) قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في خطبة له للخوارج حين رجع الى الكوفة : ... فقال عليه‌السلام : إنّا لم نحكّم الرجال انما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنّما هو خط مسطور بين دفّتين لا ينطق وإنّما يتكلم به الرجال ... الإرشاد للشيخ المفيد رحمه‌الله : ١٤٤ .

(**) قال نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢) في كتابه وقعة صفين : ٤٨٩ : لما رفع أهل

جدوىٰ فليس ثمة اذن صاغية ...

ومن ذا يجرؤ علىٰ هذا الكلام عن كتاب الله ؟! فانقلبت السيوف على علي وتنادوا : « لا نجرّد السيوف على القرآن .. لا نقاتل كتاب الله » ..

والآن كيف يستطيع إفهام هؤلاء القوم وأن يقول لهم : إني أفـهم القرآن افضل منكم وقد تعلمته ممن هو أفضل منكم .. وإني حاكم رسمي ووصيّ صرح النبي بفهمي للقرآن ووصايتي وخلافتي وأعطاني كل شيء ،

الشام المصاحف على الرماح يدعون إلى حكم القرآن قال علي عليه السلام : « عباد الله ؛ إنّي أحق من أجاب إلىٰ كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن سلمة وابن أبي سرح ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، إنّي أعرف بهم منكم ، صحبتهم اطفالاً وصحبتهم رجالاً وكانوا شر اطفال وشر رجال ، إنّها كلمة حق يراد بها باطل ، إنّهم والله ما رفعوها ، إنّهم يعرفونها ويعلمون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق الا ان يـقطع دابـر الذين ظلموا » .

فجاءه زهاء عشرين الفاً مقنعين في الحديد شاكي السلاح ، سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكى وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد فنادوه باسمه لا بامرة المؤمنين : يا علي ، أجب القوم الى كتاب الله إذ دعيت اليه ، والا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنّها ان لم تجبهم . فقال لهم : ويحكم انا أول من دعا الى كتاب الله وأول من أجاب اليه وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعى الى كتاب الله فلا أقبله ، إنّي إنّما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن فانهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون .

قالوا : فابعث الى الاشتر ليأتيك . وقد كان الاشتر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله .

وهؤلاء أصحاب النبي يعترفون بل حتى أعدائي يعترفون أنّي أعلمهم بكتاب الله وأنتم تواجهوني باجتهادكم .. وتتظاهرون بالتقدّس ؟! تهاجموني ، تسبوني ، تشتموني وتطلبون مني أن أتعدى علىٰ حدود القرآن من اجل التحكيم ؟! وهل يمكن ذلك ؟!

قالوا : ابعث لمالك حتى يأتيك وإلاّ قتلناك بهذه السيوف التي أردت تجريدها على كتاب الله .

فاضطر الإمام فبعث لمالك أن يعود ، فعاد مالك ونجحت مؤامرة عمرو بن العاص ، وكانت أول مؤامرة ناجحة استعمل فيها القرآن ضد القرآن وكان ضحيتها الإمام علي عليه السلام .

أصرّوا على موقفهم وآل الامر إلى التحكيم والتحكيم سنة اسلامية .. حَكَم يمثل الإمام عليّاً وآخر يمثل بني أمية يجتمعان ويتفاوضان ويتذاكران أمر الأمة ، حتى اذا اتفقا على أمر قبلاه أعلَنا ذلك ، وعلى الطرفين التسليم لهما واتباع ما اتفقا عليه .

فقال الخوارج : « إن لم ترض بالتحكيم قتلناك الساعة » .

قال الإمام علي عليه السلام : اذن فليكن مالك الاشتر فانه قائد محنك لا يساوم أو ابن عباس فهو منا ونطمئن اليه .

قالوا : كلا أمّا الأول فأميرك على الجيش ، وأمّا الثاني فهو منك ..

قال : إذن من تريدون ؟!

فاختاروا رجلاً علىٰ شاكلتهم من ذوي الوجاهة واللحى البيض ، مقدس جداً وأحمق جداً فقالوا : ابو موسىٰ ! ابو موسىٰ ولا نرضىٰ بغيره ابداً* قال علي : قد أبيتم الّا أبا موسىٰ ؟ قالوا : نعم . قال : فاصنعوا ما أردتم ...

.. هناك في ذلك الجانب ثعلب الدنيا .. مكر العالم بأسره .. عمرو ابن العاص الذي كان من أحطّ المشركين وأقذرهم ، والآن صار وزيراً لمعاوية ويريد أن يفتك بعلي وسلاحه القرآن .. ومن سيقابل هذا الدهاء ؟

أبو موسىٰ !

(*) قال نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ) في كتاب وقعة صفين : ٤٩٩ .

« ... وقال الناس : قد رضينا بحكم القرآن . فقال أهل الشام : فإنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص . وقال الاشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : فانا قد رضينا واخترنا أبا موسىٰ الاشعري . فقال لهم علي : إنّي لا أرضىٰ بأبي موسى ولا ارىٰ أن أوليّه ، فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء : انا لا نرضىٰ الاّ به فانه قد حذّرنا ما وقعنا فيه . قال علي : فانه ليس لي برضا وقد فارقني وخذّل الناس عني ثم هرب حتى أمّنته بعد أشهر . ولكن هذا ابن عباس أوليّه ذلك ، قالوا : والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ، ولا نريد الاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، وليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر . قال علي : فاني أجعل الاشتر ، قال الاشعث : وهل سعّر الارض علينا غير الاشتر وهل نحن الاّ في حكم الاشتر . قال له علي : وما حكمه ؟ قال : حكم أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردتَ وما أراد » .

أبو موسىٰ الذي خذّل الناس عن الخروج مع الإمام للحرب يوم كان والياً من قبل أمير المؤمنين (يا لها من قصص عجيبة) فبعث اليه الامام الحسن وعمار يسألانه عن سبب تخذيل الناس وهو والي أمير المؤمنين فأجاب :

« لقد قال لي رسول الله ﷺ : سيحدث بعدي اختلاف وفرقة فاذا كان ذلك فانجُ بنفسك ولا تدخل في الفتنة واختر السلامة واسلك سبيل التقوىٰ » .

وهذه فتنة واختلاف ولا ادري أين هو الحق مع علي أم مع معاوية ؟! ولهذا لم اتخذ قراراً واخترت الحياد !!

فقال عمار : يا عُديّ نفسه أي وصية هذه لم يسمعها أحد من رسول الله وهل همس بها في اذنك فقط ؟! هذا أولاً وثانياً : (انظروا التشيع العلوي) كيف جاز لك أن تبقى على الحياد ؟ وماذا يعني الحياد ؟ كان عليك أن تبحث عن الحق لانك مسلم وعليك أن تواجه الباطل وتقف الى جانب الحق وتدافع عنه ، لا يحق لك أن تختار الحياد بل يجب عليك أن تتحقق ، فاذا كان الحق مع علي وجب عليك الوقوف إلى صفّه والدفاع عنه ومحاربة معاوية ، وإذا كان الحق مع معاوية كان عليك الوقوف إلى جانبه والدفاع عنه ومحاربة علي .. اما وقوفك موقف الحياد فهو مرفوض مدان لأنّ الحياد لا معنى له والحال هذه .

لماذا الحياد في صراع الحق والباطل ؟ .. لابد من التفتيش والتشخيص واجتناب الالتواء والاسترخاء والاحتيال باسم شطارة المقدسين .. ليس لك الفرار من الزحف والتنصل عن المسؤولية !

هذا هو ابو موسىٰ الذي اختاره القوم !!

أجّلوا التحكيم فترة من زمان يريدون بذلك إمرار المؤامرة ، وكان عامل الزمن يعمل لصالح بني أمية ، فمرّت الشهور وعمرو بن العاص يخدع أبا موسى ويحتال عليه حتى قال له مرة : ابا موسى لقد مللتَ هذا النزاع بين علي ومعاوية أليس كذلك ؟ فلماذا لا تعمل علىٰ إنقاذ المسلمين من الفرقة والاختلاف ؟

قال أبو موسىٰ : وماذا اصنع ؟

قال : نتقرّب إلى الله بعمل نحفظ به وحدة المسلمين ، فأعرض أنا عن معاوية واقلع أنياب طمعه ونعرض أنت عن علي ونترك المسلمين يختارون لأنفسهم أميراً غير هؤلاء ، فننهي الخلاف ونقطع دابر الفتنة وننقذ الأمة من الحرب وقتل الاخوان !

قال ابو موسىٰ متعجباً : صدقت .. صدقت انا مستعد تماماً . فماذا نصنع الآن ؟

قال : اننا ممثلون لعلي ومعاوية ، فإذا عزلناهما أمام الملأ يضطر

الناس الىٰ اختيار شخص ثالث يتفق عليه الطرفان ويرضيان به ، فتتجه أنظارهم إلى رجل لا يختلفون عليه ولا يعلمون له سوابق الاّ الخير وحينئذٍ تتحقق الوحدة ويرتاح الناس ويجتمع شمل الامة .

قال ابو موسىٰ : إنّه حلّ رائع .

فاجاب عمرو : من حسن الصدف أنّي أعرف رجلاً لا يختلف عليه اثنان .. عبدالله بن عمر .. رجل التقوى والزهد والورع والطهارة ..

قال ابو موسى : صدقت .. صدقت .

قال عمرو : نرشح عبدالله بن عمر وسيرضىٰ به الناس قطعاً ... إن لم يكن علي ولم يكن معاوية .. فعبدالله موجود وفيه الكفاية !

قال ابو موسىٰ : صدقت صدقت وإنّي على استعداد تام ..

فخرجوا والناس ينتظرون ، فقال أبو موسىٰ لعمرو : تقدم واعزل معاوية .

فقال عمرو : أنا .. أبداً كيف أتقدم عليك ؟ .. إنّها إساءة أدب .. تقدم أنت رجل ذا هيبة وشيبة ووجاهة .. تقدم أنت أولاً .

فرضي أبو موسى (وهو من النوع الاناني الذي يحب الظهور ، ويكفي لمثل هؤلاء أن تسيل لعابه لأي شيء فيعطيك كل شيء) .

فصعد ابو موسىٰ وخطب في الناس قائلاً : ايها المسلمون ، لقد اتفقنا أنا وعمرو بن العاص على انهاء الفتنة وانقاذ الناس من الخلاف بين علي ومعاوية وإخماد نائرة الحرب والصراع الذي دام سنين عديدة ... ايها المسلمون اتحدوا ووحّدوا كلمتكم لاختيار شخص ثالث لإمامة المسلمين واستلام زمام الخلافة ، وها أنذا أخلع عليّاً عن الخلافة كما خلعت محبسي هذا (وخلع محبسه من يده) والسلام . ثم نزل .

فصعد عمرو بن العاص وقال : ايها الناس ! لقد سمعتم ما قال أبو موسىٰ وعرفتم رأيه (ثم نفخ أعطافه بالقاب رخيصة نثرها على اسم أبي موسىٰ ... صاحب النبي من المهاجرين ...) ولكنّي اثبت معاوية في الحكم كما أثبت محبسي هذا في يدي (ووضع محبسه في يده) وأقرّه في الخلافة .. ثم صاح : « صلّوا علىٰ النبي » وتم التحكيم بالسعادة والرفاه .

وهنا شعر الخوارج ـ فجأة ـ أنّهم خدعوا وانطلت عليهم المؤامرة (الآن فهموا !) فثاروا وتنادوا وارتفعت صياحتهم تملأ الآفاق .. « الخيانة ... الخيانة .. »

وهجموا على ابي موسىٰ يريدون قتله ، ولكنه أطلق ساقيه للريح حتى وصل مكة وانتهت القصة !

أما الخوارج فلم يعتذروا ولم يقروا بخطئهم وفضيحتهم بل أخذوا بتلابيب الإمام علي وهم يقولون : لقد ارتكبنا جريمة نكراء وأخطأنا

وعملنا خلاف كتاب الله وسنة رسوله فلماذا طاوعتنا ورضيت بحكمنا ؟!
لقد اقترفنا واقترفت ذنباً كبيراً ونحن نتوب من ذنبنا وعليك أنت أن تتوب الآن من ذنبك ! .

قال : ومماذا اتوب ؟

قالوا : نحن أردنا التحكيم وانت رضيت بما اردنا وكلّنا مذنب والمذنب مشرك كافر (وهذا هو رأي الخوارج)* .. عليك أن تستغفر أمام الملأ وتعلن توبتك على رؤوس الاشهاد .

قال : ومن أي شيء استغفر ؟ ان قلتم استغفر عن التحكيم فإنّي لم أرضَ به بل كان رأيي الحرب وانتم اردتم التحكيم وشهرتم سيوفكم في وجهي إن لم أرض .. وان قلتم إنّ اختيار ابا موسىٰ كان خطأً فإنّي ما اخترته من تلقاء نفسي وانما فرضتموه عليّ انتم .. فلماذا اتوب اذن ؟

قالوا : لا حكم الّا لله ونحن ارتكبنا ذنبين لما رضينا بالتحكيم أحدهما : أنّنا حكّمنا الرجال في دين الله والله يقول « لا حكم الّا لله » وثانيهما: أنّنا رضينا بأبي موسى وعمرو بن العاص فاتخذنا حكمين وحكم الله واحد . ولابد ان نستغفر من ذنبنا هذا .

قال : اما التحكيم فهو سنة شرعية فلماذا اتوب ؟ لم يكن التحكيم

(*) ذهب الخوارج الى أن مرتكب الذنب مشرك كافر مهدور الدم لا يستتاب .

بدعة غير مشروعة وقد حكّم رسول الله سعد بن معاذ في قصة بني قريظة فلماذا استغفر من عمل مشروع ؟! وأمّا ابو موسى وترك القتال فكان حكمكم الذي فرضتموه عليّ فرضاً .

فاعتزل الخوارج عن الإمام امير المؤمنين وحجتهم : « تب واستغفر من الذنب الذي ارتكبناه نحن » وأخذوا يقطعون الطرق ويسفكون الدماء بتعصبهم الشديد ، حتى كان الانتحار عندهم أهون من شربة ماء ، فأربكوا الوضع وأخلّوا بالأمن وآذوا الإمام عليّاً وبالغوا في أذاه فكانوا يدخلون المسجد (قبل الحرب) وينتشرون هنا وهناك يتلون آيات من القرآن تتوعد المشركين والكفار يعرّضون بالإمام والإمام صابر يصلي بالناس ...

كانوا يسبّون الامام ويشيعون الفوضىٰ ويعرّضون بالإمام وهو يصلي ، حتى إذا قرأوا من القرآن شيئاً تنكيلاً بالإمام سكت هو احتراماً للقرآن ، فإذا سكتوا استمر في صلاته ثم يعودون لتلاوة آية أخرىٰ ويعود الإمام إلى السكوت واستماع القرآن ثم الاستمرار بالصلاة وهكذا يعودون إلى التلاوة ويعود الىٰ السكوت* .

(*) عن الصادق عليه السلام : إنّ علياً عليه السلام كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا وهو خلفه « ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فأنصت علي عليه السلام تعظيماً للقرآن حتى فرغ من الآية ثم عاد في قراءته ثم أعاد ابن الكوا الآية فأنصت علي عليه السلام ايضاً ثم قرأ فأعاد ابن الكوا فأنصت علي عليه السلام ثم قال « فاصبر ⇐

ولم تكن ردود فعل الامام تجاه افتراءاتهم وإساءاتهم وسبابهم في الكوفة ـ مركز الخلافة ـ ومسجدها سوىٰ ما ذكرنا، فلم يهدد منهم أحداً ولم يحبس منهم أحداً ولم يضرب منهم أحداً* قط ولم يقطع عطاءهم من بيت المال بل لم يؤخر عطاءهم يوماً واحداً** بالرغم من أنهم كفّروا علياً في عقر عاصمته، ولم يكتفوا بذلك وانما كفروا كل من أبىٰ تكفير علي ..

وبقوا علىٰ هذا المنوال والإمام يداريهم حتى وصل بهم الأمر أن أعلنوا الحرب وحشدوا العساكر وأداروا رحى الموت في النهروان، وإذا بعلي يبدي وجهاً آخر، لأنه أصبح الان رجل حرب ومن أولى بها منه، فكرّ عليهم يحصد الرؤوس بسيفه، فلم يبق من أربعة الاف سوى تسعة نفر .. تسعة نفر فقط ..

في ذات ليلة مرّ أحد الخوارج أمام الخيمة وهو يتلو آيات من

⮌ إنّ وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون » ثم أتمّ السورة ثم ركع . (التهذيب ٣ / ٣٦ وعنه البحار ٣٣ / ٤٣٠).

(*) روى أنّه عليه‌السلام كان جالساً في أصحابه فمرّت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه‌السلام :

إنّ أبصار هذه الفحول طوامح، وإنّ ذلك سبب هبابها فإذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فإنّما هي امرأة كامرأته، فقال رجل من الخوارج : قاتله الله كافراً ما افقهه، فوثب القوم ليقتلوه فقال عليه‌السلام : رويداً إنّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب (نهج البلاغة ـ قصار الجمل ٤٢٠).

(**) انظر : تاريخ الطبري ٣ / ١١٥ أحداث سنة ٣٧ هـ.

الكتاب بصوت حزين ودموعه تنهمر على خديه فيما كان يتهيأ لحرب الامام في يوم غد فسمعه رجل عاطفي من عسكر الإمام فانفعل بذلك وقال : يا له من مؤمن .. هنيئاً له هذه الكرامة وهذا الانشداد بالله ، فقال علي : ستراه غداً وتعرف تهجده وايمانه .. وبينما كان الامام راجعاً في اليوم الثاني مرّ على جثة متعفنة فقال لصاحبه : انها جثة ذاك الذي سمعته البارحة يتلو القرآن بصوت حزين وسيكون غده أسوأ بكثير من ساعته هذه ...

هذا علي .. وقد صار شيئاً آخر .. علي آخر سوى علي ذاك الأول !!

١١ ـ الزهد الثوري ، العبادة ، التمسك بالعدالة :

علي نموذج مثالي في العبادة ، الخلوة ، الوحدة ، التفرغ حتى اتخذه العرفاء والمرتاضون واقطاب التصوف بطلاً وقدوة ورمزاً .

وهذا البعد في شخصية الإمام يناقض الرجل الذي يحمل السيف ويضرب به بلا هوادة ، والرجل الذي يخوض المواجهة السياسية الواسعة ، والرجل الذي يوظف أروع لطائف اللغة ويتكلم ببلاغة لا تضاهى ويتحدث بعمق أفكار الحكماء ... الرياضة .. الوحدة ، العبادة ..

لقد سمعتم حالاته ومناجاته في خلواته مع ربّه وفي معراجه الروحاني وتحليقه الروحي ـ وكلٌ يتحسس ذلك بمقدار ما لديه من

الإحساس والمشاعر والتعاطف ـ وإلى جانب ذلك تجده رجلاً يقضي ليله ونهاره في الحرب والجهاد والمواجهة والمصاولات والتفكير والكتابة والخوض المرير في الميادين والساحات وتحمل المسؤوليات الاجتماعية اليومية ...

أب وزوج بمستوى الإنسان والانسانية ، حتىٰ لكأنه مخلوق للأسرة فقط ، يشارك فاطمة في اعمال البيت .. يقتسم معها العمل داخل البيت .. داخل البيت لا أن يكون عليه خارج البيت وعليها داخله .. فيؤدي كلّ منهما دوره .. علي يؤدى ما عليه وفاطمة تؤدي ما عليها .

وإذا أردنا أن نضرب المثل الاعلىٰ للرجل داخل البيت والزوج المربّي يكفينا أن نذكر علياً زوج فاطمة ، وجميعنا يعرف الأبناء الذين ربّاهم علي ... ومعلوم من هم خريجو مدرسته ...

إنّهم العظماء الذين يمثّلون عليّاً في عظمته .. كلّ واحد منهم يمثّل بعداً من أبعاد علي ، وفي ذروة المطلق : يمثل عليّاً الامام .. عليّاً النموذج المثالي .. المثل الاعلىٰ .. : زينب ، الحسين ، الحسن .

زهد علي .. زهد ثوري ، زهد لا نعرفه نحن ، فنحن نعرف أحد اثنين .. إمّا الثري ، المترف المتخم ، الفاسد الشحيح الشّرِه ، وإمّا الزاهد وهو الإنسان الزاهد فقط ، لأنه زاهد ليس إلاّ .. الإنسان الذي يحرم نفسه في الدنيا من المال والخبز واللذة وغيرها من المباحات لكي يحصل عليها

ـ وحده ـ في الآخرة .. يحصل عليها وحده ولا يهمّه من بعد أمر الناس .. يأكل هنا قليلاً ليأكل هناك كثيراً ، معاملة أنجزها بنفسه لنفسه ، وقدر كتبه على نفسه بنفسه من دون أي علاقة تربطه بالمجتمع ..

الزاهد يعيش البطالة وينظر إلى الدنيا والمال والثورة واللذة نظرة سلبية .. هذا هو الزاهد الذي نعرفه أمّا زهد علي فزهد ثوري .. وما هو الزهد الثوري ؟

الزهد الثوري ـ أي زهد علي ـ أن تتحمل الفقر لمكافحة الفقر ، وتصبر على الجوع لتكافح الجوع ، والتنازل عن الخبز الشخصي من أجل توفير خبز الناس ، والتنازل عن الذات والحياة الشخصية وتخفيف المعيشة ، والبساطة ، والاستغناء ، والاكتفاء بلقمة الخبز والملح ، وسدّ جوعه وجوع عائلته بالقليل من أجل إشباع جياع الناس .. وتخفيف الحمل لكي ينطلق في خدمة المجتمع دونما إحساس بقيود الحياة الشخصية .

هذا هو الزهد .. الزهد من أجل محاربة العمل الذي يمارسه « المثقفون الواعون » الذين ترهقهم الديون في بداية حياتهم .. قسط وقرض ، وقرض وقسط ، وقسط وقرض ، وفي السنة الأولى أو الثانية تشلّهم الحياة ! .

الزهد من أجل أن يبقى الإنسان خفيف المؤونة .. ومن أجل ضمان لقمة الناس واقتصادهم ومن أجل العدالة ... ان لا يكون عنده شيء يخشى

عليه ولا يخاف فقدانه ، فيضطر إلى المساومة والمراوغة والتحفظ ..

هذا هو الزهد والقناعة .. تأمين إنسانية الإنسان وضمان الانسان المجاهد المسؤول في طريق حركته المسؤولة وجهاده .

لماذا نكص عبد الرحمن بن عوف والزبير وأمثالهم عن علي ؟

من هو الزبير ؟ الزبير ابن عمة علي .. كان النبي يحبه حباً جماً وهو ابن صفية بنت عبد المطلب .. بعد أن آلت الخلافة لابي بكر إثر احداث السقيفة انحاز الزبير إلى جانب الامام ودخل بيت علي واعتصم هناك دفاعاً عن الحق الذي حرم منه الامام .

وانحاز في الشورىٰ التي شكّلها عمر لصالح الامام فيما كان عبد الرحمن يخطط لترجيح كفة عثمان ...

الزبير حارب عثمان لصالح علي .. فلماذا ينكص الآن ولا يستطيع الاستمرار في مسيرته مع علي ؟!

لأنه يملك الف عبد يعملون له ويكدّون صباح مساء ، وعند الغروب يعودون له بالدنانير والدراهم .. عبيد يعملون لسيدهم ويدرون عليه أموالاً طائلة ، ولو بقي مع علي لا يسعه الإبقاء على هذا الوضع !

عبد الرحمن بن عوف يبني قصراً فخماً في العقيق .. واين تقع العقيق ؟

العقيق مصيف ذو جو رائع خارج المدينة ـ والآن اصبحت ضمن المدينة ـ دعي النبي ذات مرة إلى بستان في العقيق كان ملكاً لأحد الصحابة ، فلما عاد من هناك قال لعائشة : أحببت لو كان لنا بيت في العقيق .. إنّه مكان جميل فضاؤه رحب وهواؤه بارد وبساتينه خضراء خضلة .. هذا وكان النبي يومها يعيش في بيوت المدينة في ذلك الجوالحار بين حشود الناس المكتظة .. ومن المعلوم كيف ستكون تلك البيوت ضيقة خانقة فيما كانت ساحة بيت النبي مسجده الذي يعيش فيه من ١٠٠ إلى ١٢٠ نفراً من أصحاب الصفة ..

فقالت عائشة : نشتري هناك ارضاً ونبني فيها بيتاً . (لم يكن البناء يومها ذا بال لا سيما البناء الذي يريده النبي .. طين خالص وليس فيه تكاليف مثل هذه الايام) .

فقال النبي : لم يبق من الاراضي شيء نشتريه .. ثم ليس لنا ما نشتري به !!

هذه حياة محمّد ﷺ ... وعبد الرحمن يبني في العقيق قصراً ، ولهذا يترأس « الشورىٰ » ويلتمس آلاف الحيل ليمكّن عثمان من الخلافة ؛ لأنه يعلم أنّ علياً اذا استلم السلطة سيهدم قصره على رأسه ، وكلهم كانوا يعرفون علياً ولسنا أول من اكتشفه . اذن فلا يمكن الركون اليه والانسجام معه .

عقيل أخو الامام علي الأكبر .. وعلي يحترمه كثيراً ويكنّ له التقدير ويتألم له كثيراً لأنه فقير اعمىٰ .. ولهذا كان يشعر بالرحمة والعطف عليه .. والآن وصل علي إلى الحكم فجاء أخوه يجرّب حظه .. إنّ لي زوجة وأطفالاً صغاراً وعيالاً و...

فأحمىٰ له علي حديدة وقربها من يده ، فضج عقيل صارخاً : ماذا تصنع لقد أحرقت يدي ؟! فاجابه علي : لماذا الصراخ .. إنّي أمازحك .. انا أخوك فكيف تضج من هذه النار ولا تضج من نار سجرها جبارها لغضبه* ..

فخرج عقيل ولم يعد يصبر على عدل علي وزهده وصرامته في طريق الحق . ومن العسير على البشر أن يتحمل مثل هذه الحدية في سبيل الحقيقة حتى لو كان مثل عقيل الذي كبر وترعرع في بيت أبي طالب .

خرج عقيل إلى معاوية في الوقت الذي كان معاوية في حرب مع

(*) قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة له (نهج البلاغة خ ٢٢٤) : .. والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بُرّكم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الألوان من فقرهم كأنّما سوّدت وجوههم بالعظلم وعاودني مؤكداً وكرّر عليّ القول مردّداً ، فأصغيت اليه سمعي ، فظن أنّي أبيعه ديني واتبع قياده مفارقاً طريقتي فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذي دنف من المها وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل : أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه ؟! أتئن من الأذىٰ ولا أئن من لظىٰ ؟! ...

علي فاستقبله ورحّب به وأعطاه ما يريد ...

وانتم تعلمون أن الارستقراطية القبلية كانت تحكم تلك الفترة وكم كان وقع خروج عقيل إلى معاوية ثقيلاً صعباً في مثل تلك الاجواء والإعلام المعادي يهرج ضد علي : إنّه لم يسع اخاه ولقد فرّ أخوه إلى العدو هروباً من وطأة خشونته وصرامته فكيف يستطيع هذا الرجل أن يسع كبار الرجال والصحابة وذوي المكانة والشخصيات ؟!

١٢ ـ المساواة في العطاء ، الاستهلاك ، الحقوق والواجبات :

لربما كانت القضايا التي أعرضها قضايا جزئية ، بيد أنّها مواد أولية لاستنباط الحكم ، وحينما نصل إلى الحكم نعرف قيمة تلك القضايا الجزئية .

ميثم التمار من أصحاب علي المقرّبين ، صديق ونصير وعزيز ، وكان يبيع التمر في الكوفة ، وفي ذات مرة وضع التمر في طبق وقسّمه أقساماً منها الجيد والأجود والرديء ، وسعّر كل نوع منها بقيمة معينة تتفاوت حسب جودة التمر ورداءته فجاء علي وخلط الجميع وقال مغضباً لماذا تفرق بين عباد الله في غذائهم .. اخلط الجميع وبع بقيمة مناسبة تستخرجها من معدل قيمة الانواع جميعها ...

ماذا تفهم من هذه الرواية ؟ « التساوي في الاستهلاك » وهو أرقىٰ تصور في المذاهب المعاصرة التي تكافح الطبقية في المجتمع ، بل إنّ الكثير من هذه المذاهب لا تتحمل هذه النظرة .

وكتب إلى بعض عماله يهدده بالقتل لِما بلغه من أنّه اختلس من بيت المال ... « .. فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم اموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن إلى الله فيك ولاضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً الاّ دخل النار »* .

الخيانة الاقتصادية في الأموال العامة حكمها القتل عند علي ... إنّها مسألة فقهية .. اقتصادية .. حقوقية واجتماعية .

في عهد علي كان التساوي في الاستهلاك كما كان التساوي في العطاء ، والجميع شركاء في بيت المال .. فيما كان أول من فرّق في العطاء عمر .. فقسم عطاء الموظفين وغيرهم على أساس ضوابط معينة أدت الى اختلاف في الاستحقاقات وتفريق في العطاءات فصاح علي : « لو وصل الأمر إليّ لألغيت هذا التفريق واسترجعت الأموال حتى لو كان بعد حين » .

هذا هو معنى المساواة في الحقوق .. المساواة الدقيقة ، لا المساواة حسب الاستحقاق والسهام ! لا ..

(*) نهج البلاغة الكتاب ٤١ .

جاء عثمان بن حنيف ليأخذ عطاءه المفروض له في ظل قوانين الحكم الجديد (حكم علي) ... كان عطاؤه ثلاثة دراهم وعطاء غلام زوجته المعتوق ثلاثة دراهم أيضاً،عثمان .. والي الإمام على اليمن وأمير في جنده ، وشخصية صحابية بارزة .. عطاؤه ثلاثة دراهم .. ثلاثة دراهم .. (يعطيها الأغنياء لصبّاغ الأحذية أو منظّف السيارة) .

أخذها عثمان لأنه يعرف الوضع الجديد جيداً .. وضعها في جيبه ولم يلفظ ببنت شفة ثم رحل إلى محل إمارته (اليمن) .

١٣ ـ الإمام تتجلىٰ فيه الحقائق والقيم :

استلم الامام علي خلافة المسلمين ، وطلحة والزبير ينتظرون تحقيق أطماعهم وبعد حين لم يكن نصيبهم سوى الخيبة .. ولسان حالهم :

«كنا ضمن المرشحين وتنازلنا من أجل علي .. اشتركنا بفاعلية في مواجهة عثمان واسقاط حكومته وانما وصل علي للخلافة ببركة جهودنا وجهود امثالنا ولكن علياً لم يأخذ كل هذا بنظر الاعتبار وكأننا لم نكن .. لا ولاية ولا امارة ولا هدية !! » صبروا مدة من زمان لئلا يفقدوا السكينة والوقار ، ولكنهم وجدوا علياً ايضاً صابراً لا يفقد السكينة والوقار .. عجيب كلما سكتنا سكت ، وما دمنا لا نقول شيئاً فهو ايضاً كذلك ... حاولوا

الاستفادة من الوساطات وإيصال الخطابات السرية : « إنّنا بالانتظار .. » « أين حصتنا .. ؟ » « كيف ستعاملنا ؟ » يقولون ذلك بالكناية مرة والصراحة أخرىٰ ، يطالبون بالعوض عما قدموه ويرجون الاشتراك في أمور البلاد ... « لماذا لا تشاورنا في الأمر بناءً على قوله : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ ؟ المشاورة مشروع اسلامي نريد تحقيقه وليست لنا أغراض شخصية ، والإمام يداريهم حتى عرفوا اتجاه الامام السياسي حيث سمعوا ـ وهم المخاطبون ـ أنّ الإمام استلم بيت المال وعين له خازناً ، وحينما زاروه واشتغلوا باحاديث خاصة أطفأ الامام شمعة بيت المال وقال : الحديث خاص والحديث لا يحتاج إلى إضاءة فلماذا تحترق شمعة بيت المال ؟ ...

لم يرد الإمام أن يبدي صفحة التقدس الجافة وإنّما أراد الإشارة الى نكتة عميقة جداً .. اراد أن يقول لهم : اذهبوا .. هيا غادروا ولا تجلسوا مجلساً عاطلاً فلا يسعني أن أصرف قطرة من شمع بيت المال بلا مبرر شرعي .. الف عبد يعملون لك ولكن لا تجد شيئاً في ظل هذا النظام الحاكم .. اذهب وانت مشكور علىٰ سعيك واشتراكك في « اعتصام السقيفة » وعزمك على التصويت لصالحي في الشورىٰ .. انت من أقاربي ولكن لا علىٰ حساب بيت المال .. انصرف غير مطرود .. أنتما طلحة والزبير وأنا اعرف ذلك جيداً ولكن ليس لكما عندي شيء .. لا تنتظرا مني

شيئاً ..

قالا : نريد الخروج للحج فاذن لنا .. ولم يريدا الخروج للحج وإنّما أرادا إخراج عائشة ، والاستفادة من الوقت ومما تكنه عائشة من ضغينة لآل النبي ، ومن الواضح جداً أنّهما أرادا « التمرد » ولكنهما لم يتمردا الآن ومن حقهما أن يخرجا حيث شاءا ـ لانهما انسانان ـ وان خالفا علياً .. وعلي لا يحرمهما من هذا الحق ...

خرجا وأشعلا فتيل حرب الجمل فيما كان الإمام علي قادراً على حبسهما ومنعهما من الخروج وإطفاء نائرة الحرب ، ولكنه لو فعل ذلك لم يمنع اثنين من التمتع بحقهما ، وبالتالي التضحية بهما دون غيرهما بل كان عمله ذلك يعد هدراً لحق الإنسان .. الحق الذي يحميه الإمام علي ويدافع عنه .. لأن علياً لم يأتِ للوقوف بوجه المؤامرات وقمع الاعداء وإقامة الحكم وتدعيم قواعده ، وإنّما جاء ليصنع المثل ، ليبني النموذج الأعلى ، جاء ليكون إماماً ، وإذا قسنا عليّاً بملاك « الحكومة » و« السلطة » فلنا أن ننتقده على مواقفه هذه ، ولو كان علي يواجههم بالحبس والإقامة الجبرية لاعتبره التاريخ حاكماً مقتدراً وسياسياً موفقاً ناجحاً بيد أنّه امام .. والإمام يسعه أن يكون مغلوباً ولكن لا يسعه أن يصاب بالرجس مهما كان ضئيلاً ... فاذا توقف نجاحه على مصادرة حق ، فإنّ الإمام يتعامل معه بالشكل الذي يجعله تمثالاً مطلقاً للقيم السامية ... لابد أن يكون لوحة

لجميع الأجيال .. لابد أن يكون نموذجاً وقدوة ومثالاً .. لابد من تحمل مرارة الغلبة وما تجرّه من آلام ومعاناة له ولأسرته من أجل حماية ذاك الحق .. حق الفرد .. لابد من التحمل لئلا تتلوث يداه بإضاعة الحقوق والظلم .

لا ينبغي للإمام ـ باعتباره نموذج الحقيقة والقيم ـ أن يكون ضعيفاً وان مات في السجن وحيداً (الضعيف بمعنى الضعف الانساني) ولهذا عزل الامام علي معاوية فوراً ؛ لأنه ان لم يفعل ذلك بل تعامل معه بهدوء ومداراة ، ثم أمر فيما بعد جميع عماله أن يجتمعوا في موسم الحج ، وهناك أخذ معاوية أخذاً شديداً وبعث مكانه أحد رجاله من قبيل مالك الاشتر ، لسجل نصراً للامام ولاعتبر سياسياً ناجحاً ولقد شهد التاريخ مثل ذلك كثيراً ولكنه لم يشهد مثل علي قط ..

رشح الإمام علي في شورىٰ عمر لخلافة النبي ووراثة الامبراطورية الإسلامية وكانت ايران إحدى أقاليمها ، فمد رئيس الشورىٰ يده يبايع علياً نيابة عن بقية الاعضاء قائلاً : « أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه » ثم اشترط شرطاً آخر « وسيرة الشيخين » ...

وكان بامكان علي أن يقول : « نعم » ويرضى بالشرط ويصبح خليفة بعد عمر ويرث تلك الامبراطورية ، ويلي الأمر من بعده ابناؤه وذريته ، بيد أنه يرفض ويقول « لا » وإن أدّىٰ ذلك إلى انتزاء مروان

وكعب الأحبار على دفة الحكم، والعيش في ظل حكومة عثمان، بل ونفي أبي ذر والجلوس في البيت وحيداً بحيث لم يسمح له بتوديع أبي ذر وهو في طريقه الى المنفىٰ .. وحرمانه من الخلافة هو وذريته ... انه لا يقول «نعم» لأمر يرفضه ولا يؤمن به، وبهذا يؤسس طريقاً ويحدد نموذجاً أبدياً للبشرية ويبني إنساناً مثالياً للإنسان في كل زمان.

وهذا هو معنى الإمام في بعده الخالد السرمدي .. يبقىٰ إماماً بالرغم من كل شيء حتى لو غُلب .. حُرم .. أبيد هو وأسرته وأهل بيته .. فليكن ما يكون، فهو إمام يقود مسيرة البشرية وحركة الإنسان أينما كان ومتىٰ كان، ولهذا لم يتخذ طريقه نحو منصب الحاكم المنتصر الذي يمحىٰ ذكره بعد موته مباشرة، وإنّما اختار منصب الإمامة فصار جليس داره بعد رفضه وإعلانه كلمة « لا » ولكنه بقي حياً بعد موته، وها نحن نرىٰ حياته تترسخ كلّ يوم أكثر من ذي قبل ونشعر بالحاجة اليه اليوم أكثر من أي يوم مضىٰ .. وتتعطش اليه القلوب التي تحترم الإنسانية، والحرية، والعدالة، والطهارة والإنسان الكبير العظيم، والروح الجميلة النزيهة، وتثني عليه وتتخذه مثلاً أعلى تحتاج إليه في كلّ لحظة من لحظات حياتها.

١٤ ـ التنازل عن المصالح من أجل الحقيقة .. إلغاء الذات:

اشترك في معركة الجمل طلحة والزبير ...

طلحة كان يدعىٰ « طلحة الخير » ونسب في حقه رواية للنبي ﷺ أنه قال : « من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الارض فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله » ..

وأمّا الزبير فقد ذكرنا طرفاً من فضائله وذكرنا دفاعه عن النبي في أحد وانّه من السابقين ـ أي ضمن الخمسة الاوائل الذين أسلموا بعد علي ـ وبقي مع النبي في جهاده ٢٣ عاماً .

هؤلاء القوم سجلوا في تاريخهم أمجاداً واكتسبوا حيثيات ووجاهة شعبية ، وصاروا من الوجوه المقدسة في الاسلام ومن المقربين لدى النبي ... والآن جاءوا بكل خلفياتهم ليقفوا أمام علي مطالبين بولاية البصرة .. وعلي يرفض وهم لا يصبرون على ذلك ولم يتنازلوا عن ذواتهم وشخصياتهم ولم يتحملوا أن يكونوا « لا شيء » .

عائشة أمّ المؤمنين قطب المعارضة .. طلحة والزبير صحابيان محبوبان مهاجران ... مما حدىٰ بأحد أصحاب الإمام ان يسأل : لو لم يصالح هؤلاء ولم يرضخوا لحكمك فماذا انت صانع ؟

قال علي : أقاتلهم .

قال : وهل يمكن أن يكون طلحة والزبير وأمّ المؤمنين عائشة على الباطل ؟!

فاجاب علي جواباً صار بحق درساً للبشرية جمعاء : لا يُعرف الحق بالرجال ، إعرف الحق تعرفْ أهله .

قال طه حسين : « انها جملة وأصل لا يمكن لأي لغة من لغات البشر أن تأتي بمثلها » .

ثمة ضوابط ومعايير لتميز الحق والباطل ، والمفروض أن نقيس الرجال إلى تلك الضوابط ولا يهمّنا ـ من ثم ـ سوابق الرجال وخلفياتهم وأشكالهم وهيئاتهم .. من وافق موازين الحق قبلناه ومن خالفها رفضناه وليكن من يكون ...

وهذا يعني إلغاء الشخصيات وتحطيم قدسية الأفراد إلّا أن يدينوا بالحق ..

١٥ ـ النظرة الانسانية وحب الإنسان :

إنّ النظرة الإنسانية لدى الإمام علي بمستوىً من الوضوح والعمق في كلامه بحيث يعجز عن إدراكه وتصوره من يريد أن ينظر إليه من خلال القيم الإنسانية مجردة عن الدين ..

يقول فيمن يعيشون في ظل الحكم الاسلامي ولكنهم لا يدينون بدين الاسلام :

« دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا » .

وهذه العلاقة تختلف عن علاقة الحرب والقتال التي لمسناها في علي وهو يخوض ساحات الوغىٰ ، لأنّ المقصود هنا إلغاء التعصب الطائفي والتزمت الديني ..

ثم يقول : إنّهم صنفان : إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق* .

وكتب إلى أحد عماله يوصيه بأهل الذمة ويقول له : إنّ هؤلاء لم يكونوا على دينك ولكنهم رعيتك[1] فاعطهم حقوقهم قبل مطالبتهم بها .

ولما بلغه أنّ أذناب بني أمية اعتدوا على الحدود وهجموا على امرأة يهودية معاهدة ولم يدافع عنها أحد صرخ غاضباً في المسجد : « فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوما »** .

ونشاهد اليوم ما صنعه لنا مؤسسو لائحة حقوق الإنسان « ضحايا

(*) نهج البلاغة ٤٢٧ الكتاب ٥٣ (عهده عليه السلام لمالك الاشتر رضي الله عنه) .

(١) على العكس مما يدعيه الغرب حيث يقول : إن النظام الديني نظام يضطهد الإنسان ويعادي الإنسانية فالملاحظ هنا أنّ الدين إنساني أكثر بكثير من أنظمتهم العلمانية .

(**) « ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرىٰ المعاهدة فينتزع حجلها وقُلبها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع منه الا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم ولا أُريق لهم دم ، فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوما بل كان به عندي جديرا » نهج البلاغة ٧٠ خ ٢٧ .

الظلم والجنايات الإنسانية » (كما عبر جان بول سارتر وهو يخاطب اليهود) ورؤوس الديمقراطية والليبرالية والوجودية ، والثورة الفرنسية الكبرىٰ ولائحة حقوق البشر وما شاكل ..

شاهدنا ما صنعت أيدي هؤلاء لخدمة قرننا المعاصر وكيف تعاملوا مع المسلمين في عمليات تصفية الحساب معهم ، وكيف يعيش ملايين المسلمين في ذمة اليهود ، ويعانون يوماً بعد يوم من افظع الجرائم ويقمعون بقوة الحديد والنار .

* * *

تبيّن لكم ـ بناءً على ما سمعتم ـ أنّني لم اتناول البحث انطلاقاً من التعصب المذهبي ولا تقديس الشخصية ضمن إطار دين معين أو طائفة خاصة وانما اعتمدت على القيم الانسانية بمستواها المطلق السامي الرفيع .

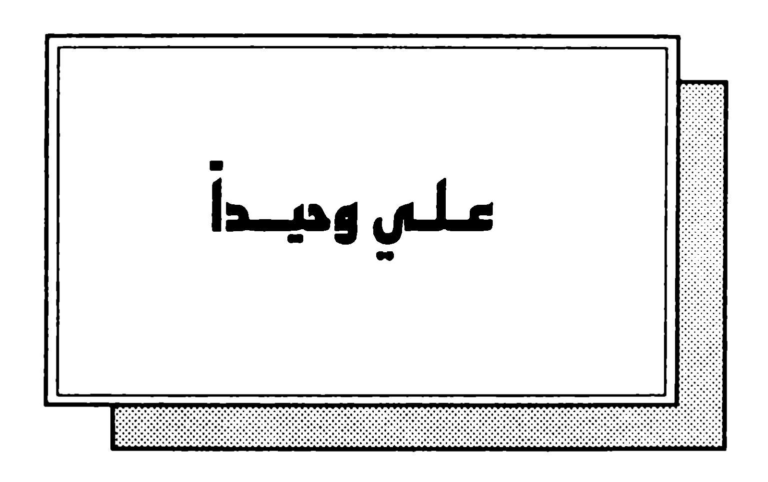
آسف جداً لضيق الوقت ، ولكني أودّ أنّ اختتم حديثي بكلمة واحدة :

الامام علي نموذج مطلق في جميع الأبعاد : عامل يعمل بيده كتمثال حي للطبقة العاملة ...

واذا ارادوا اليوم أن يصمموا نصباً للمزارع والعامل « البروليتاري »

فالمفروض أن ينحتوا تمثال علي ... العامل الذي كتبت يـده ذلك النـثر الجميل الرائع ، وبنفس تلك اليد كان يحفر الارض السبخة في المـدينة ويستخرج منها الماء .

والسلام


علي وحيداً

اعتذر أولاً من السيدات والسادة الحاضرين لأنني ارتقيت منصة الحديث عن علي وأنا في غاية العجز والخجل من موقفي هذا ، فمن أنا حتى أتحدث عن علي ؟! إضافة إلى أنّي لست خطيباً محاضراً ، وإنّما أنا معلم بسيط عادي مضطر ـ شئتُ أم أبيت ـ للحديث بلغة المعلم في الصف وقد لا يكون هذا الأسلوب ناجحاً لائقاً بمثل هذا الحفل العظيم .

بيد أنّي أعتقد أنّنا اليوم بحاجة إلى « التعليم » قبل كلّ شيء .. حتى قبل التبليغ .. نحن بحاجة إلى المعرفة العلمية ..

وقد وقع الكثير من المثقفين الواعين ـ خاصة في الدول الراكدة ـ في خطأٍ واضح حينما تصوروا إمكانية بناء أمة راقية حرة من خلال العلم والتكنلوجيا الحديثة وليس الأمر كذلك ، وإنّما البصيرة والوعي والعلم العقائدي والايدلوجي هي التي تمنح الأمة الحياة والحركة والقوة . ومَثَلُ إقحام العلم والتصنيع في مجتمع خاوٍ يفتقر إلى الإيمان والأيدلوجية تماماً

مثل غرس الأشجار الكبيرة المحملة بالفواكه الناضجة في غير تربتها وفي زمان غير فصلها .

ونحن اليوم لا نفتقد الإيمان وقوة الإيمان بل نفتقر إلى المعرفة الصحيحة والمنطقية والعلمية بالقضايا التي نؤمن بها .

ومن أعظم القضايا المطروحة في تاريخنا ومجتمعنا هما « الاسلام والتشيع » واكثرنا يؤمن بهما إيماناً قوياً ولكننا لا نعرفهما معرفة صحيحة ... وكمثال على ذلك : إننا نؤمن بعلي باعتباره إماماً ، رجلاً عظيماً بل اعظم رجل على وجه الحقيقة ، وباعتباره ممثلاً وجامعاً لكل مشاعرنا ومقدساتنا ، ولقد ظلت أمتنا على طول خط التاريخ ـ بعد الاسلام ـ تفتخر بأمجاد مديحه والثناء عليه ولكن ـ وللأسف ـ لم تعرفه بالمستوى المطلوب وكما ينبغي ، لأنها ركّزت علىٰ مدحه دون التركيز على معرفته ... ومن هنا أصبح لزاماً علينا اليوم أن نفتش عمن يتحدث لنا عن علي باعتباره قائداً ، إماماً ، إنساناً عظيماً ، قدوة وأسوة ونموذجاً يحتذىٰ به .

ولربما نجد في التاريخ القدر الكافي من مديح علي والثناء عليه ، ولعلنا نستطيع جمع مكتبة ضخمة من القصائد والمقالات والكرامات والمناقب التي أنشدت في علي أو قيلت فيه .

ولكن ـ وللاسف ـ أجد نفسي محرجاً حينما يسألني احد تلاميذي في عصرنا الراهن وفي بلدنا هذا ـ بلد علي ـ قائلاً : « هل ثمة كتاب أقرؤه

يعرفني علىٰ علي ؟ » أو يطالبني بمصادر يتعرف من خلالها على كلام علي ونظرياته وآرائه وأفكاره وأعماله فإنّي أبقىٰ حائراً لا أجد جواباً كافياً شافياً !.

إنّها شكوى أبثّها نيابة عن كلّ المعلمين بل نيابة عن كلّ الناس .. عتاب أتقدم به إلى علمائنا :

ماذا قدمتم من أجل التعريف بعلي تعريفاً صحيحاً لأمته وشيعته المحبين الذين بذلوا أرواحهم ودماءهم وحياتهم من أجل علي ومن أجل منهجه وطريقه ؟

لم تقصر أمتنا في عطائها ... ولكن علماءنا الذين يحملون علىٰ عاتقهم مسؤولية تعريف الامام علي هم المقصّرون .

المفروض أن يعرف الايرانيون أنصاف المتعلمين ، أنصاف المثقفين ، أنصاف العلماء علياً أفضل من أي شخص آخر ، واذا ما أراد باحث من محققي العالم أن يدخل مجتمعاً يعرف من خلاله علياً فالمفروض أن يدخل إيران ، واذا أراد أن يدخل مكتبة يقرأ فيها عن علي فالمفروض أن يدخل مكتباتنا ويقرأ مؤلفات علمائنا .

لقد بادرت أمتنا إلى مدح علي وآله وتعظيمهم وتقديسهم بالمستوىٰ المطلوب ولكني أريد أن اسأل ـ كفرد من افراد هذا المجتمع ـ

علماءنا وفضلاءنا ومفكرينا : لماذا لم تعرّفوا لنا علياً بشكل صحيح ؟

اذا سألني[1] أحد الطلاب الجامعيين عن « بتهوفن » الموسيقار الألماني[2] وطلب مني أن أساعده في مطالعاته عنه فبإمكانه أن يرجع إلى ثلاثة كتب ـ على الاقل ـ منهجية أكاديمية علمية جميلة إضافة إلى مئات المقالات والندوات والبحوث والمقابلات العلمية في حين أن بتهوفن لا يعني شيئاً بالنسبة لأمتنا ولا توجد ثمة ضرورة قصوى للتعرف عليه ونادراً ما تنسجم آثاره مع أذواق شعبنا ونادراً ما يفهمونها او يتفاعلون معها .

بيد أنّنا لا نجد كتاباً واحداً يمكن أن ندعي أنّه يعرّف هذا الرجل العظيم للطلبة بمستوى الجامعة أو دون ذلك وللمثقفين وقراء الكتاب ..

كله مديح وإطراء .. شعر وكلمات ثناء ولكن لا ندري من هو الممدوح وماذا يقول !!

من هو هذا الرجل الذي استحوذ على قلوب الناس وامتلك عواطفها طوال قرون متمادية من العذاب والمعاناة ، بحيث احتفظت الأمة بحبه سنين طويلة وتحملت من أجل ذلك ثمناً باهضاً ودفعت ضريبة قاسية في السجون والمعتقلات وأقبية التعذيب .. تحملت كلّ شيء من أجل أن

---

(١) ذكرت هذه الحقيقة في مقدمة كتاب « حجر بن عدي » فقالوا : ليس من المصلحة أن تكتب هذا !!

(٢) لم تلق معزوفاته وطريقته رواجاً في اوربا نفسها .

تبقىٰ مشاعل حبه ملتهبة في أعماق القلوب ونقلتها يداً بيد وجيلاً بعد جيل حتى وصلت إلى أيدينا ..

من هو هـذا الرجـل الذي تـخفق له القـلوب وتـنطلق له الألسـن بالمديح وتهيم الافئدة بحبه ؟

لا ندري .. لا نعرفه !! إنّه الالم .. المرارة .. الوجع .. لا ندري من هو !!

إنّه ألم ممض لأننا اليوم نحتاج إلى معرفة علي ، ومجتمعنا يحتاج إلى معرفة علي قبل أي قصيدة شعر تنظم في تبجيله وتعداد مناقبه وقبل كل مديح وتكريم وتعظيم أعمىٰ .. إنّنا اليوم بحاجة إلى معرفته قبل كل شيء حتى قبل محبته .. فالحب بلا معرفة لا قيمة له .. انما هو وثنية ليس إلاّ .. عبادة صنم ..

ألا ترون أن « العلي اللاهية* » ... يعظّمون علياً ويقدسونه أكثر من أي طائفة أخرىٰ ويحبونه ، بل يعتقدون أنّه يرسل الرسل ويبعث الانبياء الآ أنّ ولاءهم وحبهم وعواطفهم لا تساوي قرشاً واحداً ... لماذا ؟!

إنّ الامم جميعاً تكنّ هذا النوع من الحبّ لمعبودها وتطري عليه وتثني عليه هذا النمط من الإطراء والثناء .. كلّ الامـم تـعظم أنـبياءها ..

(*) وهم طائفة تؤلّه علي بن أبي طالب عليه السلام تعالى الله عما يشركون علوّاً كبيراً .

أبطالها .. مقدساتها وليس لحبهم ومديحهم وتقديسهم أي قيمة ولا أي وزن لأن القيمة والوزن للمعرفة .. للمعرفة ..

إنّما يكون علي قائداً ، إماماً ، منقذاً ، منجياً ، ويكون مذهبه روحاً للأمة ومنهجاً لها ومناراً وهدفاً في الحياة ونموذجاً لكمال الإنسان ، انما يكون ذلك كلّه بمعرفة مذهبه ومعرفة شخصيته لا بالحب فقط ، حب من لا نعرفه ! ، وذلك لاستحالة أن تعاني الأمة التي تعرف علياً معرفة صحيحة من أتعس صور الحرمان والعذاب الذي تعاني منه أكثر الأمم تخلفاً .

فاذا رأينا شيعة علي ممن يبكي عليه ويموج قلبه بحبه موجاً ثم يعاني من مصير أليم هو وأمته فهو لا يعرف علياً ، ولا يفهم التشيع وإن كان شيعياً في ظاهره .

حب علي بلا معرفة لا يعدو أن يكون كحب جميع الأمم لأبطالها .. فما قيمة حب علي وعلي مجهول .. يحب علياً ولا يدري من هو ؟ وما هو هدفه وماذا يقول وماذا يريد ؟ وينتسب للتشيع ولا يدري ما هي أصوله وما هو هدفه ومرماه وما هو منهجه وخطته ... إنّ هذا الحب والانتساب ليس له أدنىٰ تأثير على البشرية والامة وأفرادها والحياة .. علي المجهول يساوي أي إنسان أو بطل قومي آخر مجهول .. فالحب المجرد عن المعرفة ليس فيه قابلية ذاتية على الانقاذ وليس ثمة نجاة وإنقاذ الّا في المعرفة ... المعرفة هي التي تقود الإنسان إلى شواطئ النجاة والسعادة .

ونحن اليوم مكلفون بمعرفة الامام لا بمحبته دون معرفة ، وهذا لا يعني أبداً أنّي أعذل من يحب الإمام أو أرفض حبه ، وكيف يمكن أن يعرف أحد علياً ثم لا يهيم بحبه أو لا يلهج لسانه بمدحه والثناء عليه ؟! وهذا الحب المنبثق عن معرفة علي والمتبلور من خلال التعرف على كمالاته وجماله الروحي .. التعرف على الروح العظيم .. والعظمة .. وطهارة الانسان الكبير ونزاهته ... إنّ هذا الحب منجٍ .. منقذ .. وروح تحيا بها الأمة وحياة يعمر بها المجتمع ... هذا هو الحب المطلوب لا الحب الناشئ عن التلقين .. التقليد .. الوصف والتعظيم والتقديس والتأثر بالعبارات الشعرية والأدبية اللماعة والمستقرة في قلوبنا منذ الصغر عبر التوارث والانتقال جيلاً بعد جيل .. هذا الحب عقيم لا أظن أنّه ينفع ولا أظن أن علياً يكترث بمثل هؤلاء المحبين أو يهتم بمثل هذا الحب وهو القائل لأحد أمراء جيشه لما بالغ في مدحه : « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك* » وهو الذي ألقىٰ من أدّعى الربوبية فيه في أخدود النار كما نقل ذلك صاحب كتاب « الملل والنحل » .

وكذلك يكون الإنسان السوي حسب العادة ، حيث يحب من يعرف لا من يمدحه ويثني عليه وهو لا يعرفه ، وقد يتصور البعض أنّ محبة علي ترزقهم الشفاعة في الآخرة .. أما أنا فاعتقد أنّ المحبة اذا

(*) نهج البلاغة ، قصار الجمل ٨٣.

اجتمعت مع الجهل فلا تنفع في الدنيا ولا في الآخرة ، وذلك لأنّ الآخرة تقوم على نفس القوانين العقلية والمنطقية الحاكمة على هذه الدنيا .. فكما أنّ المحبة المتولدة من الجهل لا تعطي ثمارها في هذه الدنيا وتبقى عقيمة ليس لها تأثير ، فكذلك الأمر تماماً في عالم الآخرة حيث تبقىٰ عقيمة لا تأثير لها ولا ثمار .

❋ ❋ ❋

سأتحدث هنا خلال ليلتين عن موضوعين :

١ ـ « وحدة علي » .

٢ ـ « المغلوب المنتصر » .

إننا لا نرىٰ النصر الّا في الغلبة والانتصار ليس إلّا ، بيد أنّ علياً عليه السلام أعطانا درساً كبيراً جداً وهو كيف يكون المغلوب منتصراً ؟ ... « الانتصار في الانكسار » ...

علّمنا الامام علي كيف يقدّم الإمام أو القائد أو القدوة الانسانية درساً عملياً من خلال النجاح والفوز والنصر أحياناً ، ومن خلال قبول

أضدادها أحياناً اخرى .. علّمنا كيف يكون الإمام معلماً بالكلام مرة وبالسكوت أخرىٰ ... يتحدث فيقدّم الدرس في حديثه ويصمت فيقدم الدرس في صمته .

وقد أشرت في مقالة كتبتها عن أمير المؤمنين : أنّ نهج البلاغة يعد ثاني أعظم كتاب عندنا بعد القرآن ، ونحن لا نعرفه ولا نقرأه ولا ندري ما فيه تماماً كالقرآن الذي نقدسه ونقبّله ونتبرك به ليس الّا .

وهل ثمة فائدة تُتوخىٰ وتأثير يتوقع من التقديس والتعظيم ونحن لا نعلم شيئاً مما فيها ؟

وكذا الحال في تعاملنا مع الشخصيات العظيمة التي يمكنها أن تنقذ أمتنا ومجتمعنا وتنجي الاجيال القادمة ، نقدسها ونثني عليها ولا نعرف عنها أي شيء ! .

وذكرت في تلك المقالة أيضاً أنّ أغلب العلماء والمؤلفين والأدباء العرب المعاصرين ـ حتى من غير الشيعة ـ يقرّون بأنّ نهج البلاغة أجمل وأروع نص عرفه الأدب العربي ...

كلام إذا نظرت اليه بمنظار الأدب فهو في قمة الروعة والجمال والبلاغة ، واذا نظرت اليه بمنظار الفكر فهو في غاية العمق والمتانة ، واذا نظرت إليه بمنظار الأخلاق فهو نموذج مثالي ومنهج نموذجي ... يحوي

عبارات يذعن القارئ لها ويقرّ أن ليس لها مثيل ولا نظير في كلام البشر ... كلام علي وكفىٰ .

بيد أني أعتقد أنّ ثمة جملة أبلغ من جميع ما قاله علي مدة حياته .. تعبير واحد فقط أجمل وأعمق وأكثر تأثيراً ونفوذاً وقدرة على التعليم من كلّ تعبير وكلام قاله علي طيلة عمره .. تعبير واحد يتلخص في :

« سكوته ٢٥ عاماً ! » .

... ٢٥ عاماً من الصمت خاطب بها كلّ من يعرف علياً .. خاطب بها الإنسان كل الإنسان .. ٢٥ عاماً ثقيلة جداً ، صمت في غاية الصعوبة والمشقة .. يثقل بعبئه على صدر الإنسان .. وأيّ إنسان ؟! .. إنسان يتفجر عطاءً ونشاطاً وفاعلية اجتماعية .. وليس انساناً منزوياً معتزلاً راهباً منكمشاً ...

إن هذا الصمت .. إن هذا السكوت بذاته جملة .. عبارة .. كلام بليغ .

فالامام إذاً يتكلم مرة بحديثه ومرة بسكوته ، وأحياناً يقدّم دروسه حينما يكون منتصراً وأحياناً حينما يكون مغلوباً .

إنّه خطاب موجّه لنا .. ورسالتنا محددة وموقفنا واضح ايضاً :

نعرف هذه الدروس .

ونقرأ هذه الأحاديث .

ونستمع لهذا السكوت .

مرض التسطيح

وهنا ينبغي علينا أن نتناول قضية خطيرة .. وهي قضية الابتلاء بمرض التسطيح والالتواء والهامشية ، المرض الذي يصيب بعض المذاهب والأديان أحياناً .

فلسفة آنشتين لا يمكن أن تصاب بالتسطيح أبداً ، لأنّ موضوعها خاص يتعامل معه جملة من المتخصصين في الرياضيات والفيزياء ولا يتعدى إلى غيرهم ، وهؤلاء الرياضيون والفيزياويون يفهمون لغة آنشتين فهماً جيداً فلا يقدرون بعدها على مسخها أو تبديلها أو تحريفها . ولهذا تجد هذه الفلسفات والمذاهب بعيدة عن الإصابة بمرض التسطيح حيث تبقىٰ منحصرة في دائرة خاصة من المتخصصين بالمستوى الذي يسمح لهم إدراك الفلسفة وفهم رموزها .

هذا نوع من الفلسفات والمذاهب ، وهناك نوع آخر من المذاهب العلمية والاجتماعية تخاطب الناس وتتعامل مع الجماهير ، ولهذا تكون معرضة بسهولة للإصابة بمرض التسطيح وتعميق هذا المرض فيها .

ومن أهم آثار هذا المرض إساءة فهم المذهب وعدم الاخذ بمفاهيمه وحقائقه الواقعية أخذاً صحيحاً .

تعريف مرض التسطيح

مرض التسطيح عبارة عن تغيير فكرة ما وقلبها أو تغيير معالم شخصية ما وقلبها وصبّ الإنسان لها في قوالب فكره الضيّق وتلوينها بألوان عاداته وتقاليده وذوقه وتراثه الشخصي وخلفياته الذاتية ، بحيث يغيّر المذهب الجديد والفكرة الجديدة علىٰ أساس من خزينه الذاتي فيبدّل فيه كلّ شيء وهذا هو معنى « لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً »* .

ومن النماذج التي تعيننا على فهم المراد من مرض التسطيح :

نوع التعامل والتلقي والادراك الذي يتعامل به مع الشخصيات المبرزة في الدين والعظماء والكبار ، حيث إنّهم لا يُدرَكون من خلال القيم الواقعية للفرد والإنسان فنحن لا ندري لماذا صار علي عظيماً ؟ وحسبنا أنّه عظيم وكفىٰ .. نعم إنّه عظيم ليس إلّا .. نعلم أنّه كبير .. نعلم أنّه أرفع منا وأعلىٰ .. نثني عليه ، نمدحه ، ونهيم في حبه ... ولكن .. كيف ولماذا أصبح عظيماً ؟ ما هي الفضائل التي تحلّىٰ بها وما هو سر عظمته وأي عظمة اتسم

(*) من أقوال أمير المؤمنين علي عليه السلام .

بها ؟ وما هي القيم التي جعلته عظيماً ؟

لا ندري ..

لا ندري ؛ لا نقيّم علياً على أساس الملاكات التي يحددها علي بنفسه ويحددها مذهب علي ... لأننا لا نعرف الملاكات والضوابط أساساً! وإنما نعرفه من خلال تراثنا وتقاليدنا وسنتنا الموروثة وروح مجتمعنا المتوارثة جيلاً بعد جيل ، فنحصر كل فضائله في الكرامات والمعجزات وخوارق العادات ، ونقضي العمر في البحث عن تلك المعجزات والكرامات :

مثلاً : حين كان علي رضيعاً في القماط دخلت المدينة أفعىٰ وأخذت تهاجم الناس ، فأخرج علي يديه من حبل القماط وقتل الافعىٰ ! فعلي إذاً عظيم !!

وأنا لا أريد الآن إثباتاً ولا نفياً لهذه القصة ، ولكنكم تقولون إنّ علياً إمام بمعنىٰ أنني إن اتبعته نجوت وسعدت ، وتقولون إنّه قائد بمعنى أنّ المجتمع إذا سار على خطاه وانتهج منهجه واتبعه لادرك الحرية والتمدن والتحضر والتطور ، ولا أدري كيف أقتدي برجل كان يقطع الأفعىٰ من وسطها وهو رضيع ؟! .. كيف اقتدي به وانجو ؟! وكيف يمكن لأمّة أن تقتدي بمن يأتي بمثل هذه الأعمال المحيّرة للعقول .. كيف تتبعه ثم تصبح أمة متحضرة فيما بعد ؟! كيف ؟ كيف ؟ اما انا فلا استطيع أن أفهم ..

ولنفرض أنّ علياً جاء بمثل هذه المعجزة ، ولكن كيف امدحه واثني عليه حتىٰ أكون من أتباع علي واقعاً ، وأستفيد من علي ومذهب علي ؟ كيف اتبعه لتنطلق أمّتي في طريق التطور والتقدم ؟

لماذا ينحون هذا المنحىٰ ؟

لأنّ نظرة الإنسان الدينية خلال آلاف السنين كانت تتكرس في فكرة تقضي بأن هذه الدنيا الترابية التي يعيش فيها الإنسان دنيّة منحطة سافلة بل أسفل من كلّ شيء ، وأنّ ثمة أفلاكاً أخرىٰ أعلىٰ من هذه الأرض ، وكلما اتجهنا نحو السماء ترتفع الأفلاك سمواً وعلواً . وهكذا حتى نصل إلى عالم الملائكة وهو عالم علوي أسمىٰ من جنس الارض والانسان ، ويليه عالم الالهة أو عالم الله ، وهذه هي القيم الانسانية وما فوق الانسانية العظيمة التي آمنا بها على طول خط التاريخ البشري .

وبناءً على هذه النظرة يمثل الإنسان أسفل مرتبة ، وتأتي من بعده الملائكة ثم الآلهة او الله ، وتدخل هذه النظرة الإسلام فيُقيّم علي ويُقيّم الإسلام علىٰ أساسها تقييماً مقلوباً ، ونبادر نحن فنقيس عظماء هذا الدين ونتناولهم بالبحث والدراسة انطلاقاً من هذه النظرة المضادة للاسلام ، فنهيم بحبّهم ونثني عليهم ونقدسهم ومن ثم نعبدهم ومن ثم لا نجد أي

ثمرة ولا نلمس أي نتيجة[1].

ونلاحظ في فلسفة خلق الإنسان في الإسلام أنّ الله يقيم ـ بصراحة ووضوح ـ امتحاناً عظيماً، ويرتّب مجلس اختبار كبير فيعرض فيه الأمانة على السماوات والأرض والجبال والملائكة، حتى الملائكة المقربين، فيعرض عنها الجميع وينكصون ويحملها الإنسان، وحينئذٍ تصدر أوامر الرب لجميع الملائكة حتى الملائكة العظام أن يخرّوا إلى الارض ساجدين بين يدي الإنسان. ويدلّ هذا على أنّ الإنسان في الإسلام أعظم من الملك، ومقام آدم ومنزلة البشرية ومرتبة الإنسانية أعلى واشرف من مقام الملائكة حتى المقربين منهم.

وبناءً على هذا فإنّنا اذا أردنا أن نفكر تفكيراً إسلامياً، ونتحدث عن علي كمسلم يريد التحدث عن إمامه، وبكلمة واحدة إذا أرادت النظرة الإسلامية أن تتحدث عن علي فإنها سوف تنساق انسياقاً ذاتياً تلقائياً نحو

---

(١) كان السيد كرويج ـ أحد أساتذتي والعالم الاجتماعي المعروف ـ يقول: قضيت سبعين عاماً في علم الاجتماع وأنا في حرب مستعرة لا هوادة فيها مع مذهب الـ« استروكتوراليسم » (*STRUCTURA*) من مذاهب علم الاجتماع، وبعد كلّ هذه الفترة فتحت كتاب لاروس لأقرأ ما كتب فيه عن حياتي، وإذا بي أقرأ « إنّ السيد كرويج من أكبر مؤسسي مذهب الاستروكتوراليسم في علم الاجتماع »!

وهذه حصيلة جهودي ونتيجة عملي! فليكتبوا بعد هذه الجملة ما شاءوا وليمدحوا ما استطاعوا وليقولوا كرويج نابغة عظيم أو اكبر عالم اجتماع .. فلا فائدة ترتجى ولا ينفع ذاك شيئاً .. (انزلنا النص من المتن الى الهامش رعاية لاسترسال الحديث).

فضائل علي التي يحلم بها الإنسان السامي .. الإنسان الذي سجدت له الملائكة .. الإنسان المقرب أكثر من الملائكة والأعلىٰ والاشرف منها .

بيد أنّنا لسنا بهذا المستوى من الفهم والإدراك ، ولم تدخل بعد هذه النظرة إلى أذهاننا ولسنا قادرين على التفكير بهذه الطريقة ، لأنّنا حينما نريد الثناء على أئمتنا ونبينا وأكبر مقدسينا ننسب لهم صفات الملائكة ظناً منا بأنّنا اذا صعدنا بالإمام إلى مقام الملائكة رفعناه عن مقام الإنسان في حال أنّنا هبطنا به وأنزلناه من مقامه !

ولو أنّنا نسبنا جميع الكرامات الملائكية لائمتنا بل أثبتنا أنّهم من الملائكة المقربين عند الله فإنّنا ـ من زاوية نظر القرآن ـ نزلنا بهم عن مقام الإنسان وهبطنا بهم عن مقام آدم ، وليست كرامة نبينا وفضيلته وشرفه في أنّه لا ظل له باعتبار أنّ الأرواح والملائكة والموجودات الغيبية لا ظلّ لها ! ليست هذه فضيلة لنبينا ، ولا يعد عمل علي ذاك وبطولته تلك فضيلة من الفضائل ، لأنّ وجود مثل هذه الكرامات في علي يبلغ بعلي مقام الملائكة ، وعلي أشرف من الملائكة ، ومقامه أعلىٰ وأرفع بل لقد سجدت له الملائكة جميعاً .

اذن فلابدّ من البحث في شخصيته عن القيم الإنسانية لا القيم الملائكية ، ولما كانت نظرتنا لعلي نظرة غير إسلامية وتصوراتنا عنه تصورات جاهلية جعلناه وبقية قادتنا في صف الملائكة ، فلا يصلحون

والحال هذه للقيادة ، لأنّ الملك لا يقتدىٰ به ولا يمكن أن يتبع وبالتالي لا يمكنه انقاذ أمّة البشر ، والذي يقوىٰ علىٰ أداء هذه المهمة إنّما هو الإنسان الراقي السامي ، وهو علي لا غير .

ولكن ما هي القيم الإنسانية لدىٰ علي ؟ !

* * *

وحـدة علـي

وحدة علي .. قضية لم تشبع بحثاً لحد الآن بالمستوى المطلوب ، ولعلها من القضايا التي لم تتناول بالمستوى المطلوب .

وإنّ الإنسان مخلوق يشعر بالوحدة ، و« وحدة الإنسان » مشهودة بوضوح عبّرت عنها القصص والأساطير الإنسانية والمذاهب البشرية علىٰ طول التاريخ بأساليب وبيانات شتّىٰ ، وكلّها تؤكد علىٰ أنّ « معاناة الإنسان تتكرس في وحدته وغربته في هذا العالم » فما هي هذه الوحدة ؟!

وصدق اريك فروم إذ يقول : « الوحدة وليدة العشق والغربة » .

إنّ من يعشق معبوداً أو معشوقاً يشعر بالغربة تجاه الوجوه الأخرىٰ ، ولا يحلم بشيء قط سوى بذلك المعبود أو المعشوق ، وحينما يفقده يصبح

غريباً وحيداً ..

ومن يعيش غريباً عن الأفراد والأشياء التي تحيط به ويستولي عليه الشعور بعدم التجانس والانسجام معها يصبح وحيداً .. وكلما اقترب الإنسان من الإنسانية ازداد عنده الشعور بالوحدة ، ولهـذا نـلاحظ أنّ الأشـخاص الأعمق نظرةً وأصحاب الأرواح الممتازة العالية يعانون معاناة كبرىٰ مما يلتذ به عموم الناس ويمارسونه في حياتهم اليومية ، ونلاحظ أنّ الاشخاص كلما حلّقت أرواحهم وامتلكوا أفكارا سامية وقعت فواصـل ومسـافات بينهم وبين أممهم وعصورهم حتى يعيشوا الوحدة في زمانهم .

إذا قرأنا حياة العباقرة نجد أنّ أبرز صفاتهم شعورهم بالوحدة في زمانهم ... يعيشون مجهولين غرباء في زمانهم ، أجانب في أوطانهم ريثما يأتي القادمون في المستقبل فيعرفونهم ويفهمونهم ويدركون مستوياتهم وفنهم وآثارهم وأقوالهم .

لقد قرّرت جميع الفلسفات والمذاهب أنّ الإنسان موجود وحيد يعاني الوحدة ويقاسي آلامها ، وبمقدار ما يتكامل الإنسان وتتركز إنسانيته يبتعد عن العواطف والإحساسات والمشاعر المعتادة والممارسات اليومية المعهودة المكررة التي تحكم العامة ، ويصبح مجهولاً أكثر .

يبقىٰ وحيداً في المجتمع لأنه غريب عما يعرفه النـاس جـميعا ، ظامئ وأنهار المياه التي يشرب منها الجميع ويتلذذ بها تمر من بين يديه ،

جائع وهو يجلس على مائدة يأكل منها الجميع ويشبعون .. وهكذا كلما اقترب الإنسان من الإنسان العالي الذي ذكره القرآن بعنوان « قصة آدم » ، أوغل في الوحدة وأضحىٰ وحيداً غريباً .

وهل ثمة من لا يعيش وحيداً ؟ من ذا لا يعيش الوحدة ؟

من يعيش بمستوى الجميع ، يتلوّن بلون الزمان ، يصطبغ بصبغة الجميع ، يتفاهم مع الكل وينسجم مع كل شيء ، يلتئم مع مستوى الموجودات والواقع الموجود كيف كان وأينما كان وبأي مستوى كان ، يطبق نفسه مع اللحظة التي هو فيها . وحينئذٍ لا يشعر بالوحدة ، لا يشعر بالانفراد ، لا يشعر بأنه مجهول ، لأنه من جنس الجميع ومن سنخ الجميع واحد من الجماعة وفرد من افراد المجتمع ، يأكل مع الجماعة ، ويلبس ، ويتلذذ ، ويبني ، ولا يحس بأي نقص ، لأن الذي يشعر بالبون إنّما هو صاحب الروح الذي لا يشبع بما توفره له الحياة العادية والمجتمع والزمان .. يشعر بوجود شيء أكبر يتطلع نحوه .

تملأه مشاعر الهروب والانطلاق ؛ فإحساس الوحدة في المجتمع والغربة على وجه الارض ومشاعر العشق كلها تخلق فيه رد الفعل الطبيعي .. الفرار .. الهروب ، وتجره نحو المعبود الذي يتفاهم معه وينسجم .. تجرّه إلى المكان الذي يليق به ويناسب شخصيته .. تجرّه إلى المكان الذي ينبغي أن يكون فيه .

كلما نمت الروح ونضجت أصبح الشعور بالوحدة ومشاعر العشق أعمق وأشد وأدق ، تعذب أكثر وعانىٰ منها الإنسان أكثر .

ألم الإنسان ، ألم الإنسان الرفيع .. معاناة الإنسان السامي .. الوحدة والعشق ، ولهذا نرىٰ علياً ـ بمقدار ما نعرفه ـ هو ذات علي الذي يئن ويتضور ، هو علي الذي يصرخ دائماً .. سكوته يوجع .. حديثه يوجع .. هو علي الذي قضى عمره يضرب بالسيف .. قضى عمره بالحروب .. بالتضحية .. هو علي الذي خطط وخلق أمّة تستجيب لقدرته وتواكب جهاده ، وحين انتصر بنهضته كان يعيش بين أصحابه وأنصاره وحيداً ، حتىٰ رأيناه فيما بعد يتسلل تحت جنح الظلام ويترك المدينة في منتصف الليل ، ويدلي رأسه في فوهة البئر ليرسل أنينه ويبث شكواه ..

كلّ أولئك الأنصار .. رفاق السلاح .. العِشرة مع أصحاب النبي .. وغيرها لا تلتئم مع علي .. وعلي لا ينسجم معها ، وليس ثمة تفاهم بينه وبينها .. علي ليس بمستواها .. وهو يعاني من ألم .. يريد أن يبث شكواه .. يبوح بما في صدره .. يقول كلمته .. ولكن لا توجد أذن تسمع ولا قلب يعي .. ولا تجانس ولا سنخية .

يثرب .. المدينة التي أُسست وقامت بسيفه وحديثه .. لا يجد علي فيها من يعرفه ، يخرج في منتصف الليل متوغلاً في غابات النخيل المحيطة بالمدينة ، فيلتفت يميناً وشمالاً يفتش في أحشاء الليل المظلم

المترقب الواجف لئلا يراه أحد أو يحس بوجوده !

يا له من ألم فظيع ومعاناة كبرىٰ أن يرى الإنسان عظمته وشخصيته محاصرة في قوالب الأفكار الضحلة القصيرة ، وماثلة في دائرة النظرات السافلة الهابطة ، ويرىٰ عواطفه وأحاسيسه في أرواح ضئيلة ملوثة غاية التلوث ..

إنّ روحاً كهذه إذا صارت في مثل هذا الوضع تبقىٰ دائماً وأبداً متوجسة خائفة لئلا تطلع عليها تلك النظرات البائسة ، لئلّا تنالها تلك الأرواح وتلك الأذهان .. إنّها روح تبتعد عن النظرات ، لا تريد أن تُرى أو تُدرك أو تعرف من قبل الأرواح المحدودة والنظرات الضيقة . تماماً كما قال أحد الكتاب :

« إنّ الأُسود لا تئن في النهار » .

لا تئن الأُسود أمام عيون الثعالب ، لا تئن أمام عيون الذئاب ، لا تئن أمام عيون الحيوانات ... تعض على الجراح وتصمد لأفظع الآلام وتحتفظ بصمتها ووقارها وعظمتها ولا تبكي إلاّ إذا جنّها الليل : يغوص بعد منتصف الليل في غابات النخيل .. لا يوجد هناك أحد .. والناس جميعاً يغطون في نوم هانئ مريح .. ليس ثمة ألم يؤرّقهم ولا معاناة تضطرهم لإحياء الليل ، وهذا الرجل الوحيد يجد نفسه وحيداً على وجه الارض ، غريباً عن الارض والسماء ، لا يربطه بهذا المجتمع وهذه المدينة سوى

واجبه الشرعي ورسالته ، ولهذا يبقىٰ على اتصال مستمر بالأمّة استجابة للواجب والمهمة الملقاة على عاتقه ، يعيش مع الناس ولكنه حينما يستبطن نفسه يجد نفسه وحيداً فيخرج إلى غابات النخيل خائفاً مترقباً لئلا يُرى بتلك الحالة ، فالأسود تبكي لوحدها في الليل .

ويدفع برأسه في حلقوم البئر ويبكي ، لئلا تسمع نشيجه آذان الأذهان البالية ، ولا تلوثه نظرات العيون الملوثة .

وممن يبكي ؟

يا للحسرة إنّ بكاءه ظل لغزاً معمىً علىٰ الجميع .. لم يفهمه أحد حتىٰ شيعته لا يعلمون لماذا كان يبكي ! .

هل يبكي لغصب خلافته ؟ هل يبكي لحرمانه فدكاً ؟ هل يبكي لاستلام فلان مقاليد الأمور ؟ هل يبكي لمنصبه الذي أفلت منه ؟ هل يبكي ... ؟ هل يبكي ... ؟

روح وحيد في دنيا غريبة عنه ، يعيش دائماً في مجتمع ما استطاع يوماً أن ينزل بنفسه إلى مستواه ولا إلى مستوى الاسلام القبائلي الذي يدين به أصحابه ، وما استطاع تطبيق نفسه مع تلك الحدود والقيود والنوازع والميول والأنانيات والمستويات المتدنية لأصحاب النبي في فهم الاسلام ...

ولهذا بقي وحيداً ... وأخذ يئن أنيناً ...

وكما تقول الفلسفات ، فإن عليّاً يئن لأنه إنسان ولأنه وحيد . وهذا ما تؤمن به الأديان ، ويؤمن به رجل كسارتر يكفر بالدين ويلحد بالله ويعتقد أنّ الإنسان نسيج خاص وقطعة فريدة تختلف عن باقي الموجودات باعتبار أنّ الموجودات بأكملها مسبوقة الماهية على الوجود عدا الإنسان فان وجوده يسبق ماهيته ...

سارتر الكافر بالله يعتقد أنّ الإنسان عنصر ممتاز يفوق العالم المادي ويختلف عنه ويعتقد أنّ الإنسان كلّما ترفع وابتعد عن مرحلة الحيوانية والضروات الغريزية التي تفرضها عليه الطبيعة يشعر بالوحدة في هذه الطبيعة ، ويشعر بالجوع والظمأ اكثر فاكثر ، وعلي إنسان مطلق .

علي هو الإنسان الوحيد الذي مثّل قمة البطولة في مختلف الأبعاد ، حتى في الأضداد التي لا يمكن أن تجتمع في فرد واحد :

فهو يعمل كعامل بسيط يحرث الارض بيده ويسخّر قبضته وساعده ليشق قناة الماء في تلك الارض القاحلة والرمضاء الحارقة في عصر لا تتوفر فيه الادوات والآلات ، وهو كذلك يفكر كحكيم حاذق ، ويعيش ويحب كعاشق كبير وعارف كبير ، ويضرب بالسيف كبطل ، ويقود كسياسي ماهر ، ويقدم القدوة والأسوة للمجتمع في الفضائل الأخلاقية كمعلم أخلاق ، وهو أب مثالي ، وصديق وفي جداً ، وزوج نموذجي ...

ومن البديهي أن يعيش إنسان كمثل علي وبهذا المستوىٰ وحيداً في هذه الدنيا . يعيش في مجتمعه وبين أصحابه ورفاق سلاحه ودربه الذين قضىٰ معهم عمراً من العمل الدؤوب في سبيل العقيدة وقد اشتركوا جميعاً في الجهاد والذب عن رسول الله ﷺ ... آمنوا بما آمن به نبيّهم ، بيد أنّهم لم ينسوا القبيلة ولم يغفلوا عنها وهم في ذروة الإيمان والاخلاص للعقيدة والإسلام ... لم ينسوا ذواتهم وأنانياتهم .. لم يتخلصوا ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ من أحلام المناصب التي كانت تراودهم .. لم يبلغوا حد الإيمان المطلق والاخلاص المطلق الذي بلغه علي عليه‌السلام ... فهو يعيش وحيداً بين ظهراني أصحابه ورفاقه الذين عاشوا معه سنوات متمادية يشاركونه في العقيدة والطريق ويقاتلون في صف واحد من أجل ما آمنوا به ...

علي ضحية قرابته من رسول الله ؛ لأنّ روابط القبيلة أقوىٰ في المجتمع العربي القبلي من روابط الإسلام : لا زال المجتمع يعيش الروح القبلية ولا يمكن تحمّل اجتماع النبوة والإمامة في بيت واحد .. لا يتحمل ـ شعورياً أو لا شعورياً ـ أن يرى النبي من بني هاشم وخليفته من بني هاشم أيضاً .. اذن فلا يبقي شيء لبني تيم وبني عدي وبني زهرة .. وعما قريب سيأفل نجم هؤلاء الـ « بني » ويندثر هؤلاء « الابناء » !

إنّ المؤرخ وعالم الاجتماع يفهم تماماً ماذا أقول .

إذن ، فقرابة علي من النبي إحدىٰ العوامل التي جعلت من علي

ضحية وجعلته وحيداً . ولو لم يكن من آل النبي لكانت فرصته أكبر ولحالفه الحظ أكثر فأكثر ..

لم تكن ثمة أواصر تربط علي بالمجتمع اليثربي سوى تلك الضربات التي سددها بسيفه من أجل الحق ، والمعاناة والأخطار والأهوال التي خاضها من أجل الحقيقة .. وهذه الضربات هي التي تركته وحيداً ...

إذن فعلي وحيد في المدينة .

❋ ❋ ❋

والأكثر إيلاماً من ذلك أن يعيش علي وحيداً حتى بين أتباعه ومحبيه .. إنّه وحيد حتىٰ حينما يكون بين عشاقه ومريديه وأمّته .. إنّه وحيد في أمّته التي كرست كل حبّها وعشقها ومشاعرها وأحاسيسها وتراثها وتاريخها في علي ، ونسبت كل وجودها اليه ... يقدّسونه كأعظم بطل ويعبدونه كمعبود واله ، ولكنهم لا يعرفونه ولا يعلمون من هو .. ولا يحسّون بألمه ولا يشعرون بمعاناته ، ولا يسمعون كلامه ، ولا يدرون لماذا تكلم ولماذا سكت ؟!

إلى يوم الناس هذا لا يوجد عندنا نهج البلاغة باللغة الفارسية يقرؤه الناس ... كيف تكون الوحدة إذن ؟!

يمكننا أن نعدد خمسة عناوين لأعمال الكاتب المسرحي برشت

مترجمةً إلى الفارسية أروع ترجمة ، وكذا الامر بالنسبة إلى كتاب عاديين آخرين من جميع أنحاء العالم تجد آثارهم مترجمة بأقلام جميلة ومطبوعة بطبعات أنيقة ومتوفرة لكل طالب ، وبعد إنصرام قرون عديدة لا زلنا نفتقد إلى حديث علي باللغة الفارسية بحيث يمكن أن يقرأه جيلنا ويفهمه ، ولا زالت الأمّة التي منحت كلّ وجودها في سبيل حب علي لم تستمع إلى كلمة واحدة من كلمات علي ولم تفهمها فهماً صحيحاً .

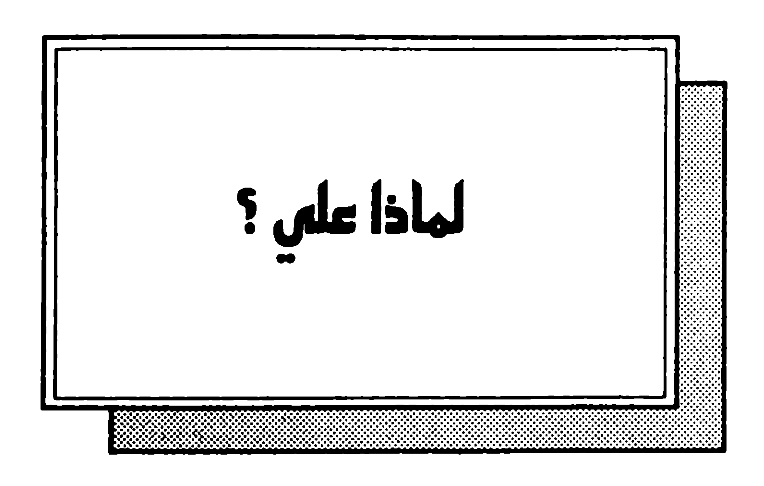
وبهذا يبقىٰ علي وحيداً وهو بين أتباعه ومجهولاً وإن بلغ المدح به الذروة والثناء له القمة .

❋ ❋ ❋

عانىٰ علي نوعين من الألم : أحدهما ألم الجرح الذي أحدثه سيف ابن ملجم لما هوىٰ علىٰ أمّ رأسه ، والآخر هو الألم الذي جرّه في منتصف الليالي الحالكة الخرساء إلى أعماق غابات النخيل المحيطة بالمدينة ..... هناك وحده ، ونحن نبكي لألمه الذي يحس به من جراء ضربة ابن ملجم ولكن عليّاً لا يعاني من هذا الألم .. ليس هذا هو ألم علي ..

الالم الذي يعاني منه علي بحيث اضطر تلك الروح الكبيرة إلى الأنين إنّما هو ألم « الوحدة » .. ألم « الوحدة » .. الألم الذي لا نعرفه نحن .

لابدّ أن نحس بهذا الألم ونعرفه .. لابدّ أن نعرف هذا الالم لا ذاك ؛ فعلي لا يحس بألم السيف و... نحن لا نحس بألم علي .. لا نشعر بمعاناة علي .


لماذا علي ؟

أسفاً ... هذه الليلة ليلة عظيمة مباركة وأنا في وضع لا يساعد على الحديث عن علي عليه السلام في مثل هذه الليلة وفي مثل هذا الاجتماع ؛ ولهذا سأبدأ حديثي بسؤال يقول : « ما هي الحاجة لعلي ؟ وما هي الحاجة اليوم لمعرفة علي ؟ » .

وإنّي إخال أنّ هذا السؤال لا يصدر عن شيعة علي لأنهم ـ خصوصاً الشيعة المعاصرين ـ لا يواجهون هذا السؤال ؛ وذلك لأن عليّاً إمام ، قائد ، فلابدّ إذاً أن يعرف ومن البديهي أن نحتاج اليه .

فلنفترض أنّ شبابنا ومثقفينا وروح عصرنا يتقدم بهذا السؤال ، إمّا لنفسه أو لمن يتحدث عن علي عليه السلام . وسوف أجيب على هذا السؤال ...

ولا اريد أن أجيب المؤمنين بعلي باعتبار تشيعهم بل ولا المسلمين أيضاً ، وإنّما اريد أن أجيب كل فرد أينما كان سواء كان شيعياً أو غير

شيعي ، مسلماً أو غير مسلم ، مؤمناً أو غير مؤمن ، فليكن من كان بشرط أن يكون إنساناً يتحمل المسؤولية اليوم من أجل الإنسانية والعدالة والحرية ويؤمن بالاصول والقواسم المشتركة بين جميع أحرار العالم والواعين من أبناء هذا العصر ... يكفي أن يكونوا أحراراً : أحراراً ، متديّنين أو غير متديّنين ، تماماً كما قال الحسين لأعدائه : « إنْ لم يكن لكم دين .. فكونوا أحراراً في دنياكم » ..

أريد أن أخاطب اليوم كلّ الاحرار .. كلّ إنسان حر يؤمن بالقيم الإنسانية ويرتضيها وأقول له : ما هي الضرورة والحاجة الماسة لمعرفة علي ، خصوصاً إذا كان هذا الحر إنساناً واعياً مثقفاً يعيش في المجتمع الإسلامي وفي الشرق بغض النظر عن معتقده ومسلكه ومذهبه . فمعرفة علي اليوم حاجة ماسة للواعي المسؤول في الأمّة الاسلامية أكثر من أي وقت مضىٰ ، وهذا على العكس تماماً مما يتوهمه بعض المثقفين من « أنّ علياً شخصية تاريخية عظيمة ، مضى وقته وانصرم زمانه وصار من التراث ، أما اليوم فقد تغيّر الإنسان وتغيّرت تبعاً لذلك أهدافه وغاياته وعواطفه وإحساساته فلا فائدة من استعراض حياته من جديد والتحديق في معالم وجهه ومحاولات استكشاف شخصيته فذلك اجترار للماضي القديم ليس إلاّ » ..

كلا ليس كما يتصور هؤلاء فالبشرية اليوم أحوج ما تكون لمعرفة

الإنسان الذي يدعىٰ علياً، سيما المثقف الواعي المتورط في العمل داخل صفوف المجتمع الاسلامي.

وقد قلت مراراً وها أنذا أكررها مرة أخرىٰ: إنّ إنسان اليوم يحتاج إلى «معرفة» علي لا إلى «حبه» فالحب بلا معرفة لا قيمة له ولا وزن بل هو ملهاة مخدرة ومثبط يعطل الإنسان.

والذين يشغلون الناس باسم محبة علي والعشق للمولىٰ دونما معرفة وفهم دقيق وصحيح لأهدافه وأقواله وتعاليمه فهم لا يدمرون الإنسانية والحرية والعدالة فحسب، وإنّما يبيدون هذه الشخصيات العظيمة العزيزة أيضاً، فيبقون شخصية علي مجهولة في الظل تحت مظلة التعظيم والتقديس العقيم، وبالتالي يبقىٰ محبوا الإمام الأوفياء إلى آخر عمرهم بعيدين تمام البعد عن الإمام، لا ينتفعون ابداً بتعاليمه وإرشاداته وأقواله، فيتوقف نموهم وينحدرون نحو الانحطاط والجمود، واذا كان ثمة جماعة تجمع بين الحب وشيء من الوعي والثقافة والاطلاع على عالم اليوم فإنّهم يتركون هذا الحب الخاوي العقيم ويتركون عليّاً الذي لا ينفعهم!! بحثاً عن شخصيات أخرىٰ وقدوات وقادة جدد يحققون لهم طموحاتهم.

حب علي بعد المعرفة يمكن أن يؤدي دوره في إنقاذ البشرية

وإسعاد الإنسان[1] .

يقول الدكتور جورج جرداق ـ وهو أكبر إنسان عرّف عليّاً اليوم على

---

(١) أقول هذا وإن كنت أعلم أنّ ثمة جماعة ستشيع أن فلاناً قال « إنّ حب علي عقيم لا فائدة فيه » ويقتطعون هذا المقطع ويحذفون ذيل كلامي كما فعلوا معي في إحدىٰ كتبي حيث كتبت : « لو لم يكن علي ولم تكن حكومته لكان النظام السياسي والاجتماعي زمن ابي بكر وعمر ـ بالمقارنة إلى أنظمة القياصرة والأكاسرة ـ أفضل نظام عرفه تاريخ البشرية ، وانما ندين هذه الحكومات لاننا نقارنها بحكومة علي ونقارن رموزها بشخصية علي ومن ثم ندينها بحق » هذا ما كتبته ثم سمعت فيما بعد أنّهم نقلوا عني القول بهذه الصورة « إنّ فلاناً يقول : إنّ حكم أبي بكر وعمر أفضل حكم شهدته الدنيا بأسرها » فلما سمع الحاضرون قالوا بصوت واحد « الا لعنة الله عليه كيف تحدث بهذا الحديث » !

ولا أدري لماذا يتحدثون دائماً مع العوام الذين لا يعرفون المسائل العلمية ويحرضون عواطفهم الجياشة القوية ؟!! إنّ هذا البحث بحث علمي ، وإذا صدر عني اشتباه أو خطأ فالمفروض أن يصحح في حوار ونقد علمي .

تناولت بحثاً في كتاب « إسلام شناسي » [معرفة الاسلام] وقلت فيه : إنّ أساس معرفة المجتمع في التاريخ وفلسفة التاريخ يقوم على عدة اصول :

١ ـ الشخصية والقائد ، ٢ ـ الناس ، اي حشود الجماهير ، ٣ ـ السنة أي القانون الاجتماعي وقانون التاريخ ، ٤ ـ الظروف الاجتماعية التي لم تحتسب وهي وليدة قوانين علمية أخرىٰ . وهذه الأسس الأربعة عوامل أساسية مهمة تحرك التاريخ وتفسر الحركة الاجتماعية .

وهذا بحث علمي وقد يكون مخطئاً ، بيد أنّي سمعت فيما بعد أنّ رجلاً جمع ـ هنا في مشهد ـ بعض السذج المساكين وأخذ يحرضهم : أن أيها الناس إنّ فلاناً كتب في كتاب له أنّ أساس التاريخ والمجتمع والحياة والدين يقوم على « الناس » ! وهؤلاء المساكين قريبون من افغانستان فتبادر إلى أذهانهم .... [انزل النص من المتن رعاية لتسلسل الحديث ، و« الناس » مادة مخدرة ونوع من الأفيون اشتهر استعماله في شرق إيران وجنوبها وأفغانستان والهند] .

المجتمع البشري ـ في كتابه « الامام علي صوت العدالة الإنسانية » :

« أيها الدهر ، ليتك كنت تجمع كل ما أوتيت من قوة .. وأنت أيتها الطبيعة ليتك تجمعين كل قواك ومواهبك لخلق إنسان عظيم .. نبوغ عظيم .. بطل عظيم .. ومن ثم ليمنح الوجود مرة ثانية رجلاً كعلي » .

مؤلف هذا الكتاب طبيب مسيحي ، وفي هذا دليل علىٰ أنّ علياً لا يثمن ويقيم في إطار فرقة من الفرق وطائفة من الطوائف فقط ، بل إنّ كلّ إنسان يؤمن بالقيم والمفاهيم الإنسانية فهو يؤمن بعلي ، وإنّ أي عصر وأي نهضة تؤمن بهذه القيم وتجاهد من أجل هذه الأهداف فهي تحتاج علياً وتحتاج الىٰ معرفة علي . ومن البديهي أنّ من يعرفه يهيم في حبه ، وهذا الحب بنفسه سيكون أكبر محرك وأضخم طاقة وأقوىٰ قوة تنتشل الإنسان إلى ساحل النجاة .



مراحل حياة الامام علي عليه السلام

يمكننا تقسيم حياة الامام علي إلى ثلاث مراحل محددة ، تشكّل كل مرحلة منها فصلاً من حياته عدا فترة الطفولة لانها وان كانت مؤثرة في الشخصية ومهمة جداً الا أنها لا تعد ذات اهمية من ناحية الدور والتأثير

الاجتماعي ..

ثلاث فترات مستقلة وثلاثة فصول محددة بعناوينها تكوّن حياة علي :

المرحلة الاولىٰ : وتبدأ من بعثة النبي :

لقد شارك الامام علي نبي الإسلام منذ البعثة وانطلاقه بالدعوة ، حيث كان يتبعه ويخطو معه خطوة بخطوة وحتىٰ اللحظة الأخيرة من حياته حينما فاضت روح الرسول على صدر علي ورأسه في حجره ... وكان علي يعيش في بيت رسول الله ﷺ وقد سمع معه الوحي حينما نزل أول ما نزل علىٰ النبي ...

ودامت هذه الفترة ثلاثاً وعشرين سنة (ثلاث عشرة في مكة وعشراً في المدينة) وكانت الفترة المكية جهاداً من أجل تدعيم الأهداف وترسيخ الأفكار والإعلان عن الشعارات الدينية وبناء الفرد المسلم .

ولا زال هذا البحث مطروحاً على طائلة الحوار : إنّ الحركة والنهضة هل يجب عليها أولاً أن تصنع الافراد لتنتج المجتمع الصالح ؟ أو يجب عليها أن تبني المجتمع الصالح أولاً لينتج الافراد الصالحين ؟

والبحث بكلا صورتيه خطأ ، فكيف نستطيع بناء مجتمع صالح من أفراد غير صالحين ؟ هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ ، فإنّنا إذا أردنا أن نصلح

جميع أفراد المجتمع أولاً فان المجتمع الفاسد لا يسمح لنا بذلك أبداً ولا يبقىٰ مكتوف الأيدي أمام هذا المد ، ومراكز القوة الاجتماعية لا تقف موقف المتفرج أمام عملنا في بناء المجتمع فرداً فرداً .

وبالرغم من ذلك فإنّ كلا الفكرتين صائبة : بمعنىٰ أنّ الرسالة والقائد يبنيان الأفراد في مرحلة من المراحل بناءً رسالياً فتتكوّن عصبة اجتماعية ملتزمة بالمبدأ وناضجة على أساس التربية والبناء المبدئي ، وخطّ فكري ثوري وبهذا تنتهي مرحلة البناء الفردي . وفي المرحلة الثانية تنطلق هذه الجماعة الفكرية الاجتماعية العقائدية فتغيّر المجتمع وتقيم نظاماً وهدفاً وحكومة جديدة على أساس مبادئها وحينئذٍ ينطلق المجتمع في بناء الأمة .

اذن فالمرحلتان اللتان مرّ بهما الاسلام (ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة) كانتا خطوات مدروسة تماماً ، ولم تكن الهجرة وليدة الصدفة المحضة ... ثلاثة عشر عاماً شكلت المرحلة الأولىٰ التي بنىٰ فيها الاسلام أفراد المسلمين فرداً فرداً ، وصنع فيها الإنسان المعتقد الملتزم ذا التفكير السليم . وبدأت هذه الأقلية ـ المهاجرون ـ المرحلة الثانية وهي مرحلة بناء المجتمع السليم ، ومن هنا نعرف أنّ مكة تمثل في الإسلام مرحلة البناء الفردي والمدينة مرحلة البناء الاجتماعي .

وكان علي في كلا المرحلتين وعلىٰ مدىٰ تلك السنين منذ اللحظات

الأولى للبعثة وحتىٰ وفاة النبي شريك الرسول في الهم والعمل ، يتقدم ركب المجاهدين ويرمي بنفسه في لهوات الأخطار ويمضي قدماً في أشد الأهوال .

وتنتهي هذه الفترة من حياة علي بموت الرسول وتنطوي مرحلة البناء الرسالي أي مرحلة ترسيخ الرسالة في ذهن الأمّة وتربية المجتمع على أساس الرسالة وبعث الدين وإيجاد الإيمان في وجدان الزمان وتشكيل النواة الاجتماعية العقائدية ، وبكلمة واحدة الجهاد من أجل الهدف المرسوم .

هذا هو الفصل الاول من حياة علي .. ثلاثة وعشرون سنة أولىٰ في حياة علي .. ثلاثة وعشرون عاماً من الجهاد من أجل الرسالة .

وبعد وفاة النبي مباشرة تغيرت المواقف وتغيرت القيادة ، وبرزت على السطح القوىٰ والخطوط الكامنة داخل التيار الواحد التي اختارت الصمت خلال فترة الجهاد العام من أجل الرسالة .. طفحت على السطح جملة من الأجنحة والقوى الداخلية المتربصة المختفية داخل اروقة الحزب .

وعندها بدأ صمت علي .. سكوت بمعنىٰ أنه لا يقدر على الصراخ ؛ لأنه رأىٰ ـ فجأة ـ أنّ أصحابه الذين كانوا إلى جنبه والمقربين لديه من أصحاب النبي ممن قاتل ثلاثة وعشرين عاماً معه ومع الرسول في صف

واحد من أجل إرساء قواعد العقيدة ، يقفون الآن أمامه ويشكّلون جبهة ضده .. لم يكونوا عكرمة وأبا جهل وأبا سفيان وأضرابهم ، وإنّما كانوا أخص خواصه وخواص النبي ... والحرب ضد هؤلاء وصدّهم يعني إبادة الشخصيات الكبيرة ، فيما كانت الظروف في ذلك اليوم تسير بشكل تتجمع فيه خيوط القوة والوحدة الاسلامية بيد أولئك وتتركز في شخصياتهم ..

وقد سارت الأحداث وتشكيلة الأجنحة والاختلافات الأسرية والقوى الداخلية في الإسلام بشكل معقد جداً ، حتى كان أولئك الذين واجهوا علياً العقدة الاصلية في التركيبة الاجتماعية في الوسط الإسلامي ، فعلي لا يجرد سيفه ضدهم وإن سلبوا حقه ، لأنّ تجريد سيفه يعني القضاء عليهم أو القضاء عليه ، وبالتالي القضاء علىٰ وحدة القوى الاسلامية الفتية وتبديد مركزية القدرة الاسلامية في المدينة وإبادة القوة التي ضربت أطنابها على سماء المدينة فأخرست القبائل المنافقة والقوات النظامية التابعة للامبراطوريات الجائرة في الروم وايران ، وحينئذٍ تكتشف هذه القوىٰ تآكل القوة الاسلامية داخلياً وتنتبه للصراع القائم بين الشخصيات والقيادات ومراكز القوى وما يجر إليه من التصفيات بين الأطراف فتطمع في الهجوم على هذه القوة المتهاودة وضرب المركزية المتداعية .

« الوحدة الاسلامية » توقفت على جماعة انتهزوا الفرصة وأساءوا

الاستفادة منها في سبيل حماية مناصبهم والدفاع عن مقامهم ، وبهذا بدأ سكوت علي .

سكوت دام خمسة وعشرين عاماً ... خمسة وعشرين عاماً من السكوت ، سكت عنها ـ للأسف ـ الشيعة وعلماء السنة معاً ، مما أدىٰ إلى إبهام هذا السكوت الذي يكشف عن عظمة علي ويحكي عن أكبر شهامة وتضحية امتاز بها علي .. سكوت يعبّر عن حقانية علي وتقديسه للحق ... سكتوا عن سكوت علي فبقي هذا الموقف العظيم غامضاً في أذهان الناس وأفكارهم ...

كم كرر شيعته قصة مبيته على فراش النبي وأشادوا بهذا الموقف وهي تضحية كبيرة بالفعل ولكنها لا تقاس إلى عظمة علي ... وبالغوافي قلعه باب خيبر والترس بها وجعلوها رمز القوة والفروسيّة والشجاعة ، وتحدثوا عنها للرأي العام وأسهبوا في بيان قدرها ودورها و.. بيد أنّ أخطر فترة وأصعب مرحلة وأثقل رسالة أداها علي كانت تتلخص في سكوته ... وقد سكتوا عن سكوته ولم يتحدثوا ابداً ...

وليتهم سكتوا وينتهي كلّ شيء ، بل إنّهم إذا تحدثوا عن هذا الموقف انهالوا بسيل الاتهامات والافتراءات علىٰ أمير المؤمنين وشخصيته وعظمته بحجة تبرير الصمت :

« سكوت نشأ من الخوف » ! « لماذا بايع ؟ بايع حقناً لدمه ، لو لم

يبايع لقتل ! » « لماذا لم يقاتل ولم يجرد سيفه ؟ كان يخاف ، أخرجوه قهراً مكرهاً ، ولأنه كان مكرها بايع الخلافة الباطلة ! » ..

.. بدأ سكوت علي عند انتهاء السنة العاشرة وبداية السنة الحادية عشرة حيث انطوىٰ ملف مرحلة البناء الرسالي وانفتح ملف الاختلافات داخل المجتمع الاسلامي ، واستمر هذا السكوت حتى عام خمسة وثلاثين حيث ثار الناس على عثمان ، وقتل ... خمسة وعشرين عاماً من السكوت من أجل « الوحدة » .

وينثال الثائرون حول علي سنة خمس وثلاثين وينتخبونه حاكماً من أجل العدالة التي لم يجدوها في عثمان فثاروا ضده .

حكومة علي دامت خمس سنوات ، فترة جديدة تختلف عن كلتا المرحلتين السابقتين .. لم يطلق عليه عنوان « مرحلة الرسالة » فجميع الأجنحة المؤمنة والمنافقة تعتقد بالشعارات الاسلامية والأصول العقائدية والأسس الرئيسية لهذه الرسالة .. الجميع يؤمن بالتوحيد والنبوة والمعاد ، يؤمن بالقرآن وبرسالة النبي .. اذن فليست هذه المرحلة « مرحلة الجهاد من اجل ترسيخ الرسالة » ... وليست هي ايضاً مرحلة « السكوت من أجل الوحدة » لأن الامام علياً الآن حاكم وبيده مقاليد الأمور .. الاقلية ينبغي لها أن تصبر وتسكت أمام رفاق الدرب والسلاح المنافقين والمصلحيين لكي لا تفسح المجال للعدو المشترك .. اما اليوم فعلي حاكم ولم تعد أكبر مهامه

الوحدة وإنما ... العدالة ..

ومن حسن الحظ أنّكم مطّلعون على جزئيات أحداث حياة الإمام علي وقد سمعتموها مراراً وهي تنقسم إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولىٰ : ثلاثة وعشرون عاماً مع النبي من أجل ترسيخ « الرسالة » .

المرحلة الثانية : خمسة وعشرون عاماً من السكوت والصبر أمام جبهة الخطوط الداخلية المخالفة من أجل الوحدة .

المرحلة الثالثة : خمس سنوات حكم من أجل تطبيق العدالة .

المرحلة الاولىٰ :

وانتم تعرفون دور علي خلال الثلاثة وعشرين عاماً من الجهاد من أجل ترسيخ الرسالة والعقيدة الاسلامية . لقد سمعتم بجدية علي وحديثه وإقدامه ومسارعته في جبهات الحرب وساحات الوغىٰ وإذعانه وامتثاله المطلق لأحكام النبي وأوامره وقيادته ... في أحد ، في صفين ، في بدر ، في الخندق ، وفي جميع المشاهد والمواقف .. وتعرفون ضربات علي وسيفه المشهود له ـ الذي ثأر له فيما بعد العدو وانتقم منه ومن أهل بيته داخل البيت الاسلامي ـ .. لقد ضرب علي ضربة حاسمة يوم الخندق حينما

واجه ابا سفيان وحزبه ، ضربة عميقة عجيبة مؤثرة حتى قال فيها النبي : «ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين » !

وهذا تقييم منطقي صحيح تماماً ؛ وذلك لأن العبادة تنفع الافراد بشكل فردي في الدارين فيما كانت ضربة علي تحدد مصير الإنسان وتغيّر مجرى الاحداث في نهضة كاملة ولهذا صار « اسلام الجهاد » أكبر قيمة من « اسلام العبادة » في الدنيا والآخرة .

المرحلة الثانية :

وتبدأ مرحلة الصبر والسكوت بعد أن انتهت المرحلة الأولى ... تبدأ مرحلة السكوت .. المرحلة التي يرفض فيها البيعة .. المرحلة التي يرى فيها بأمّ عينيه كيف تسحق الاجنحة الداخلية حقه وحق أهله ، بل الاكثر ، يرىٰ كيف يسحقون حق هؤلاء الجماهير الذين دخلوا الاسلام من أجل العدالة .. الخطوط قوية والأحزاب مقتدرة .. ومن بينها خط يلوح في التاريخ شاخصاً معروفاً بتماسكه وقوته بالرغم من صغره وقلة أفراده ...

زعيم هذا الخط ابو بكر واعضاؤه سعد بن أبي وقاص ، عثمان ، طلحة ، الزبير ، عبد الرحمن بن عوف ، هؤلاء النفر الخمسة أعلنوا اسلامهم في السنة الأولىٰ من البعثة ودخلوا الإسلام مع أبي بكر ، وقد ذكر ابن هشام

في سيرته اسماء الصحابة بالتسلسل حسب دخولهم في الاسلام وصرح هناك أنّ هؤلاء النفر دخلوا الاسلام دفعة واحدة بأمر أبي بكر* .

ومرّ علىٰ هذا الفريق ثلاثة وعشرون عاماً ، ورحل النبي وانقضت مدة ابي بكر ـ سنتان ـ ، ومدة عمر ـ عشر سنين ـ ويرشح عمر في لحظات عمره الأخيرة شورىٰ لانتخاب الخليفة من بعده ، ونرى أعضاء الشورىٰ فإذا هم نفس أولئك النفر الخمسة الذين دخلوا الاسلام بأمر أبي بكر بدون اي زيادة او نقصان عدا الإمام علي الذي أضيف إلى القائمة لاضفاء الشرعية وتبرير الانتخابات .

ومن الواضح جداً ان يرتفع رأس عثمان من بين أفراد هذا الفريق الا ما كان من علي الذي فرض عليهم فرضاً .

وكان أعضاء هذا الفريق برمتهم يواجهون علياً .. وقفوا بوجهه واحداً بعد الآخر ، حاربوه جميعاً وبدون استثناء وشكلوا جناحاً ضده داخل حزب الله الاسلامي حتىٰ مات ابو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن في زمن الصمت ، زمن سكوت علي فبقي طلحة والزبير وسعد ، ثم هلك طلحة والزبير في حرب الجمل فلم يبق من هذا الخط سوى سعد بن أبي وقاص وكان من مشاهير الحكم الاسلامي والشخصيات البارزة ومن

(*) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٨٦ « ذكر من أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر » .

الفاتحين المعروفين في التاريخ ، وكم سلّ سيفه مجاهداً من أجل عـمر وفتح ايران واستلم اهم المناصب العسكرية في عصر عمر ، إلّا أنّه يعتصم ويعتزل جانباً وينزوي أيام علي ويبدأ بمواجهة سلبية ومقاومة صامته ... اذن لم يبق من أفراد هذا الخط إلّا واحد وأمّا الباقون فقد رحلوا جميعاً . بيد أنّ هذا الواحد يستمر في المواجهة ولا يكف عنها .

تحرك في الشام بنو أمية ومعاوية وسخّروا إعلامهم الصاخب : أنّ علياً يحكم الناس بالقهر والقوة .. لم يصل إلى الحكم من خلال انتخابات سليمة وإنّما وصل بقوة السيف والعنف وعبر انتخابات صورية قـام بـها الثوار القادمون من مصر والبصرة الذين هاجموا المدينة ليقتلوا عثمان ولم يشترك فيها المهاجرون والأنصار .

وبعد هذا الضجيج الإعلامي يدخل رسول معاوية المدينة ويسأل سعداً : « هل أخذت البيعة لعلي بالقوة وحد السيف ؟ وهل إنّ عـلياً لم يبايَعْ لولا الخوف ؟ وهل بايعتَ علياً مكرهاً مهدداً ؟ » .

ويمسك سعد عن الجواب ! سعد من المعارضين لبني أمية .. سعد من أعداء بني أمية وقد جاهد مدة ثلاث وعشرين سنة وحارب في جبهات القتال أيام رسول الله وضرب بسيفه دفاعاً عن الإسلام أيام أبي بكر وعمر ، وصاحب الشخصية المعروفة والاسم البارز بيد أنّه اليوم يمثل البقية الباقية لذلك الفريق باعتباره الفرد الوحيد الباقي من أعضاء الخـط البـائد فـإذا

أجاب رسول معاوية بالجواب الصحيح تكون النتيجة لصالح علي ـ وهما في صف واحد ـ ضد العدو المشترك معاوية .. فليعزف عن الجواب إذاً ويختار الصمت .. ويسكت بالفعل .. يسكت سكوتاً أسوأ من التصريح يسكت سكوتاً يعلم أنه ينتهي بضرر علي وضرر الإسلام ولصالح العدو المشترك ، ولكن الأحقاد والضغائن والمصالح الشخصية والخطوط والتكتّلات أدّت إلىٰ أن يتحوّل سعد بن أبي وقاص الىٰ آلة بيد عدو الإسلام المشترك ضد علي ... سعد الفاتح الاسلامي وصاحب الخدمات الكبيرة المشهودة للقوات الاسلامية وصاحب السيف المعروف زمان النبي يتحول إلىٰ آلة يستخدمها عدو الإسلام ضد علي !

وهذه الحالات تبقىٰ حية دائماً وأبداً ، وكم هو مؤلم حينما نرىٰ أشخاصاً منزّهين سالمين يتحولون إلى آلات مجانية بيد العدو المشترك ضد إخوانهم في العقيدة تحت ضغط الأغراض الشخصية والضغائن .. إنّ هؤلاء يتحولون إلى آلات تنفيذية بطوع إرادتهم .. يقدمون الخدمة بالمجان متطوعين لأنهم ليسوا عملاء محترفين ، وإنّما هم هواة ينفّذون أغراض العدو بلا أجر ولا منة ، وينجزون أكبر الخدمات لأنهم أصحاب وجاهة لا تربطهم بالعدو روابط العمالة .

إنصرمت فترة الجهاد من أجل ترسيخ الرسالة ـ ثلاث وعشرون ـ سنة ـ ويرىٰ علي نفسه ـ فجأة ـ في مرحلة جديدة : لو أراد الوقوف في وجه

الجناح الذي صنع لنفسه موقعاً باسم المصلحة الإسلامية لكي يتقدم أفراده الركب ويستلموا زمام الأمور ويمنعوا علياً حقه لأحدث انفجاراً عظيماً داخل المدينة ... الاختلاف والصراع بين الشخصيات الاسلامية الكبرى أفضل عامل لتحريك القبائل وتحريض الامبراطوريات في الروم وايران ؛ لأنهم حينما يرون المدينة ـ أي مركز الثورة الكبرىٰ ـ تهوي وتتلاشىٰ من الداخل يسهل عليهم الانقضاض عليها بضربة واحدة من الخارج والقضاء عليها حتى لكأن شيئاً لم يحدث في التاريخ .

وكان ثمة طريق أمام علي ، وهو أن يتحمل انتهازية الجناح الداخلي وأطماعه ووصولية الجناح السياسي المعارض واغراضه ، حيث كان الجناح الداخلي ـ وللأسف ـ قد ضرب أطنابه داخل البيت الإسلامي ورسّخ مواطئ أقدامه وطار اسمه وذاع صيته في العالم باسم الإسلام وجمع زمام القوات الاسلامية في قبضته ، واتخذ الاسلام مظلة للتستر علىٰ حركته ، وضم أكبر الشخصيات في صفوفه من أمثال أبي عبيدة الجراح ، سعد بن أبي وقاص ، خالد بن الوليد ، فيما كان خط علي يضم أفراداً من قبيل ميثم التمار « بائع التمر » ، سلمان الفارسي اجنبي من ايران ، أبي ذر الغفاري ، قادم من الصحراء لا هو بالمكي ولا بالمدني ، بلال عبد حبشي غريب ، ليس لواحد من هؤلاء نفوذ ولا قوة يأوي اليها ، وأكبر رصيدهم : الانسانية ، التقوى ، الروح الكبيرة والتضحية من أجل الاسلام ، .. لا ينتمون

إلى أسر نبيلة ولا يملكون جذوراً ارستقراطية .. هؤلاء أصحاب علي . أمّا الرجال ذوو الجاه والنفوذ فأيديهم تعمل في الخط المعارض لعلي ، حيث يركبون الأمواج ويصِلون إلى سدّة الحكم على متن سفن الظروف المواتية والفرص السانحة ومطية « الوحدة الاسلامية » ..

وتحمل علي حكمهم وصبر محتسباً واختار السكوت ... سكت خمسة وعشرين عاماً .. سكت هذا البطل الذي كان يحصد رؤوس الأعداء في ساحات الحرب بلا هوادة .. كفّ الساعد الذي كانت ضربته تعادل عبادة الثقلين .. سكوت بلا حركة ، وهو يشاهد الهجوم على بيته وإهانة زوجه ، ومع هذا يستمر في سكوته ، سكوت عبّر عنه الإمام علي نفسه تعبيراً دقيقاً جداً حينما قال : « سكت وفي العين قذى وفي الحلق شجى » سكت خمسة وعشرين عاماً ...

المرحلة الثالثة :

ويبدأ الفصل الثالث من حياة الإمام .. خمس سنوات من أجل العدالة ، وقد أعلن منذ اللحظات الأولىٰ عن امتعاضه من الحكم وكراهيته له لولا أنّه سبيل لإقامة الحق ودحض الباطل* ، وهذا هو شعار هذه

(*) قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله

المرحلة ..

وقد رفعت في هذه المرحلة شعارات أخرى ، وتجلت قيم أخرىٰ ، وسمعت كلمات أخرى من قبل هذا الوجود الذي يُعدّ معجزة الخلقة كلها .

وصل علي إلى الحكم والمناصب موزّعة .. تقاسمها بنو أمية وقرابة عثمان وكبار الأصحاب حيث استولوا على المناصب الحساسة ، من قبيل سلطان الامبراطورية في ايران والروم وولاية مصر وغيرها من الولايات التي تدر الأموال عليهم .. جاء علي لينتزع هذه المناصب دفعة واحدة من مخالب هذه الشخصيات التي ضربت جذورها خمسة وعشرين عاماً في الأعماق ، وروضوا الناس باسم الدين والجهاد وسيوف الله ، وأخذوا بتلابيب الأمة ولملموا الخيوط في قبضتهم باسم الله ..

لقد صنع علي صنيعاً لا يتصور ولا يطاق في زمن صُمّت فيه الاسماع ببلاغات الاعطيات التي اقتطعها عثمان ومعاوية وأنباء سخائهم وندى أيديهم التي طالت الدنيا .. في مثل هذه الأجواء يبدي علي ردود فعل تهز الوجدان ، جاء علي وكان ثمة طلحة والزبير .. ومن هما ؟

الزبير بن صفية بنت عبد المطلب ابن عمة النبي ... طلحة كان

⬅ فقال لي : ما قيمة هذا النعل ؟ فقلت : لا قيمة لها ! فقال عليه السلام : والله لهي أحبّ اليّ من إمرتكم ، الا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً ... (نهج البلاغة خ ٣٣) .

يدعى في الاسلام طلحة الخير .. وجهان كانا يلازمان الرسول ويلازمان علياً .. شخصيتان كانتا تظهران دائماً أمام أعين الناس مع رسول الله وعلي ... رجلان مبرّزان من ذوي النفوذ والقداسة ... شخصيتان مرشحتان للخلافة في شورىٰ عمر قبال الإمام علي ...

والآن وصل علي إلىٰ الحكم ، وهذان الرجلان يعلمان أنّ علياً لا يعطي لأحد مالاً بلا استحقاق وغير مستعد لدفع الرشوة من أجل المصالح ، فانبريا يزمزمان :

أنا طلحة الخير .. أنا الزبير .. نحن من عرف الناس ولطالما سمعوا مدحنا والثناء علينا من فم الرسول وقد كنّا أيام الخلفاء الثلاثة من كبار الشخصيات والقادة بل كنا مرشحين للخلافة قبل عثمان وعلي .. والآن تنازلنا عن الخلافة العامة فأعطنا ولاية مصرين على الأقل ! وهنا ينفخ علي فيطفئ المصباح .. وكفى بهذا جواباً لمزاعمهم[1] ؛ لأنّ علياً لم ينوِ التظاهر

---

(١) وعمل علي هذا ليس كما يتصنعه بعض أشباه المقدسين اليوم ..

زرعوا ذات مرة ريحاناً (نوع من الخضروات) في معمل من هذه المعامل ـ وكان أحد العمال يقول إنّ المسؤول في ذلك المعمل كان من المؤمنين المقدسين للغاية ! ـ وكان بعض العمال يقطعون قليلاً منه ويأكلونه مع الخبز ، فكان يأتي ذلك السيد وينتزع الخضروات من أيديهم ويصرخ فيهم أنّ هذا الريحان ليس ملكي ولا ملككم إنّما هو من أموال بيت المال !

إنّ هؤلاء يعتبرون خُزانات ضد الحريق تحمي الرأسمالية والظلم .. إنّ هؤلاء ←

بالقداسة ولم يرد التعنت واللعب على حبال المقدسين بحجة إنّنا مشغولون بالحديث ، والاستماع لا يحتاج إلى نور فلنطفئ المصباح إذن .. كلا ، وإنّما كان عمله هذا رداً كافياً ليعلم أولئك وجميع « الأقوياء » « الناهبين » أنّ المائدة المفتوحة المبسوطة المتدفقة بالعطاء والسخاء أيام عثمان التي كانت تفيض عليهم ثروة وقدرة وسلطاناً قد ولّىٰ عهدها وانصرم زمانها .. وطلحة والزبير يفهمان حينئذٍ القصة ويعلمان لمن وجّه خطاب « النفخة » .

قال علي يصف الخليفة الذي سبقه : « إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه* »** !

هكذا كانوا جميعاً ، وعثمان نموذج لكل أولئك النفر الذين شاركوه في المسيرة ووضعوا أيديهم بيده وتصدّوا للخلافة الاسلامية وحكومة الله والجهاد في سبيل الله !

والآن جاء علي ليعلن لجميع أولئك الذين أتخمهم السوم وتربعوا على أريكة السلطة والنفوذ أنّه سيسترجع حقوق الناس ويستنقذ الأموال

⮌ المقدّسين الذين يخدمون غير المقدسين ويعرضون فصول « لعبة التقديس » صناديق مضمونة لحماية مصالح ساداتهم . (أنزلنا النص من المتن رعاية لتسلسل الحديث) .

(*) النثيل : الروث وقذر الدواب ، المعتلف : موضع العلف .

(**) نهج البلاغة خطبة ٣ (الشقشقية) .

حتى لو تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء* .

خمس سنين من الجهاد من أجل تحقيق العدالة ، حيث لم يعد للمشرك وجود حتى يجاهد من أجل « الرسالة » وإنّما يواجه علي اليوم المنافق والماكر والمقدس المتعصب الأحمق ، لابد من القتال في الجمل وصفين والنهروان .. والجمل أعقدها وأعسرها .

ففي صفين حاربت علياً وجوه معروفة .. وجوه بني أمية الكالحة ، وفي النهروان وجوه مغمورة مقنّعة بقناع الإيمان والقداسة ، ولكن من حاربه في الجمل ؟ عائشة أمّ المؤمنين ، طلحة الخير ، الزبير سبط عبد المطلب ، يعني أكبر الشخصيات الاسلامية .

وهذا الصراع عنيف لا يطاق .. صراع يهز القلوب .. حتى قلوب الشيعة الذين قاتلوا دائماً إلى صفّ علي ...

سأل الامامَ أحد جنوده قائلاً : إذا نصحت ودعوت إلى السلام ولم يجبك القوم فما انت صانع ؟

قال الإمام : أقاتلهم .

(*) قال عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان « والله لو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك به الإماء ؛ لرددته فإنّ في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق » (نهج البلاغة خطبة ١٥) .

سأل الجندي متعجباً : وتقاتل أمّ المؤمنين وطلحة والزبير ؟! وهل يجوز أن يكون هؤلاء على الباطل ؟!

وهنا سجل التاريخ كلمة لعلي قال عنها طه حسين : « لم يقل أحد مثل هذه الكلمة ولم يأت بمثلها منذ أن وجدت اللغة » ..

قال علي : « لا يُعرف الحق بالرجال إعرف الحقّ تعرفْ أهله* » .

للحق ملاكات وضوابط غير الرجال وإنْ كانوا في ذروة التقوىٰ والورع .. لا يقاس الحق بهم ، إنّما يقاسون بملاكات الحق وضوابطه .

وفي النهروان كان أحد أفراد العدو يقرأ القرآن ذات ليلة بصوت شجيٍّ حزين ، فاستحسن ذلك بعض أصحاب علي فقال أحدهم : أو يكون هذا على الباطل ؟ فقال علي : سأنبئك فيما بعد ! . وبدأت الحرب في اليوم التالي وهلك جميع أولئك المقدسون ، فنادىٰ علي على السائل بالأمس ، فلما جاء غرز رمحه في جسد من تلك الاجساد الغارقة في الأوحال فاستخرجه وقال : « انه ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك ، وسيكون غده أسوأ من يومه »** .

للحق ملاك ، فلا تغرّنا هذه المظاهر الخداعة ، وفي مثل هذه

(*) أنظر البحار ٢٧ / ١٦٩ .

(**) أنظر البحار ٣٣ / ٣٩٩ .

المواقف تصبح العدالة غاية في الصعوبة والثقل .

❋ ❋ ❋

لقد رأينا علياً يتألق بطلاً مطلقاً لا يدانيه ند في مراحله الثلاثة .. :

بطل مطلق في مرحلة الجهاد من أجل العقيدة والعمل على ترسيخ الرسالة ، فلم يبزّه أحد ولم يستطع اي انسان اللحوق به وأداء نفس دوره ، بل لم يستطع احد أن يأتي بدور يشبه دور علي أو يحكيه خلال ثلاثة وعشرين عاماً ..

بطل مطلق في جهاد الصبر والتحمل : لم يصبر أحد خمسة وعشرين عاماً .. لم يتحمل أحد خمسة وعشرين عاماً من السكوت .. لم يصبر أحد سواء كان من معانديه أو معارضيه أو أصحابه .. حتى أبو ذر صرخ ولم يطق الصمت ..

بطل مطلق في جهاد العدالة الصارمة التي ما تحملتها الحيوانات التي كانت ترعى في مراتع عثمان الخضراء بل لم يتحملها أخوه ايضاً .

بالرغم مما اشتهر به عمر من العدالة فإنّه يرىٰ أحياناً أنَّ من المصلحة تسليط معاوية على الشام ، كما أنّ أبا بكر يرىٰ من المصلحة أن يعفو ويصفح عن خالد بن الوليد بعد ارتكابه تلك الجريمة الشنعاء .. أمّا علي فلا يعرف « المصالح » .. لا يداري أحداً ولا يساوم على الحق من

أجل المصلحة ... روحه ليست روحاً تستوعب المصالح ، روحه قطعة واحدة من الحق .. حق وحقيقة مطلقة .

عدالة علي بمستوى من الصرامة والثقل ضاقت على أخيه عقيل ! .. عقيل الرجل العظيم الذي عاش منذ الصغر مع علي في بيت النبي .. عقيل بن أبي طالب العظيم .. يخرج من عند علي ويدخل على معاوية ، وعلي في دوامة الحرب مع معاوية .. خطوة ما أخطرها ... إنّها ليست مزحة ! ..

حينما قتل عمر نسي ابنه عبيدالله أنّه يعيش في العصر الاسلامي وعصر القانون والمحاكم ورجع القهقرى إلى العصر القَبَلي حيث يتحمل الولد الأكبر مسؤولية أخذ الثار ، فهجم على أبي لؤلؤ (فيروزان الفارسي) قاتل عمر وكل من له علاقة به واعمل السيف فيهم بعشوائية عمياء ، لا محاكمة شرعية ولا رعاية لسيادة القانون ولا التفات لقانون القصاص .. فيدخل عبيدالله السجن بفعله ذاك ، ولكنه سرعان ما أطلق سراحه بعد يومين من وصول عثمان إلى الحكم .. أطلق سراح القاتل بحجة أنّه ابن عمر وليس من المصلحة ان يبقى في المعتقل !

أمّا علي فهو لا يخضع للأحقاد الشخصية ولا يخضع للمصالح الزائفة ففي الوقت الذي يعطي ولاية مصر لمحمّد بن أبي بكر ويعتبره ابنه ، في ذات الوقت يطالب بدم فيروزان وأصحابه الذين قتلوا في مجزرة

تحت طائلة الوحشية القَبَلية .

وحينما رأىٰ طلحة والزبير أن الخلافة استقرت عند علي ويئسا من الحصول على أي مكسب ولو كان ولاية مصر من الأمصار ، ذهبا إلى عائشة واتفقا معها على الحرب ، وقبل الخروج من المدينة توجها لعلي يطلبان الإذن منه ، فقال لهما علي : إنّي أعلم وجهتكما وسبب خروجكما ، ومع هذا سمح لهما بالخروج !

يا للعجب ! يريد الرجلان الإفلات من قبضة علي والابتعاد عن مركز الخلافة بغية الإعداد للثورة المسلحة وحمل السلاح ضد الخليفة والتخطيط لأعظم مؤامرة ـ يومها ـ ضد علي ، ومع ذلك يسمح لهما الامام بالخروج ! لماذا ؟

لأنّ هذين الفردين من البشر ، وإذا منعا من الخروج قبل ارتكاب الجريمة فهذا يعني أنهما حرما من حريتهما .. والحرية حق كلّ الناس ، ولا يمكن سلبها من أحد ، ولهما أن يتمتعا بحرية السفر وحرية اختيار السكن ، واذا سلبت هذه الحريات من قبل علي فسيبتدع قانون جديد يستفيد منه الطواغيت والجائرون مدى التاريخ ، ويتخذون من فعل علي ذريعة لأعمالهم ودليلاً يبرر أفعالهم .

يقول جورج جرداق : « اين أولئك الذين يكتبون عن حقوق البشر ؟ .. فلينظروا إلى حقوق البشر مجسدة عملياً في سلوك علي عليه السلام لا

في الخطب والاحتفالات وأروقة المنظمة الدولية واليونسكو فكلها كذب وهراء » .

لقد رأينا جميع الثوريين في العالم يعملون بهذا القانون : ما داموا ثوريين يعيشون الثورة فهم يقاتلون من أجل العدالة ويخاطرون بأنفسهم مراراً في سبيلها ، ولكن بمجرد أن يصلوا إلى دفة الحكم يتحولون الىٰ محافظين .

وهكذا هم كبار الثوريين يحترفون لعبة السياسة بعد أن يصلوا الى السلطة ويشبعوا ، وبعضهم يحترف السياسة ببطن خاوية قبل أن يستشعر لذة الشبع .

الّا علي ـ أيضاً كما يقول جورج جرداق ـ فإنّه كان ثورياً حينما كان فرداً يقاتل في صفوف جماعة النبي من أجل الرسالة ، وكان ثوريا حينما اختار السكوت خمسة وعشرين عاماً ولم تكن السلطة بيده ، وكان ثورياً حينما استلم السلطة خمس سنين .

علي هو الإنسان الوحيد الذي انتفض أيام حكمه من أجل العدالة ، حيث عزل معاوية قبل أن تستتب له الأمور وقبل أن يسيطر على المدينة سيطرة كاملة ، عزل معاوية الذي عجز عمر عن عزله واضطر لدفع الشام له قائلاً : إنّ الشام لقمة نسد بها أفواه أبناء أبي سفيان ..

كتب الإمام بلاغ العزل ، والكل يعلم أن معاوية لا يصغي لهذا العزل وانه سيتخذ منه ذريعة لقرع طبول الحرب ، والكل يعلم أن الحرب بين علي ومعاوية حرب بين الشيعة أنصاف الواعين ذوي العضد الواهي الضعيف مع المتعصبين الخشنين المنظمين ، والكل يعلم أنّ الحرب لا تنتهي لصالح علي إلّا أنَّ علياً يقول : إنّي إن لم أعزل معاوية وأصبر عليه لحظة واحدة سأكون إذاً شريكه في كلّ جريمة وفساد وظلم يرتكبه ، وسأكون مسؤولاً عن فعله ، وأنا لا أتحمل هذه المسؤولية ولو كلفني ذلك كل شيء .

.. علي رجل جاهد ثلاثاً وعشرين سنة من أجل بناء الرسالة وترسيخ العقيدة وتحقيق الأهداف في مجتمعه .. وتحمل خمساً وعشرين سنة وصبر علىٰ أنانية أصحابه ورفاق دربه وخططهم ومؤامراتهم من أجل الاحتفاظ « بالوحدة الاسلامية » أمام العدو المشترك .. سكت خمسة وعشرين عاماً وحكم خمس سنين من أجل تحقيق العدالة والأخذ للمظلوم من الظالم وإعادة حقوق الناس ودحض الباطل ..

دخل علي على ميثم التمار فوجده قد صنف التمر إلى صنفين : جيد ورديْ ، وجعل لكل منهما سعراً يختلف عن الآخر ، فغضب وخلط الصنفين بيده قائلاً : لماذا تفرق بين عباد الله ؟ اخلط الجميع جيداً وبع بسعر واحد ـ كمعدل بين السعرين ـ .. يعني المساواة في الاستهلاك التي هي أساس العدالة في جميع المذاهب المطالبة بالعدالة في العالم .

ثلاثة وعشرون عاماً من الجهاد من أجل الرسالة ، العقيدة ، خمسة وعشرون عاماً من الصبر والعض على الجراح وتحمل الصعاب وأنانيات الآخرين من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين امام العدو الاجنبي ، وخمسة اعوام حكم من أجل تثبيت العدل وبسط العدالة بين الناس .

ولهذا يحتاج المثقفون الواعون في المجتمع الاسلامي اليوم علياً بغض النظر عن انتماءاتهم ، فليكونوا من أتباع أي مذهب أو مدرسة ، المهم أن يكونوا طلاب عدل وحرية وأعداء الاستعمار والاستبداد والتفرقة .

فالامة الإسلامية اليوم فقدت إيمانها وأهدافها وتضعضعت عقيدتها وخمدت فورتها العقائدية التي كانت تثير أفكارها الميتة ولهذا فهي أحوج ما تكون للـ « رسالة » .

الأمة الإسلامية تحتاج إلى نيران فكرية ثورية مؤججة .. تحتاج الى « رسالة » ، والامة الاسلامية تحتاج للـ « وحدة » في وقوفها ضد « الاستعمار » ، وجماهير المسلمين تحتاج للـ « عدالة » في ظل نظام التبعيض والتفرقة ، ولهذا فهي تحتاج لعلي !

❋ ❋ ❋

علي مؤسس الوحدة

تطرقت في الاجتماعات الأخيرة لبحوث حول التشيع بحكم المناسبات الزمانية ومنهج التفكير والوضع الفكري الذي كنت قد توصلت اليه أخيراً . وسوف أستعرض العناوين الرئيسية والخطوط العريضة التي تناولتها في موضوع التشيع خلال الفترة الأخيرة لكي يتسنىٰ للسيدات والسادة الذين ينوون متابعة البحث علمياً واجتماعياً أن يفعلوا ذلك من نفس الزاوية التي دخلت البحث منها ولعلهم يستوعبون ابعاد البحث ويخلصون إلىٰ إصدار الحكم الكلي عن التشيع وفق الملاكات التي اتخذتها والمنطلقات التي انطلقت منها في معالجة الموضوع .

وكان من أهم البحوث التي تناولتها في السنة الماضية ضمن عدة لقاءات بحثٌ تحت عنوان « الفلسفة السياسية والاجتماعية للأمّة والإمامة » .

« الأمة والإمامة » نظرة اجتماعية أو بحث اجتماعي حول الأمة ...

ما هي الأمة أساساً ؟ ما هو شكل الأمة الإسلامية ودورها وتركيبها وخصائصها باعتبارها « المجتمع المثالي » و« نموذج المجتمع الإسلامي » ؟ ودراسة ذلك علىٰ أساس التصورات الاجتماعية ضمن الثقافات والمذاهب واللغات البشرية المختلفة . وما هي الأسس والقواعد والأبعاد التي تقوم عليها الأمة ؟

ووصلنا إلى هذه النتيجة : وهي أن بحث الأمة يستدعي ـ قهراً ـ بحث الإمامة ، بمعنىٰ أنّ الإمامة نظام اجتماعي سياسي فكري خاص يلازم تركيب « الأمّة » ولا ينفك عن المجتمع المصوغ علىٰ هيئة « الأمّة » .

مجتمع المسلمين هو عبارة عن المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون في ظل أي نظام أو حكم أو هيكل اجتماعي أو اقتصادي كان ، المهم أن يتشكل تجمع إسلامي في قبال المجتمع المسيحي أو المجتمع البوذي ، فتكون ثمة تجمعات ثلاثة : تجمع البوذيين ، تجمع المسيحيين ، تجمع المسلمين .

وتناولنا في السنة الماضية ـ بعد بحث « الأمة والإمامة » ـ عدة بحوث حول الإمام أمير المؤمنين :

أحدها : « علي وحيداً » حيث إنّ معرفة علي بنفسها تعني معرفة التشيع ، كما أنّ معرفة الرسول تعني معرفة الإسلام .

والبحث الآخر: « علي حقيقة علىٰ غرار الأساطير »: يعني أنّ علياً كان حقيقة جمعت المثل كآلهة الأساطير التي لا حقيقة لها.

ثم ندوة أخرىٰ تحت عنوان « علي الإنسان الكامل » وبحث آخر متمم لكلّ هذه البحوث ـ بعنوان « فلسفة التاريخ في الأديان الإبراهيمية » حيث تتصل فلسفة التاريخ في الأديان الإبراهيمية بالإمامة الشيعية وفلسفة الانتظار عند الشيعة، فتتبلور من مجموعها فلسفة تاريخ خاصة تتميز عن الفلسفات التاريخية الموجودة في العالم: كفلسفة هيجل، ماركس، سارتر أو الفلسفات التاريخية عند الأديان الاخرى من قبيل فلسفة التاريخ عند بوذا أو فلسفة التاريخ عند زردشت.

وتناولت هذه السنة ـ إستمراراً لمواضيع العام الماضي ـ بحثاً أساسياً في فلسفة الانتظار بشكل عام تحت عنوان « الانتظار مذهب الرفض والتحدي »[1].

---

(١) بالرغم من أن اجتماعنا هذا في يوم عزاء وحداد عام إلّا أنّ محاضرتي محاضرة تخصصية شارك فيها أكثر السيدات والسادة المهتمّين بمثل هذه المحاضرات، وباعتبار أنّي القي آخر محاضرة عامة أحببت أن أقدّم مشروعاً كلياً عن جميع البحوث تمهيداً للبحث والتنقيب لكي لا تبقى اجتماعاتنا هذه عقيمة بتراء، نكتفي فيها ببعض الاستنتاجات العاطفية المؤقتة.

ولو انبرىٰ من بين الآلاف عدة أفراد يتابعون هذه المواضيع والأفكار الأساسية والخطوط العريضة التي نعرفها هنا بالبحث والتحقيق والدراسة الدقيقة لكان هذا أكثر ←

« الانتظار مذهب الرفض والتحدي » يعني على العكس تماماً مما نتصوره جميعاً ـ مؤمننا وكافرنا ـ من أنّ الانتظار عبارة عن فلسفة الاستسلام وتبرير الخضوع ودين السلبية .. على العكس من ذلك فإنّ الانتظار دين التحدي والرفض ؛ لأنّ الإنسان المنتظر لحادثة ما أو ظهور شخص ما يعني أنّه ساخط على الواقع الموجود ولولا ذاك لما كان منتظراً للتغيير .. الراضي لا ينتظر التغيير ، وإنّما ينتظر التغيير من يرفض الحال التي هو فيها ولا يرضىٰ عن الواقع الذي يعيشه .. إذن فالانتظار يستبطن ذاتياً عدم الرضا عن « الوضع الراهن » والاعتراض علىٰ الواقع القائم .

وقد تناولت جميع المسائل في فلسفة الانتظار وعقيدة الانتظار في المذهب الشيعي من زاوية التحليل الاجتماعي والتاريخي والطبقي لا غير . وكان من أهم البحوث المطروحة خلال هذه الفترة البحث الشامل الذي استوعب جميع تلك البحوث الاخرىٰ ـ حتى البحوث التي لم تسنح الفرصة بعد لطرحها ـ الذي عالجناه عبر الندوة الأخيرة تحت عنوان « التشيع العلوي والتشيع الصفوي »[1] يعني دراسة الأصول العقائدية الأساسية في مذهب التشيع العلوي ودراسة نفس تلك الاصول في مذهب

➲ قيمة وأهمية من مئات الاجتماعات الحافلة الضخمة والحارة الصاخبة .

(أنزلنا النص من المتن إلى الهامش رعاية لتسلسل الحديث) .

(١) أرجو من جميع الأخوة والاخوات الذين يرغبون في مثل هذه البحوث أن يقرأوا هذه المحاضرة سواء كانوا متفقين معي في طريقة تفكيري أو مختلفين .

آخر يسمى بـ « التشيع الصفوي » ، وهذان مذهبان مختلفان ونهضتان وحركتان مستقلتان عن بعضهما البعض غاية ما في الأمر أنهما يتشابهان في القوالب والأسماء ..

« مسؤولية الانتماء للتشيع » عنوان المحاضرة قبل الأخيرة ، ومن الطبيعي أن تطرح قضية أن يكون الإنسان « شيعياً » اي « المنتمي للتشيع » من خلال البحث .

ثم محاضرة البارحة وأول امس والليلة التي قبلها تحت عنوان « لماذا علي ؟ » حيث تناولت أمس الأول حياة الإمام علي وقسمتها إلى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : ثلاثة وعشرون عاماً من الجهاد من أجل الرسالة .

الفصل الثاني : خمسة وعشرون عاماً من الصبر والتحمّل من أجل الوحدة .

الفصل الثالث : خمس سنوات من الجهاد من أجل العدالة .

وتتلخص حياة علي في ثلاثة شعارات : الرسالة ، الوحدة ، العدالة .

وبحث البارحة تضمن الحديث عن كيفية انسياق مسيرة المحرومين في التاريخ نحو التشيع في إطار حكاية ورؤية المصير الفردي ، وتضمن أيضاً قضية أهم وهي أنّ التشيع ينحسر أحياناً في مزالق مهينة

يتمثل في الصراع بين الشيعة والسنة ، وينطلق أحياناً في آفاق عالمية واسعة تستوعب البشرية وتاريخ الإنسان على وجه الارض .

فثمة ـ اذن ـ تشيع طائفي ، وتشيع كبير واسع يدرس بمستوى الإنسان كلّ الإنسان ، وهو مذهب شريحة مقابل شريحة أخرىٰ وطبقة مقابل طبقة أخرىٰ يمتد عبر مسيرة التاريخ منذ بداية التاريخ البشري وينتهي إلى علي ويستمر بعده ، وهذا التشيع يقابل التشيع الطائفي الذي يعني الصراع والصدام القائم في أذهاننا بين الشخصيات التاريخية .

وسيكون بحث اليوم تحت عنوان : « علي مؤسس الوحدة » .

* * *

قبل الدخول في صلب الموضوع أود أن اشير إلى مسألة وهي أنّ أغلب المواضيع المطروحة على الساحة الشيعية اليوم تجمعها قواسم مشتركة بالنسبة للمواضيع التي نطرحها هنا ، حيث إنّ ما نطرحه ـ غالباً ـ يخالف الشائع الذي تعارف عليه الرأي العام في المجال الشيعي ، يخالفه مخالفة تامة ويعاكسه في الاتجاه معاكسة كاملة .

وأقول ذلك للكثيرين الذين يعترضون عليّ قائلين : لماذا تتناول قضايا التشيع والتسنن وقضايا الدين في مثل هذه المرحلة وهذا المقطع الزمني ؟ توهماً منهم بأنّي أريد أن أقدّم تبريراً علمياً ومنطقياً لتلك

القضايا ، وفي نفس الوقت أخاطب أولئك الذين لا يؤمنون بهذا الحديث ولا يقبلون هذه اللغة ويرونها لا تشبه معتقداتهم التي يبثّونها في أفكار الآخرين ، وليس لهم من النصفة والموضوعية ما يشجعهم على أن يقولوا : لنا رأينا في التشيع وله رأيه ، كلا ؛ فإنّهم لا يرون التشيع الا ما آمنوا به هم وما نصّت عليه معتقداتهم الموروثة المتلقّاة كابراً عن كابر ، وكلّ من شذّ عن ذوقهم وخالف سليقتهم فالتشيع منه براء !

روىٰ لي أحد الاصدقاء عن أحد المقدسين ـ وهو من المقدسين والمنزهين المعروفين ـ أنّه قال : إنّ فلاناً زنديق دهري كافر لأنّه كتب العبارة الكذائية في إحدىٰ كتبه .

فقلت : يا له من إنسانٍ طاهر تقي عالم فاهم .. ثلاث ضربات في آن واحد ؟! إنّ من ينكر عقيدة من عقائد الشيعة يكون سنياً وكفىٰ فلماذا الزنديق والدهري إذن ؟!

ونرى أن هذه القضايا تختلف تماماً عما هو مألوف في الأذهان ، وهذا دليل ما ذكرته أوّلاً من أنّ الاسلام تناقضت سيرته الحالية مع سيرته السابقة أكثر من أي دين آخر من أديان العالم وتناقض ـ ولا أقول اختلف ـ واقعه الموجود مع حقيقته المجهولة ، وأنّ التشيع ابتلي بهذا اكثر من جميع الفرق والطوائف الأخرىٰ ، فالفواصل الموجودة بين ما كان وما هو كائن أكثر من الفواصل بين الكفر والدين (الايمان) .

أتذكر أنّي قدمت كتاباً للطبع ولم تسنح لي الفرصة لمراجعته وتصحيح أغلاطه ، فرأيت فيما بعد أنّ الكتاب مطبوع وكلّ عباراته وجملاته صحيحة لم تمس بسوء سوىٰ أنّهم غيّروا كلّ كلمة « يجب » ووضعوا مكانها « لا يجب » وكلّ كلمة « لا يجب » وضعوا مكانها « يجب » لم يبدّلوا فيه سوى هاتين الكلميتن ليس إلّا .. والتشيع تغيّر علىٰ هذه الشاكلة فكلّ « يجب » فيه صارت « لا يجب » وكلّ « لا يجب » صارت « يجب » .

مرحله الانتظار ، مرحلة المسؤوليات الصعبة الملقاة على عاتق الإنسان ، ومرحلة الغيبة ، مرحلة المسؤوليات الثقيلة الملقاة على العالم .. ثم صارت من بعد مرحلة نفي المسؤوليات وسلبها عن الإنسان ومرحلة اليأس المطلق من أي عمل وعدم جدوىٰ أي فعل خير ...

ومن القضايا التي صورت في أذهاننا تصويراً يناقض الحقيقة تماماً ـ سواء كان في أذهاننا نحن المؤمنون أو اذهان أولئك المنكرين فالكثير من الحقائق حينما تُغيَّر يؤمن بها بعض وينكر التغيير فيها بعض آخر وكلا الفريقين علىٰ خطأ ـ هو ما اقتنعنا به نحن بوجه من الوجوه وآمنا به ، وما اتّهمنا به اعداؤنا وركّزوا عليه حينما قالوا : إنّ انطلاق التشيع بداية التفرقة في الأمة الإسلامية وأنّ مؤسس النهضة الشيعية في تاريخ الاسلام ـ سواء كان مؤسس النهضة على الحق كما نعتقد نحن أو على الباطل كما

يعتقد مخالفونا ـ إنّما هو في الواقع مؤسس التفرقه في الوحدة الاسلامية .

هكذا عرضوا لنا التاريخ ـ لنا نحن المؤمنين وللمنكرين على حد سواء ـ وقالوا :

إنّ علياً شق عصا المسلمين بعد وفاة النبي لأنه خالف واعترض وامتنع عن البيعة واعتصم في داره ساخطاً محتجاً ، وادّعى الخلافة بل ادّعىٰ أنّه منصوب من قبل النبي أو موحى اليه بها ، وبهذا بدأ مسيرة جديدة وخطاً مائلاً أدّيا إلى إحداث شرخ وانشقاق في صفوف الحزب الإسلامي الواحد وإحداث فرقة جديدة .

ونحن الشيعة نعتقد بهذا الانشقاق الا أنّنا نقول إنّه انشقاق « الحق » عن « الباطل » ومخالفونا يقولون انه انشقاق « الباطل » عن « الحق » وكلّنا ـ أي كلا الفريقين ـ يعتقد أنّ علياً مؤسس الانشقاق ! وأنّ التشيع رمز التفرقة في الوحدة الاسلامية عبر تاريخ الاسلام ، هذا ما تسالم عليه الفريقان !!

ونعتقد ـ الان ـ بوجوب مخالفة ما ذهب اليه أهل السنة والجماعة ، وهم يعتقدون بأننا روافض رفضنا التمسك بحبل الوحدة الإسلامية ورفضنا ما أجمع عليه المسلمون ، فنحن إذن انشقاقيون .

هذا بحث تاريخي وطريقة في فهم الحادثة ودور الإمام

أمير المؤمنين في تاريخ الإسلام كما رسمت في ذهن الشيعة أو ذهن مخالفيهم .

بيد أنّ هناك قضية أخرىٰ طرحت اليوم باسم الوحدة الاسلامية ، فمال اليها بعض وخالفها بشدة آخرون ..

أما الذين أيّدوا الفكرة ومالوا إليها فيقولون : يجب أن تستأصل عوامل الاختلاف بين « التشيع » و« التسنن » من خلال إزالة الاختلافات القائمة بينهما في المباني والأصول العقائدية والفروع الفقهية ، ونقرّب بينهما في هذه الموارد ، يعني أن نرفع الاختلافات السياسية والتاريخية ، والنظرة إلى حوادث التاريخ ، والأصول ، والفروع ، وكلّ ما بيننا وبين أهل السنة من اختلاف ثم نحاول التقريب في هذه الموارد وفي التفكير والنظرة والتصورات العلمية والتاريخية والاجتماعية .

وأغلب الدعاة إلى هذه الفكرة هم من مثقفي المجتمع الإسلامي إنْ شيعة وإن سنة ، فأغلبهم ممن يتعصب للوحدة الاسلامية اكثر من تعصبه لانتمائه الطائفي .

فالشيعة المؤمنون بهذه الفكرة يميلون إلى أن يكونوا مسلمين قبل أن يكونوا شيعة ... يعتقدون بضرورة أن يكونوا مسلمين يقصرون انتمائهم علىٰ تلك الدائرة فقط ، وهؤلاء ينتمون ـ فعلاً ـ فكرياً وعاطفياً إلى الأمة الإسلامية وإلى القدرة الموجودة في العالم باسم الاسلام أكثر من انتمائهم

إلى المباني والأصول الخاصة بالطائفة الشيعية التي تميزها عن سواها من الفرق والطوائف

وتوجد في المذاهب الأخرى أيضاً شريحة من هؤلاء المثقفين القليلي التعصب ، من بين الفرق السنية وحتى غير السنية من الإسماعيلية والزيدية كتاب وشعراء ومفكرون ومثقفون كثيرون رفعوا شعار الوحدة الإسلامية وامتازوا بتعصب أقوىٰ للوحدة الاسلامية من تعصبهم لطوائفهم ، وأكثر هؤلاء من المتأثرين بأجواء هذا الزمان والمطلعين على الثقافة الحديثة والمنفتحين على القراءات الجديدة والمتعلمين وأغلبهم من الخاضعين لتربية الضمير والضرورات والمنطق السائد في قرننا المعاصر اكثر من خضوعهم للأطر والحدود الناشئة من التعصب الطائفي الضيق .

وكمثال على ذلك : إذا سافرت ـ أنا الشيعي ـ إلى مصر أو لبنان أو الجزائر أو تونس والتقيت هناك بشاب اسماعيلي أو سني حنفي ، مالكي ، حنبلي ، شافعي ، وكان ذلك الشاب من هذا القبيل يحمل ميولاً اجتماعية شديدة ، وينتمي إلى الشريحة المثقفة وتتنازعه العواطف الوطنية أو القومية او الطبقية أو الأيدلوجية المعاصرة ، ويدرك التقسيمات الجبهوية والجغرافية ويعرف الأجنحة والخطوط والتكتلات العالمية الراهنة ويشعر أنّه في مواجهة مع القوى الخارجية والاستعمار ..

إنّ شاباً من هذا القبيل إذا التقاني يشعر بأنه يقف أمام شاب آخر

يحمل نفس أفكاره يشاركه في الفكر والدين ويتفق معه، ويستقبلني ـ وانا من طائفة إسلامية أخرى ـ وكأنني من أبناء طائفته ويطرح معي الكثير من القضايا المشتركة بيننا، فثمة الكثير منها : قضايا اجتماعية، دولية، عالمية، قضايا الاستغلال، الاستعمار، قضايا الثقافة، الدين، الإسلام، التاريخ والمصير المشترك في عالم اليوم، هذه كلها وجوه مشتركة بيني أنا المتعلم الدارس الشيعي وبين أي شاب دارس متعلم من طائفة إسلامية أخرىٰ.

القضايا المشتركة بيننا كثيرة وحساسة وخطيرة بالمستوى الذي يغطي على كل مشكلة أخرى ويغنينا عن طرح أي اختلاف طائفي يضطرنا فيما بعد للتفكير في حله ...

حينما تطرح بيننا قضايا الإسلام في أفريقيا، قضايا الإسلام في آسيا، قضايا الإسلام في الشرق، قضايا الإسلام في العالم لا نجد بعدها وقتاً لتجمعنا طاولة النقاش والهجوم على بعضنا البعض .. يهاجمني : لماذا تحمل معك « تربة » للصلاة وهو نوع من الشرك ؟ وأهاجمه : أنت تسجد على السجاد فصلاتك إذن باطلة ... نشتغل بتلك القضايا فلا تصل النوبة إلى هذه القضايا.

ولو أنني التقيت في نفس تلك البلدان في شمال افريقيا، في مصر، في لبنان، في اي بلد اسلامي آخر مع متعلم تقليدي من المذهب الزيدي

أو الحنفي او المالكي او الإسماعيلي فإنّه ينظر إليّ كشيعي قبل أن يراني مسلماً .. ينظر إليّ كخصم اشتغل بالنزاع والصراع معه عنىٰ مدى ألف وثلاثمائة عام ولا يزال ، قبل أن يراني فرداً يشاركه المصير ويقاسمه الألم في المجتمع الإسلامي الكبير ... هؤلاء على العكس من أولئك تماماً ، وهذا المثال مستوحى من التجارب الشخصية وليس مجرد فرضية محضة .

وإلى جانب شعار الوحدة الذي يرفعه المؤمنون بها الذين يدعون إلىٰ توحيد الصف الاسلامي من خلال حل الاختلافات الفقهية والتاريخية ومناقشة القضايا مناقشة علمية تؤول إلى بناء مذهب مشترك تحلّ فيه الاختلافات الطائفية فتحقق الوحدة الاسلامية .

إلى جانب هؤلاء المثقفين يوجد اتجاه آخر وهو اتجاه العلماء السلفيين الدارسين في الحوزات العلمية القديمة المتمكنين من المناصب الرسمية العلمية في مختلف المذاهب والطوائف المتنفذين في فرقهم ـ من الشيعة الاسماعيلية ، أو الإمامية أو الزيدية او المذاهب السنية المختلفة ـ وهؤلاء يعتقدون باستحالة الوحدة بين طوائف المذاهب الإسلامية ، بل يعتقدون أنّ هذه الوحدة علىٰ فرض إمكانها يجب أن تحارب ويحال دون تحققها ، لأنّ الفواصل والمسافات والعداء والاختلافات الأصولية والخصومات العقائدية بين كل طائفة إسلامية وطائفة إسلامية أخرى أكثر منها بين الطائفة الإسلامية والطائفة غير

الإسلامية .

بحيث نشاهد اليوم في البلدان التي يقطنها مسلمون من طوائف مختلفة أنّ هؤلاء لا يستطيعون التعايش في منطقة واحدة خوفاً من الصراع ونشوب المعارك ، ولكي يحولوا دون حصول التصادم بين القطبين يسكنون طائفة غير إسلامية ـ مثل المسيحيين ـ بين الطائفتين المسلمتين فيتخذون هؤلاء كعازل يمنع اصطدام هاتين الفرقتين ، ويؤكّد ذلك النظام الاجتماعي الحاكم اليوم علىٰ لبنان حيث تجد المسيحيين يتوسطون دائماً بين الشيعة والسنة باعتبار استحالة التعايش بينهما حتى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ولهذا يحكم المسيح على الطائفتين دائماً وأبداً ؛ لأن السني المتعصب اذا حكم يحقد على الشيعة أكثر من المسيحي ـ اما أن يكون هذا ثابتاً بالتجربة أو انهم يحسبون أنّ الأمر كذلك ـ باعتبار أنّ السنّي المتعصب لا يكنّ للمسيحي والمسيحية أحقاداً وضغائن تاريخية بينما يكنها للشيعي ، يقول عنه : إنّه رافضي ، يرفض الصحابة ، يسب الصحابة ، والمسيحي لا يتعرض لهم ولا يهمه أمرهم ، فهو عدو محبوب والشيعي قريب عدو وأخ مسخوط عليه ، وإذا حكم الشيعي وكان في حكومته المسيحي والسني فهو لا يتعرض للمسيحي باعتباره من أتباع دين آخر فيعامله بهدوء ووداعه ، فيما يفرغ كلّ ما لديه من عقد وأحقاد تاريخية

واجتماعية بشكل من الاشكال ويصب جامها على السني* ...

فالطائفتان المتفقتان المتعايشتان إنّما هما السنة والمسيحيون ، والشيعة والمسيحيون لا السنة والشيعة الطائفتان الإسلاميتان .. هكذا صار الأمر واصبح قانوناً اجتماعياً !!

هكذا يعتقد هؤلاء .. يعتقدون أنّ الوحدة بين الطوائف الإسلامية مستحيلة ، وعلىٰ فرض امكانها فهي باطلة مضرة تأتي على الحق والحقيقة ولابد من الوقوف أمامها والحيلولة دون وقوعها ومكافحتها بشتىٰ الوسائل ، على العكس تماماً من موقف المثقفين[1] الذين ينادون بحل كل الاختلافات العلمية والاجتماعية وغيرها .. لا يرضى هؤلاء بحل بل لا يطيقون تصور المعايشة ، وأكثر من ذلك فإنّهم مستعدون للاستعانة بالقوى الاجنبية في سبيل الاستقواء على الأخوة في المذاهب الاخرى ما داموا عاجزين عن الوقوف بوجههم ومحاولة القضاء عليهم لوحدهم .

(*) هذه العلاقة المتوترة بين الشيعة والسنة في لبنان صارت اليوم جزءً من الماضي بعد أن اكتشف الجميع عقم هذا الاصطدام وعدم جدواه ، الأمر الذي دفع المسلمين ـ سنة وشيعة ـ هناك للمناداة بإلغاء الطائفية وإزالتها من المجتمع اللبناني ورفع شعار : لبنان بلا طوائف .

(١) المثقفون هنا نعني بهم طبقة « الانتلكوتوئل » بالمعنى الأعم وهم المتعلمون والخريجون ولا اقصد الواعين والمتنورين ، فقد يكون في أوُلئك الواعي المتنور والمغلق غير الواعي ولكن على أيّ حال يطلق هذا المصطلح اليوم علىٰ هذه الشريحة الاجتماعية في اللغة الفارسية .

وإنّي لأعتقد أنّ كلا الاتجاهين خطأوكلا الأطروحتين تفتقران إلى النضوج ، فاطروحة المثقفين لا تنسجم علمياً مع الواقع والحقيقة ، وهي من الناحية الاجتماعية غير ناضجة وغير علمية بل مستحيلة .

وأطروحة الخط المقابل ـ حامي التفرقة وحارس الخصومة الدائمة بين الفرق الإسلامية ـ تزيد علىٰ أطروحة المثقفين أنّ فيها « مرضاً وغرضاً » يعني أنّهم إمّا أن يكونوا مصابين بالالتواء في التفكير وانحراف في التصورات وإمّا أن يكونوا مغرضين يعلمون ما يصنعون .

فلا هؤلاء إذن ولا هؤلاء ، وإنّما طريق ثالث بينهما .. لا للوحدة الغارقة في العواطف والإحساسات دون الاتكاء علىٰ أساس علمي أو ركن ركين ، ولا للتفرقة الغارقة في قضايا السياسة والحسد والحقد والأغراض الخاصة دون مراعاة للحقيقة والمصلحة الإسلامية .. لا هذا ولا ذاك وإنّما سبيل ثالث أول من سلكه شخص علي .. أول من اختطه شخص علي .. وهل ثمة طريق ثالث بين « الوحدة » و« التفرقة » ؟!

نعم .. إنّه طريق علي .

وإنّي اذ أؤكد علىٰ هذه القضية أتابع بذلك أموراً ثلاثة :

الأول : إنّ قصة الاتحاد بين الطوائف الاسلامية هي حديث الساعة في جميع المجتمعات الإسلامية إنّ بشدة أو بضعف ، وقد احتدت اكثر في

السنوات الاخيرة ولهذا أؤكد عليها بغية التوصل إلى حل ناجع ودائمي للمشكلة .

الثاني : وهي قضية مثيرة انتبهت اليها فجأة وأخذتني أخذاً شديداً ، ومؤداها : أن المفروض أن نبرّئ علياً من الاتهامات الموجهة اليه ـ ونحن ايضاً نتهمه بذلك ـ من كونه أحدث شرخاً وتفرقة في الصف الاسلامي ، بل أكثر من ذلك انه لم يحدث تفرقة ، وإنّما على العكس تماماً كان مؤسس الوحدة ومبتكر فكرتها والمباشر في تنفيدها .. إنّه علي .. علي الذي أوجد الوحدة الاسلامية بين الطوائف المختلفة في الرؤية .

الثالث : ـ وقد تكون قضية شخصية ولا أقصد البعد الشخصي فيها ـ وهي أنّني اتهمت كثيراً وإنهالت عليّ سيول الشتائم ؛ والسبب في ذلك إيماني بالوحدة الإسلامية .. اعتقادي هذا عدّ من الزلات الفكرية والشطحات العلمية .. إنّها تهمة من التهم !!

❋ ❋ ❋

ذكرت في مقدمتي على كتاب « سلمان الفارسي » بحثاً تحت عنوان « تعدد الفهم الاسلامي » بمعنى أنّ الاسلام حقيقة واحدة يفهمها كلّ إنسان وفق تصوراته وقوالبه الذهنية الخاصة ولهذا تفهم هذه الحقيقة

بعدة اشكال وليس ثمة ضرورة تستدعي أن يتوحد الفهم لدى الجميع[1].

والآن أريد أن أطرح نظرية ضد تلك النظرية تماماً ، ومن بين هذه وتلك والجمع بين هذين الضدين أقول كلمتي الأساسية واستخرج حديثي

---

(١) رُوي لي عن أحد السادة العلماء الذين أحبهم وأحترمهم كثيراً أنّه قال ينتقدني متعجباً : « صار عندنا شيعتان .. نحن أيضاً صرنا نوعين من الشيعة .. شيعة علويون وشيعة صفويون .. انقسم التشيع أيضاً إلى قسمين ! » .

أقول : إنّي ذكرت نوعين من التشيع ولم يسع الوقت لذكر اكثر من ذلك ، وإلاّ فالاقسام أكثر من ذلك بكثير ... الستم تعتقدون أنّ الاسلام علىٰ أقسام وانواع ؟ فهذا إسلامنا إسلام علي ، إسلام جعفري وذاك إسلام مالكي ، وذاك اسلام حنفي وذاك إسلام إسماعيلي وذاك إسلام حنبلي ... إذا أمكن افتراق الإسلام على اثنين وسبعين فرقة كلها تدّعي الاسلام فلماذا لا يصح ذلك في التشيع ؟! هذا أولاً ، وثانياً لنفترض أنّ تقسيمي كان تقسيماً خاطئاً ، فالمفروض أن تُقرأ مقالتي قبل الإشكال عليها وهذا أحد الأخطاء التي يقع فيها منتقدوي حيث يُخلط بين مرحلتي المطالعة والانتقاد ، يعني أنّهم يهاجمون وينتقدون ، ثم اذا وسعهم الوقت يقرأون ويطالعون واذا لم يسع فلا ضرورة للقراءة فقد حصل المطلوب (الانتقاد) ! (المتن) .

قبل ليلتين أو ثلاث هاجم أحد السادة كتاباً من كتبي في أحد المجالس وقال : إنّ حقّ فاطمة الزهراء ضيّع في هذا الكتاب ، ثم تلا مصيبة الزهراء ليشحن المجلس ويكسب الجولة ، فلما انتهى قام له أحد الاصدقاء وسأله : هل قرأت هذا الكتاب ؟ لم يكن فيه ما تقول !

قال : بلىٰ ، لقد كان فيه ..

قال : في أي صفحة ؟ لقد قرأته انا عشر مرات ولم أجد ما تقول !

قال : كلا لقد كان فيه ! .

قال : قلت : هل طالعت الكتاب شخصياً ؟

قال : لقد وعدني « فلان » ان يأتيني به البارحة وتأخر عن الموعد فاتصلت به هاتفياً ولم أفلح ، فقلت اناقشه اليوم وسيأتي به فيما بعد !

الرئيسي[1] :

إنّ الوحدة العلمية فاجعة ، وموت للعلم ، ومتى ما سادت الوحدة العلمية ووحدة القوالب العقائدية في أي مجتمع أو شعب أو دين أو حزب فهي علامة واضحة علىٰ وجود الاستبداد الفكري والعقائدي في ذلك المجتمع .

المجتمع الحي هو المجتمع الذي تفكر فيه كل العقول وهكذا هم البشر ، كلّ واحد منهم يفكر بشكل من الأشكال ويفهم الحقيقة الواحدة فهماً يختلف عن فهم الآخر ، ولكنّ اختلاف الفهم لدينا لا يعني بطلان ما أعتقد ولا بطلان ما تعتقد ، فالحقيقة واحدة وكلانا على الحق ، بيد أنّ الحقيقة صورت بصورة في ذهني بناءً على تصوراتي الخاصة وبنائي العقلي الخاص ، وصورت في ذهنك بصورة أخرىٰ بناءً على تصوراتك وبنائك العقلي الخاص ، ويبقىٰ كلّ واحد منا على الاسلام ، غاية ما في الامر أنّك تفسر الإسلام بغير ما يفسره الآخر والكل مسلمون ، لا انا زنديق

---

(١) قضية الوحدة الإسلامية حساسة في غاية الحساسية ولهذا دقّقت فيها كثيراً جداً تحمّلوني اذا ما اتعبتكم لفرط ما في الموضوع من حساسية فان هناك مسألتين حساستين جداً : الأولىٰ : قضية الحديث عن الصهاينة ، حيث يثير هذا الحديث الحساسيات فوراً ويفرض عليّ استقبال الرصاص من الأفواه على اختلاف أنواعها غاية ما في الامر بعناوين واسماء أخرىٰ .

الثانية : قضية الوحدة الإسلامية .. قضية لا تغتفر .

ولهذا أرجوكم أن تنتبهوا جيداً وتتحملوا وتصبروا لتجبروا ضعف بياني .

ولا انت .. انا افهم الامام الحجة فهماً يختلف عن فهمك ، وكلانا يؤمن به كل حسب مستوى عقله وتفكيره وعمقه وروحه ...

وهذه الفكرة غاية في الاهمية لا سيما للعاملين في حقول البحث العلمي في عالمنا المعاصر ، إنّها معجزة مثيرة لهم ولا أعلم حديثاً في الاسلام أعظم من هذا الحديث لحياة العلم واحياء روحه حينما قال* : إن كلا الطرفين مؤمن محقّ وإن اختلف فهم هذا عن ذاك ، بل حتى لو صار فهم كلّ طرف علىٰ حدي نقيض من الطرف الآخر ما داما يعتقدان بأمر واحد ويؤمنان بحقيقة واحدة فقد تعتقد بالله وتؤمن بعلي وانا كذلك ، ولكنك تفهم الله وعليّاً وتعطيهما معنى يختلف عني تماماً وحينئذٍ لا يخرج أحدنا عن حد الإسلام ، لا انت كافر مرتد ولا أنا ، وكلانا على الحق .

أنظر إلى التفاوت في الرؤى بين هذا السيد الذي يريد أن يسحق باسم الاسلام من أوقف حياته وشخصيته وشبابه وسعادته وشيخوخته وأسرته ، وضحىٰ بالجميع في سبيل المذهب ، لكنه إذا أخطأ وخرج عن الجادة قليلاً ـ لم يخرج عن جادة الحق طبعاً وانما خرج عن ذوق هذا السيد بالخصوص ـ فسوف لا يغفر له ذلك بل لا يطيق وجوده ، ولو كان الأمر اليه لنزع جلده صارخاً .. « لماذا قلت كذا وكذا » ..

(*) اشارة الى الحديث النبوي القائل : « لو علم ابو ذر ما في قلب سلمان لقتله » .

فيما نرى الرسول يقول : « لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان فقد كفر » أو « فقد قتله » سلمان .. أبو ذر .. لا يشك أحد بإسلامهما قيد أنملة .. كلاهما كان محبوب الرسول ، يحبّهما مثل عينيه وقد وشحهما أوسمة من درر كلماته في مدحهما .. سلمان ، أبو ذر .. شخصيتان معروفتان وعلامتان مشهورتان ، لم يقارن أحدهما بشخصية أخرىٰ حتى نقول إن التفاوت بين إيمانهما تفاوت عظيم يؤدي إلى هذه النتيجة ، وإنما قارن بين هذين العظيمين ، وكلاهما في ذروة الإيمان ، والنموذج الأعلىٰ للمسلم المثالي ، بيد أنّ الإسلام الذي يستوعبه قلب ابي ذر ويفهمه يختلف تماماً عن الإسلام الذي يستوعبه قلب سلمان وكلّ واحد منهما يفهم الاسلام فهماً يختلف عن فهم الآخر .. سلمان يفهم الاسلام ويفهم النبوة بشكل لو علمه أبو ذر لكفرّه فوراً ، وفي رواية لحكم بارتداده وقتله فوراً .. ومع هذا يبقىٰ أبو ذر وسلمان على الاسلام وكلاهما مسلم ...

وقيمة هذا الحديث تكمن في : اطلاق العنان للأفكار والعقول للتحرك بحرية تامة في ميادين الانطلاق والخلق والإبداع والتقدم والتربية الفكرية والمعنوية ، فها هو النبي شخصياً يؤكد ويقرر بأن الحقيقة الدينية ـ هذا في العقائد فضلاً عن القضايا العلمية ـ يمكن أن يختلف فهمها من ذهن إلى ذهن وتكون المسافة بين الفهمين واسعة الى حد المسافة بين الكفر والايمان ولكن يبقى كلا الفهمين في دائرة الإسلام ، على الحق ..

إعلان هذا المبدأ (مبدأ حرية التفكير وحرية البحث وحرية الفهم والاستقلال في الفهم) يحول دون التقليد العقلي والرتابة في التفكير عند كل عاقل فاهم ، وهو عامل مهم في التقدم والبناء ، ولو تيسر لهذا المبدأ الاستمرار والدوام في أوساط المسلمين لما تأخّرت القفزة الحضارية (التمدن) إلى ثلاثمائة سنة سابقة بل لسبقنا هذا التاريخ بألف عام .

وذلك لأن حضارة اليوم إنما تحققت والعلوم إنما تقدمت هذا التقدم وأسفرت عن كلّ هذه الكشوف والاختراعات وامتلكت كلّ هذه الأسرار ووضعتها فجأه بيد الإنسان ـ سواء كانت أسرار الطبيعة او الأسرار الخاصة بالإنسان ـ بفضل التحرر من قيود الرتابة في التفكير وعقال القوالب الفكرية المتجمدة التي كانت تحجّم العقول في القرون الوسطىٰ ...

لقد حرروا العقول .. وأعلنوا عن حرية البحث والتحقيق وقالوا :

لك أن تفكر بالطريقة التي تشاء في أي حقل تعمل فيه (في الدين او في الميكروب أو في الذرة ، الإنسان ، المخ ، العظام ، الفلسفة).. أي شيء اينما كنت لك أن تفكّر ولا تخف أحداً ، فليس هناك من يفتش عقائدك ويحرقك ويعلن عنك بوصفك مجرماً كافراً ، ويفسقك ويكفرك ويسلمك طعمة بيد العوام الغوغاء ... أنت حرّ في اختيار الحقل الذي تبحث فيه ، وحرّ في الوصول إلى النتائج ، وحرّ في الإعلان عنها حتى لو

خالفت النتائج العلمية لدى الباحثين الذين سبقوك ، حرّ في اختيار المنهج وطريقة البحث واستخلاص النتائج حتى لو خالفت السلف ... (هذا هو السر في الانفجار الحضاري وكل التقدم معلول لهذا الامر فقط لا غير) وهكذا انقرضت القرون الوسطى حيث كان البابا يفكر نيابة عن الجميع ، البابا والكرادلة من حوله يفكرون ويملون على الناس والجميع يكتبون[1] ...

إنّ العقل الذي لا يصطدم بالعقول الأُخرى وليس له منازع ، والفكر الذي ليس له خصم مخالف ينتهي إلى البلى والخواء ويعفي عليه الزمن ، تماماً كما هو قانون الصراع من أجل البقاء في عالم الحيوان ، ولو شاء الله لجعل الناس امة واحدة ـ كما يقول القرآن ـ ولكنهم كانوا أمة واحدة فبعث الله المرسلين فأثاروا الافكار واستخرجوا كنوز الفطرة ـ كما يقول الإمام علي ـ فانبعثت العقول من قبور الرتابة والتحجر كما تنبعث الأجساد ، فوجدت الحركة في محشر العقول والأفكار وقيامة العلم ، وحصل الاختلاف الفكري والصراع العلمي فانتج « القدرة » التي قضت على الباطل ونصرت الحقيقة وأثمرت « التكامل » واستمرت مسيرة التكامل حتى وصلت الثقافة والمعنويات إلى ما وصلت اليه اليوم .

---

(١) كان ثمة عقل واحد يفكر ويملي على الناس فيكتبون ، وهذا يعني أنّ العقل المفكر في القرون الوسطى كان واحداً لا غير ، ومن الواضح جداً ماذا سيكون محصول هذا العقل ! .

انتم جميعاً طلبة ـ حالياً او سابقاً ـ ويمكنكم التمييز بين صورتين سأعرضهما عليكم وتحديد الصف النموذجي منها :

لنفترض صفاً مكوناً من أربعين تلميذاً ولكل تلميذ مكان مخصص له ، فإذا دخل المعلم يقوم الطلاب جميعاً مرة واحدة ضمن نسق خاص ثم يجلس الجميع بنفس الرتابة والتنسيق .. صف منضبط تماماً (كما يحبه السيد معاون المدرسة عادة) ثم يبدأ المعلم بالإملاء والتلاميذ بالكتابة ، المعلم جهاز إرسال والتلاميذ جهاز استقبال ... فرد واحد يفكر في هذا الصف والباقي ذيول ، وهذا الصف ليس صفاً لأن الفكر فيه ميت ، جثة علم تنتقل إلى توابيت الأذهان .

هذه صورة ، والصورة الأخرى لصف حي ملتهب بالحركة والحوار يشتبك فيه المعلم وتلاميذه اشتباكاً فكرياً مستمراً .. كلهم يفكرون وبعد مضي عشر حصص أو عشرين ، ثلاثين حصة يشعر التلاميذ ـ نفس ذاك التلميذ الذي كان يصفرّ ويرتجف اذا استجوبه الاستاذ ـ أنهم يستطيعون الآن ان يصارعوا معلمهم فكرياً ويحاوروه ويناقشوه ... التلميذ ينمو في هذا الصف لا محالة ، يكتسب سخصية علمية ويصبح صاحب فكرة وموقف علمي ، ولا تمر الأيام حتى يصبح مجموع المفكرين فيه اربعين ـ تلميذاً ـ إضافة إلى المعلم .. واحد وأربعون مفكراً ، فيما يكون ذلك الصف ـ الصورة السابقة ـ بعد أربعين سنة عبارة عن واحد واربعين رأساً ،

ليس فيها الا عقل واحد والباقي نسخ مكررة لذاك العقل .

لماذا اصبحت الدكتاتورية بغيضة ؟ يقول روسو : « لأن النظام الدكتاتوري لا يفكر فيه إلّا واحد فقط والآخرون لا يحق لهم التفكير » وحينئذٍ يتحول المجتمع بأسره إلى جسد واحد لمخ واحد ، أمّا إذا أطلقت حرية القلم والتفكير فستكون العقول بعدد الأجساد ، لكل جسد عقل وتتكثر الشخصيات بتكثر الافراد ، وفي خضمّ هذا التصادم الفكري وتلاقح الآراء تنبثق الثقافة وتوجد الحضارة .. وهذا الكلام ليس خاصاً بي ولست أول من استفاده .

وهنا أشكلوا عليّ أيضاً قائلين : إنّ هذا الحديث لا يعطي المعنى الذي ذكرت ، فقلت : حسناً فما هو المعنى الذي يفيده الحديث ؟ قالوا : لا نعلم .. لا ندري .. اذا كنتم لا تدرون فلماذا الإشكال اذن ؟! واي معنى يمكن أن يراد من الحديث غير ما ذكرت حينما يقول : « لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله » .. هل يريد أن يقول : إنّ سلمان كافر ؟! إنّ أباذر لا يعي شيئاً ؟! إنّ أباذر مستواه واطئ وعامي لا يعرف شيئاً ؟! وإنّ سلمان عبقري جداً ؟! هل يريد أن يقول هذا أو أنّه يريد أن يقول : إنّ ثمة فهمين للإسلام يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً شديداً وتفصلهما مسافات بعيدة جداً ، ومع هذا يبقى كلٌّ منهما « إسلاماً » ؟ هل ثمة معنى آخر لهذا الحديث ؟

ويؤيد ذلك موارد أخرىٰ كثيرة منهما : « اختلاف علماء أمّتي رحمة » أو « إنّ في اختلاف علماء أمتي رحمة »[1] ، انتبهوا .. لم يقل : « اختلاف علماء أمتي مصيبة » ولا يقول : « لا بأس باختلاف أمتي » وإنّما يقول : « رحمة » وهذا قانون يدعىٰ قانون التنازع والتناقض وهو المحرك لكل تكامل والدافع لكل حركة .

وبناءً على هذا نعرف أنّ الأطروحة القائلة بضرورة الاتفاق على مذهب واحد نفهمه أنا وانت ضمن قوالب خاصة تصدر في بلاغات ويتلّقىٰ بالإملاء أطروحة غير علمية وان صارت شعاراً للمثقفين .

وهذا يعني أنّك انت العالم وانا العالم ، يتعامل كل واحد منا حسب طريقته ومستواه مع قضية السقيفة .. فقد تعتقد ـ باعتبارك مؤرخاً ـ أن علياً لم يعترض أيّ اعتراض في السقيفة ، فيما أعتقد أنا أنّ علياً اعترض وكان خلافه معهم شديداً بحيث اعتبرهم غاصبين كفاراً خارجين عن ربقة الإسلام .. فقد أكون محقاً وتكون مبطلاً وقد أكون مبطلاً وتكون محقاً ، وقد أغيّر رأيي غداً وقد تغير رأيك وقد نلتقي فكرياً وتتحد عقيدتنا ، المهم أن نكون أحراراً بالتعامل مع القضايا العلمية والمنطقية .. أحراراً في اختيار المنهج لفهم القضايا الدينية والعلمية ، أحراراً في إفاداتنا وفهمنا للدين

---

(١) روي هذا الحديث بعدة ألفاظ عن النبي وجاء في أسانيدنا أيضاً وروي في مورد واحد بلفظ « اختلاف أمّتي رحمة » بدون كلمة علماء ولا أظنه صحيحاً .

وقضايا الدين، نبحث عنها بحثاً علمياً تحقيقياً حرّاً ونسير قدماً في طريق التكامل والتطور.

فقد يقال ـ ودائماً يذكر هذا الإشكال ـ: إنّ الدين حقيقة فلا يجوز أن يعبّر عنها كل واحد بتعبير خاص.. أقول: إنّ الدين حقيقة ولكن يمكن لكل واحد أن يفهمها بشكل خاص، ألم تكن الطبيعة واقعاً عينياً؟ فلماذا اذن يفهمها كلّ إنسان بشكل خاص والطبيعة هي الطبيعة؟!

القرآن.. القرآن قطعة من هذا الوجود.. جزء من هذا الكون.. وجود كالمنظومة السماوية تماماً، والمفسر فيزياوي القرآن والمتخصص فيه، والمفروض أن يفهمه بناء على منهجه في البحث وطريقته في التحقيق والدراسة وافاداته الخاصة، والمفروض أن يترك حرّاً في فهمه وإفاداته...

قد يقول قائل: إنّي أعتقد بأئمة الشيعة ولكني اعتقد بعلي لأنه علي وارضى به وصياً للنبيّ لأنه علي ليس إلاّ، وأعتقد بالحسين كإمام ووصيّ لأنه الحسين... أؤمن بالحسين لأنه الحسين لا لأنه ابن الزهراء أو ابن علي أو سبط النبي، ولو لم يكن هذا الحسين يحمل تلك السمات والصفات لما آمنت به كإمام حتى لو كانت امه فاطمة وجدّه الرسول، لأني لا اعتقد به باعتباره فرداً من آل الرسول، فقد يكون من آل الرسول ولكنه ليس من أهله ـ كما في قصة نوح ـ إنّي أؤمن بالحسين إماماً وهادياً لصفاته الذاتية لا

لانتماءاته النسبية ، وهكذا في باقي الأئمة .

وقد يقول آخر : إنّ هذه الذرّية بعضها من بعض اختصها الله وانتجبها واصطفاها من دون البشر وخلقها من طينة خاصة وجعل لها نوراً ناصاً قبل الخلق ثم أودعهم في صلب آدم ...

وهذا القول يختلف تماماً عن سابقه ولكن لا يحق لصاحب القول الثاني أن يرمي الأول بالكفر ، ولا يحق لصاحب القول الأول أن يرمي الثاني بالرجعية والتخلف أبداً ، فكلاهما حرّ وكلا القولين حقيقة لا تتعدى حدود التشيع والإسلام .

هذا الاختلاف ضرورة ، فلو تصورنا تأسيس مركز موحّد يصدر بلاغاً رسمياً يلزم جميع العلماء والمفكرين بفهم الاسلام أصولاً وفروعاً ضمن إطار خاص وشكل معين ولا يحق لأي أحد أن يبدي رأيه ويخالف ما جاء في نص البلاغ فإنّ الاسلام سيتوقف ولا ينمو كثقافة وعلم لأن هذه الوحدة آية الموت الفكري وعلامة تجمد الشعور الديني .

التقدم الثقافي الإسلامي عامة والشيعي خاصة مدين أولاً وأخيراً للسنة الرائجة بينهم في قديم الأيام حيث كان العلماء منذ القدم يشتركون في حوار ومناظرات شديدة أدت إلى اصطكاك المدارس الفقهية والعلمية والفلسفية المختلفة اصطكاكاً شديداً فيما بينها ، فاستعد كلّ قوم للدفاع عن موقفه وتجهيز العدة لمقابلة خصمه ، فقوي وقوي هذا الخصم وتقدم

الجميع فصنعوا هذا التراث العظيم ، ولولا ذاك لمات فقهنا في تلافيف سنوات القرن الأول وتجمد فكرنا وتوقف حيث كان .

لقد قامت الدنيا على التناقض والصراع كما ذكرت ذلك مرة في إحدى محاضراتي ـ وسأعود إلى تفصيل ذلك في دروس « إسلام شناسي » المقررة ليوم الجمعة ـ :

إنّ أساس بناء الإنسان يقوم على التناقض : مركب من الله والشيطان ، الروح والتراب ، النفخة الشفافة والطين المتعفن .

وأساس العالم والتاريخ يقوم على التناقض أيضاً ، فمنذ اللحظات الأولى التي يلج الإنسان فيها أبواب التاريخ يدخل قابيل وهابيل .. يدخلان متحاربين ، وهكذا سيبقى الإنسان إلى آخر الزمان .

وأساس المجتمع يقوم على التناقض أيضاً : الصراع بين جناحين والقتال بين طائفتين ، الناس والملأ والعناصر الحاكمة ..

وأساس الدين يقوم على التناقض ايضاً : فحرب الدين ـ الدين قائمة مستعرة بلا هوادة ، ولم نر ديناً يحارب اللادين .

وبناء على ما مر يتضح أنّ التنازل عن الشعارات والعقائد التي اتخذناها أساساً لعقيدتنا الشيعية ـ باعتبارها عقائد خاصة توصلنا اليها من خلال البحث والتحليل التاريخي الاجتماعي ـ وفعلت أنت ذلك أيضاً

وتركنا كل خصوصياتنا وآمن بعضنا ببعض فإنّ هذا يعني موت التفكير والإنتاج العلمي[1].

ولقد تحجّمنا في تشيعنا منذ أن أصبحنا جميعاً مقلدين في القضايا العقلية والموضوعية ...

---

(١) كانت قبل أكثر من عشر سنوات جمعية في مشهد ذات قوة وجمهور ونشاط فاعل، وكان لدينا نحن أيضاً جمعية، بيد أنّها ضعيفة وافرادها قليلون وكانت فقيرة للغاية حتى إنّها تبقىٰ حائرة أحياناً بميزانية الشاي الذي يوزع فيها، والسبب في ذلك أنّ أفراد تلك الجمعية كانوا من الوسط الجماهيري الذين يدفعون المال برحابة صدر ويضحّون، أما جميعتنا الصغيرة فكانت مجموعة من السَّئِمين المتضجين المستعدين لإيراد آلاف الإشكالات والانتقادات وعشرات الاطروحات والاقتراحات في ساعة واحدة بشرط أن لا يدفعوا فلساً واحداً...

وعلىٰ كلّ حال كان مستوىٰ جمعيتنا من الناحية الفكرية يومها عالياً جداً، فيما كان مستوىٰ أولئك في الفهم العلمي واطئاً ولكنّهم كانوا متمكنين ونحن لا شيء!

فجاءنا أحدهم يوماً باقتراح لمشروع الوحدة الاسلامية (على غرار ما يفعله المثقفون) فقال وكأنه يشترك في إنجاز معاملة تجارية: إنّ مستواكم العلمي عالٍ جداً ونحن مستوانا واطئ جداً، ونحن نحتاجكم وانتم تحتاجوننا فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نرفع من مستوياتنا وتنزلوا شيئاً عن مستواكم.

وبهذا نحل الاختلافات ونمحو الفواصل ونتحد فيما بيننا. قلت: قد تتدرب وتقرأ وتتحمل المشقة ثم ترفع من مستواك، ولكن أن ننزل شيئاً من مستوانا فهذا غير ممكن، تماماً كما قال الشاعر التركي مخاطباً حبيبته: قولي لا تسمع سأصم أذنيّ، قولي لا تذهب سأهشم قدميّ، قولي لا تنظر سأقلع عينيّ ولكن لا تقولي لا تعقل، لا تفهم فإنّ ذلك خارج عن قدرتي. إنّ مستوى الفهم ونوعه ليتفاوتان دائماً مادام الإنسان وعقله يتمتعان بالحرية .. اختلاف وصراع وحرب ولكنها رحمة.

يا للعجب .. التقليد مبدأ من المبادئ الشيعية الراقية ، والتقليد من خصوصيات الإنسان ، فكلّ جاهل في أمر يرجع إلى المتخصصين فيه فيقلده سواء في قضايا الدين أو غيره ، ولكنه يبقى مسألة فرعية !

التقليد مسألة فرعية ، وبالرغم من ذلك تفاقم الأمر حتىٰ أخذ الناس يسألون من مقلديهم مسائل غريبة : مولانا هل آكل الأناناس أو لا ؟ مولانا هناك مسجدان هل أذهب إلى هذا أو أذهب إلى ذاك ؟ اي مسألة شرعية هذه والسائل يعيش في بلد والمسؤول في بلد آخر .. إنّ هذه الأمور قضايا عقلية موضوعية وانت صاحب عقل فلماذا هذا التنازل عن عقلك بحيث وصل الأمر إلى أن تسأل مقلّدك عن النظرية العلمية التي توصل إليها : هل أن هذه النظرية العلمية صحيحة أو لا ؟!

إنّ هذه المسائل لا علاقة لها بالتقليد لا سيما أنّ الضرورة الشيعية قامت على عدم جواز التقليد في الاصول والموضوعات العقلية ، ولو أنّه قلد في الأصول كان دينه فاسداً وعبادته باطلة .

وبهذا أصبح التقليد العقلي عبارة عن مصادرة لكلّ العقول ، وبدلاً من إسهام كلّ عقل في حركة التفكير البشرية وإثرائه لثقافة الأمة الإسلامية صار الجميع عبيداً لعقل واحد أو عقلين يفكّران للجميع في كلّ شيء والباقي عدم ! واذا ما بقي شيء من عقل في رؤوس الافراد فسوف تصادره الاستخارة ثم لا شيء ! واذا ما تجرأ أحد وغامر بقول أو استنباط أو رأي

بـديـد فالويل له وسرعان ما يحكم عليه بالإبادة ...

في حين أنّ الامر طبيعي جداً واكثر من طبيعي ، ولم يكن جـائزاً فحسب بل أكّد عليه القرآن أيما تأكيد ودعا اليه بإلحاح وحثّ على التفكر والتعقل والتدبّر دائماً .. فماذا يعني كلّ هذا التأكيد والحث ؟ .. هل هو خطاب خاص لطائفة معينة ؟ لجهاز خاص ؟ لافراد مـعدودين ؟ أو أنّـه خطاب عام لكل قارئ يتلو القرآن ولكلّ مؤمن به ؟

وحدة الفكر ووحدة البحث ووحدة العقائد موت للعقائد وتحجير للعقل وجمود للتفكير ليس إلاّ ، وعليه فالوحدة الاسلامية بمعنى وحـدة « التشيع والتسنن » مستحيلة ، وإذا ما اتحدا يوماً ما فـلابد أن يـتم ذلك تحت وطأة القوة والقهر أو يكون ناشئاً من فراغ الطرفين ، يـعني أنّـهما يفتقران لأبسط الموازين العقلية فيتنازل كل طرف للـطرف الآخـر عـن أشياء لا يعرفها فتتم المعاملة لتأمين مصالح الطرفين على حساب المبادئ .

يستحيل أن يتنازل الإنسان المفكر عن الفكرة التي اكتشفها من خلال البحث والتتبع والتحقيق العلمي المبتني على أساس العقيدة .. كيف يتنازل عن المبدأ الذي توصل اليه بالأدلة ؟ كيف يتنازل ؟ هل نستطيع أن نقرر بأنّنا سنفهم بشكل آخر ونقتنع قناعة أخرىٰ بدءاً مـن يـوم الاثـنين المقبل مثلاً ؟ نقرر .ن نفهم أقل ؟ او نفهم بمستوى صديقنا فلان ؟

الوحدة في « الفكر والعقيدة » مرفوضة مدانة ، ولكنّ الوحدة بين

الشيعة والسنة واجب إنساني فضلاً عن كونها ممكنة ومعقولة ، بل هي أهم الواجبات وأخطرها وتفرضه علينا ضرورات المنطقة والزمان وحتى الضرورات الطائفية ، وهذه الوحدة بديهية ولهذا سوف أكرر قولي : إنّ الوحدة بين « التشيع » و« التسنن » مستحيلة وغير معقولة ووقوعها يعني الموت العلمي لكلا الطرفين ، أما الوحدة بين « الشيعة » و« السنة » فمسؤولية وضرورة فضلاً عن كونها ممكنة معقولة .

فالاختلاف الفكري يؤدي إلى تصادم الأفكار وتحركها وتقدمها ووصولها إلى الحقيقة ، أمّا الاختلاف الاجتماعي فنتيجته التمزق وصيرورة المجتمع الاسلامي أوصالاً يبتلعها العدو بالتدريج ، ينبغي أن لا يخلط بين هذين الأمرين فكل واحد منهما شيء غير الآخر تماماً ، أمران متباينان لكل منهما مجال خاص به .

الوحدة الاسلامية بمعنى اتفاق المسلمين في نظرتهم إلى التاريخ الإسلامي ، إلى الشخصيات الاسلامية ، إلى الحركات والميول والخطوط والوجودات والحوادث الاسلامية ، وتوحيد الرؤية والعقيدة في كل شيء لا تعني سوى موت التفكير العلمي والإعلان عن رحيل العقل واحتضار الفهم والإدراك والاجتهاد العلمي والديني ... إنّ هذه الوحدة مستحيلة ولا يصح أن تقع ابداً .

وإنّ الشيعة لتفتخر أنُها لم تساهم في إيجاد وحدة من هذا القبيل ،

إلاّ أنّ الانحطاط الثقافي الذي ابتليت به أمة الشرق حال ـ وللأسف ـ دون الاستفادة من هذه الحالة ... فليكن الباحث حرّاً في بحثه واكتشاف نظرياته وآرائه والإعلان عنها أمام الناس .

❋ ❋ ❋

وبالرغم من اعتقادنا باستحالة الوحدة بالمعنى المذكور فإنّنا نعتقد بأنّ المجتمع الاسلامي قوة إنسانية وطاقة بشرية تجمعها قواسم مشتركة عديدة في العقيدة والأهداف والظروف والمصير ، وفوق كل ذلك في العدو المشترك الذي يتربص الدوائر للانقضاض على الأمة بكاملها ، ومن الطبيعي أن يكون هذا المجتمع قوة واحدة ، موقفاً واحداً ، ساعداً وقبضة واحدة لتقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في وجه العدو المشترك الغاشم .

يضرب الفلسطينيون فيشمت بهم قائلاً : .. مزيداً من هذه الضربات إنّها تثلج صدور الشيعة ! تسأل لماذا كلّ هذا الفرح والسرور ؟ يجيب : لأنهم أعداء أهل البيت ! أين هؤلاء من أهل البيت ؟ ما ذنب هؤلاء الأبرياء ؟ وهل يثأر لأهل البيت « بن غوريون » ؟ أيّ تشيع هذا الذي يرىٰ في « بن غوريون » و« موشى ديان » موعوداً منتظراً يثأر لأهل البيت ؟ !

تقصف المدن والقرى الإسلامية ويقول هؤلاء : إنّهم يدفعون

ضريبة ظلمهم لآل البيت !! لا يا سيدي إنّ هذه القضية لا علاقة لها بزيد أو بعمرو ، وإنّما هي قضية علمية تاريخية ترجع إلى فهمي الخاص أو فهمك الخاص ، ورأيي الخاص أو رأيك الخاص في مجال تاريخي فلماذا نقحمها في القضايا الاجتماعية* ؟

إنّك إن تك شيعياً فعليك أن تحارب ما حاربه علي ، وتضحي بحياتك من أجل الأهداف التي مضىٰ من أجلها علي ، وتستنّ بسنته وتنتهج طريقه وبهذا تكون شيعياً ، لا أن تلقي شركائك في الحظ العاثر في فم العدو وتغريه باعتبارك شيعي !! ... لو جاء علي اليوم هل يتخذ من هؤلاء أعداء ؟ ... لقد أخطأوا في تصوراتهم التاريخية ، وإذا ما اعتقد أحدهم بالخليفة فلان فإنّه يعتقد به كخليفة لرسول الله وصديق وليٍّ لعلي لا باعتباره عدواً لأهل البيت ، ولو اكتشف أنّه يعادي أهل البيت لهجره ، ولهذا عليّ أن انتشله من خطئه إن كنت ذا منطق .. عليّ أن أخرج صديقي من ورطة الاشتباه التاريخي ، هذا هو همّي وفي هذا سعيي ورسالتي ...

قسماً بالله لم يشترك هذا الرجل المسلم في عملية الهجوم على دار فاطمة لأنّه ولد بعد ألف واربعمائة عام مرت على الحادث وأنت تعلم ذلك

(*) يشير الكاتب هنا إلىٰ أفراد قلائل منغلقين وضيّقي الأفق كان لهم وجود في المجتمع الشيعي يومذاك . أمّا اليوم فإنّ تبنّي المسلمين الشيعة للقضية الفلسطينيّة وتأثير التحرك الإسلامي الشيعي في المجاهدين الفلسطينيّين علىٰ درجة من الوضوح لا يحتاج معها إلىٰ تعليق .

جيداً ، وتعلم جيداً أيضاً أن موقفك هذا لصالح من سيتم !

لقد ابتلي المجتمع الاسلامي بداء التفرقة منذ أن وصلت القوات الإسلامية إلى الحدود الاوربية وامتدت من أروبا الشرقية حتىٰ اسپانيا ، ووقفت سداً منيعاً وحصناً عزيزاً أمام غارات المسيحيين ـ في عصر الصليبيين وما بعده ـ التي داهمت الشرق باسم الدين طمعاً بالنهب ...

وجدت التفرقة تحت شعار إحياء القوميات والنعرات العنصرية والعرقية القبلية وتقطيع الأمة الاسلامية إلى أوصال يسهل على العدو ابتلاعها ، حتىٰ إنّهم كتبوا تقريراً في فرنسا يؤكد على أنّهم اكتشفوا أمراً جديداً في غاية الخطورة ! اكتشفوا أن الجزائريين ينتمون في الأصل إلى قوميتين بعضهم « بربر » وبعضهم الآخر « عرب » وعلى هذا يمكن إغراء العداوة بينهم وزجهم في طاحونة الاختلاف باسم « البربرية » و« العروبة » وبالفعل هجم كلّ فريق على الفريق الآخر فحكمت فرنسا مدة أطول ونهبت الفريقين !

ثم اكتشف الاستعمار أنّ الإسلام حدد الشعور القومي فضعف الشعور بالانتماء القومي والعصبيات العرقية إلى حد يصعب جداً بعثه من جديد في الأوساط الإسلامية ، فتمسكوا بالتفرقة الطائفية وركزوا على

الاختلافات المذهبية[1] ... وسأروي لكم نماذج تؤكد ما ذكرت :

سافرت صيف هذا العام إلى مكة والمدينة فالتقيت هناك بعض الأفراد العاديين ولكنهم كانوا متنورين ، فدعوني انا وصديقي السيد هاشمي لزيارة بيتهم فاستجبنا وذهبنا ، فلما دخلنا راستقر بنا المجلس أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فاثار إعجابي منطق أحدهم وكان سائقاً يعمل في سيارة اجرة عامة حيث كان بمستوى من المنطقية والعقلانية إلى الحدّ الذي استفدت منه الكثير من الإفادات العلمية[2] وانسجمنا في الحديث وعشنا لحظات من التفاهم الفكري والتلاؤم الاخلاقي وفي غضون حديثه قال أمراً إحمرّ له وجهي من الحياء ، قال : لقد تحسنت الحالة اليوم وأصبح الناس أكثر وعياً واتضحت القضايا أكثر .. انفتح الناس ، رأوا الدنيا وعرف بعضهم بعضا وصاروا يقرأون أكفّ المتصيدين بالماء العكر الذين ينثرون بذور الحقد والضغينة والفرقة بين صفوف المسلمين .

---

(١) أيتها السيدات ، أيها السادة إنّ هذه القضايا من أهم القضايا المرتبطة مباشرة بمصير أمّتنا اليوم بالرغم من كونها قضايا تاريخية ، ولهذا أرجو أن تتحملوا وتصبروا وان كنتم متعبين أو تشعرون بالجوع وقد انتهىٰ الوقت وأطلت عليكم في الحديث ولكن الهدف يستحق التضيحة ولو بهذا المستوى (المتن) .

(٢) ومن الخطأ الحكم على شعب بحكم واحد ومعاملتهم بناءً علىٰ نظام الحكم القائم هناك ، فإنّ هذا الحكم وهذه المعاملة ليست من الروح العلمية والإنصاف في شيء .

واضاف : إنّي أتذكر جيداً قبل سنين ـ ولا ندري ما اذا كـان هـذا الكلام موضوعاً مطبوعاً أو مطبقاً عملياً ، لا فرق في ذلك ـ أنّنا كنا نذهب إلى الطواف فنرى الشيعة يشترون الزبيب ويحشونه بالغائط ثم يـدخلون زحمة المطاف ويلقونه على الارض ، فيأتي فقراء مكة ليحملوه ظناً منهم أنّه طعام فيأكلونه أو يأخذونه إلى اهليهم فيفرح الشيعة بذلك فرحاً شديداً لأنهم تمكنوا من إفراغ شحنات الحقدالمتراكمة في قلوبهم من خلال إطعام « السنّة السيئين » من غائط الشيعة !!!

عجيب .. عجيب .. إنّه صدّق هذه القصة ويقول إنّه شـاهدها بأمّ عينه !! ولكننا نعلم جيداً أنّ أيّ شيعي مهما كان سافلاً منحطاً جـاهلاً لا يعمل هذا في بيت الله .. أيّ شيعي مهما كانت عداوته لأهل السنة لا يجرؤ على ارتكاب مثل هذا الفعل في الكعبة !! بل لا يمكننا أن نتصور موجوداً كهذا !! وهل يمكن أن يكون ؟! ليس هذا سوى مؤامرة محبوكة .. قاموا بهذا العمل في الكعبة وفي بيت الله ونسبوه إلى الشيعة لكي تتسع الفواصل وتكبر المسافات بين الشيعي والسني وعندها يستحيل عليهما التفاهم .. فاي تفاهم يمكن أن يحصل بين إنسانين تصل بهما الخصومة إلى هـذا الحد ؟

قد يلتقي خصمان يختلفان في القومية أو المذهب أما أن تصل الخصومة إلى هذا الحد فلا .

هذا من جانب ومن جانب آخر نرىٰ بعض المتظاهرين بالقداسة يجمعون عقائد « النواصب » في كتاب ويوزعونها في أوساطنا ، وكم يعانون في سبيل جمعها وترتيبها وتقديمها إلى الناس حتى يقتنع الشيعي أن جميع أهل السنة كالنواصب تماماً يعادون علياً وأهل البيت ويكفي أن يقال إنّ فلاناً ليس شيعيّاً ليثبت أنّه عدو فاطمة الزهراء وعدو آل الرسول .

وفي مقابل ذلك نرى عقائد « الباطنية » و« الإسماعيلية » و« الغنوصية » والعقائد الهندية في التعامل مع « پيشوا » و« القطب » و« الإمام » تطبع الآن باسم الشيعة وتوزع في الأوسط السنية .

في موسم الحج لهذا العام وفي تلك الايام التي يلتحم الحجيج فيها في زخم عاطفي وحب إلهي ملتهب ، ويشترك الجميع شيعة وغير شيعة في مراسم موحدة تكاد تلم الشمل وتخلق جو التفاهم توزع هناك كراسة مجانية بعنوان « الخطوط العريضة » جمع فيها المؤلف كل ما عثر عليه في كتب « العلي اللهيين »* وبعض الملالي الشيعة الشواذ المنبوذين المرفوضين عند علمائنا قاطبة ، ونسب ذلك إلى الشيعة قائلاً إنّهم يسبون أهل السنة ويسبون صحابة النبي الأعزاء ويتهمون عرض الرسول ... يا لها من فاجعة عظيمة .. يوزع هذا الكراس على الحجاج !! يا لها من مصيبة عجيبة !!

(*) طائفة تعتقد أنّ علياً إله والعياذ بالله .

توجد في المدينة (المنورة) كّليتان احدهما كلّية فقه والأخرىٰ كلّية الآداب ، وكان أن التقيت يوماً أحد طلابها الشباب وكان من المانيا جاء من هناك ليدرس الفقه فجرىٰ بيننا حوار سألته فيه : هل تعرف شيئاً عن الشيعة ؟ اجاب : كلا ، قلت : هل تعرف الامام جعفر الصادق عليه السلام ؟ قال : كلا ، قلت : فقل اذن انك جامع علوم المعقول والمنقول طراً فلماذا لا يعطونك شهادة التخرج إذاً ؟! انت تدرس في كلّية الفقه الاسلامي ثم لا تعرف شيئاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ؟! ثم قلت له : إنك لم تسمع شيئاً في التاريخ عن شخص أو حزب أو مكان أو دين أو طائفة أو أي شيء آخر يدعى بالتشيّع ؟! قال : أوه ! تقصد الايرانيين وامثالهم ؟! قلت : نعم ، قال : لربما سمعت . قلت : طيب ماذا سمعت ؟ قال : كل ما أعرفه عنهم أنهم لا يؤمنون بنبوة النبي ليس الّا !

وفي مسجد النبي ينتصب هناك علماء اذا رأيتهم حسبتهم يمتلئون بالعلم امتلاءً ويفيضونه فيضاً ، ولكني سمعتهم يقولون شيئاً ما سمعنا به أبداً بل لم يسمعه أشد الشيعة جهلاً وأقلّهم علماً يقولون : إنّ الشيعي اذا أتم صلاته ضرب ثلاثاً على فخذه وحرك راسه يميناً وشمالاً وزمزم قائلاً خان الامين ، ثلاثاً اثناء أداء السلام على النبي ـ وهو انما يسلّم على النبي تقيةً ـ ...

وماذا يعني قوله « خان الامين » ؟ يعني أن الله بعث جبرئيل الى

علي لينزل عليه سورة « اقرأ » ولكن جبرئيل خان الامانة ونزل بها علىٰ صدر النبي ، وكأن بينهما علقةً وشيجة أراد أن يصفي حسابه مع علي بناءً على اتفاق مسبق ورشوة مدبرة أهداها رسول الله لجبرئيل اذا انحاز اليه !

قلت : اجل اشتبه الأمر علىٰ جبرئيل في المرة الأولىٰ فما باله يفعل ذلك مراراً ويكرره على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ؟ ثم اذا خان في المرة الأولىٰ فلماذا لم يحاسبه الله ويأخذ بتلابيبه ويعزله عن المهمة الموكولة اليه ؟ انّهم يريدون أن يتهمونا بأنّنا نسبّ جبرائيل الامين ، ولهذا كلّما رأوا شيعياً مسكيناً يسلّم في مسجد النبي أو في مكة ينظرون اليه شزراً ويقولون لابد أنّه يكرر « خان الامين » ، لو تمكنّا منه لنزعنا عنه جلده !!

هذا هناك ، وإذا جئت هنا تجد جميع الاتهامات والشتائم التي كالها اليزيديون ـ ولا زالوا في سورية يوالون الأمويّين إلى يومك هذا ـ والوهابيون والنواصب إلى الشيعة تطبع وتوزع بين الشيعة باسم جميع المسلمين .

أتركوا هنا وهناك واستمعوا ما أقول :

الآن وفي هذه الساعة تجد مكانين مقدسين في مصر « مسجد رأس الحسين » و« مسجد السيدة زينب » ، السيدة زينب التي لا تعرف انت أيها الشيعي أين هي الآن ، لأنك فقدتها منذ عصر عاشوراء فضاعت عليك أخبارها ، ولكنك إذا ذهبت إلى مصر تجد هذين المقامين المقدسين

يحترمان ويزاران بما ليس له نظير عندنا نحن الشيعة .

وقد شهدت السنين الثلاثون أو الاربعون الأخيرة جيلاً من الكتاب غير الشيعة في مختلف البلدان الإسلامية تناولوا قضايا التشيّع وسجّلوا مؤاخذات حادّة على أبي بكر وعمر وعثمان لصالح علي ومدحوا الشيعة ودافعوا عن الاتهامات الحاقدة الموجهة ضد المسلمين وضد علي وضد الشيعة ، وألّفوا كتباً عن الائمة فرداً فرداً وعن أصحابهم بل حتى عن الشخصيات الشيعية الهامشية فأجالوا أقلامهم وأثاروا مكامن البحث والتحقيق بما لم نصل اليه نحن لحد الآن حيث إنّنا ـ في ايران ـ نتحدث عن علي دائماً ، ولكننا لم نقدم واحداً بالالف مما قدمه أولئك في العشرين عاماً الاخيرة من عمل علمي ونتاج تاليفي .

امرأة أستاذة في جامعة عين شمس كتبت ـ لانها امرأة ـ عن نساء النبي واحدة واحدة ، وكتبت عن بنات النبي وبنات الامام علي ، كتبت عن زينب ، عن أم كلثوم ، عن فاطمة ، عن سكينة بنت الحسين كلّاً علىٰ حده ، وكتبت بحوثاً مستقلة علمية تحقيقيةً ظهرت لاول مرة بهذا اللون الذي لم نجده لحد الآن حتى في أوساطنا .

وأخيراً صدرت هنا عدة كتب وكمثال على ذلك نذكر كتاب « شرح زندگی قمر بنی هاشم » . (حياة قمر بني هاشم) ، تفتح الكتاب فتواجه أولاً حياة المؤلف ! ثم « صورة المؤلف في مكتبة السيد الوالد » ثم

« صورة المؤلف في الحرم إلى جانب السيد نائب الكليدار » ثم ابياتاً شعرية في مدح المترجم له ! هذا هو الكتاب الذي ألّفناه حديثاً !

لم تجد كتاباً واحداً عن فاطمة الزهراء ـ من نتاج اقلامنا ـ نافعاً مفيداً موثّقاً ، ودعك عن التوثيق وكفانا أن يحتوي نثراً مقروءاً أو جملة صحيحة محررة بلغتنا لا بلغة لا يفهمها العربي ولا الفارسي أو تحتاج أن تتعلم جميع لغات العالم حتى تفهمها .

هات ان وجدت كتاباً واحداً مقروءاً نافعاً !! هات إن كان !

كرّهوا كل فريق إلى الفريق الآخر فكما عرضونا كاعداء للنبي والقرآن والاسلام وطبّلوا أن التشيع ملجأ حصين يضم المخالفين والمعاندين والزنادقة والمنوية والزرادشية وينمّيها للوقوف بوجه الاسلام عبر التاريخ ، كذلك صوروا أولئك كاعداء لأهل البيت فيما قام نخبة من المؤلفين الكبار بعملية جنّدوا فيها وجودهم وأقلامهم للدفاع عن أهل البيت وألفوا آثاراً علمية في التعريف بهم ، ولو أننا وفقنا لترجمة ما كتب في العشرين سنة الأخيرة إلى اللغة الفارسية فإنّنا نقدم بذلك خدمة كبيرة للشيعة .

« أبو ذر » كتب عنه « عبد الحميد جودة السحار » ، وأبو ذر الرجل الأول الذي هبّ لنصرة علي وقاتل دونه وهو من الصحابة الكبار ، وقف بوجه عثمان وأحبّ علياً ، ودافع عن التشيع وذبّ عن الإسلام الحقيقي

واستشهد في هذا الطريق، ونحن مع كل ادعاءاتنا العريضة في التشيع وإحساسنا بالانتماء والمسؤولية تجاهه، لم نكتب أي شيء عنه، أيّ شيء ولو كان سطراً واحداً يكشف عن هويته الشخصية .. من كان ؟ ومن هو ؟ الا أن « عبد الحميد جودة السحار » ألّف عنه كتاباً وتُرجِم قبل عشرين عاماً إلى اللغة الفارسية ـ ومترجمه صبي وليس واحداً من السادة الكبار ! ـ وإلى هنا يعقم العمل !

« سلمان » كتب عنه « ماسينيون » وترجمه بشق الأنفس « عبد الرحمن بدوي » السنّي .

« بلال » كتب عنه أخيراً خمسة من المؤلفين وطبعوا نتاجاتهم .

« الإمام علي وأبناؤه » كتب عنه كتّاب كبار ومؤلفون معروفون من أمثال « طه حسين » و« السحار » و« حميد منصور » وأمثالهم، ولم يكتب عنه الكتاب المغمورون المتلعثمون الذين لا يقوون على كتابة رسالة بنصف صفحة لعمّاتهم ولكنّ أيديهم امتدت الآن الى الأقلام فصاروا كتّاباً وفاحت روائح الفضيحة !!

✵ ✵ ✵

إنّ هذا الاختلاف الموجود بيننا تماماً على العكس مما ينبغي أن يكون : المفروض أن يكون فكرنا وفهمنا العلمي في صراع دائم مع

السنّة .. المفروض ان يستمر الصراع العلمي والفكري والثقافي ويكثر الحوار وتكثر المناظرات واختبار الآراء والنظريات ونجهد أنفسنا في البحث والتحقيق والفحص والتنقيب المستقل والاجتهاد المستقل بحثاً عن جديد ، ونجتنب التجمد في قوالب فكرية متحجرة والتنافر العلمي المانع من اللقاء والتماس والاحتكاك ، ولكن مع هذا نحتفظ بوحدة الموقف اجتماعياً ، اختلافات وصراع فكري علمي ووحدة اجتماعية أمام العدو المشترك ، اما اليوم فبالعكس من ذلك تماماً ، أموات ساكنون هامدون جامدون فكرياً ، مقطعون ممزقون يقابل بعضنا بعضاً مولّين الدبر للاعداء[1] ...

الطريق الثالث :

الطريق الثالث هو أن نحافظ على أصولنا العقائدية الشيعية وتبقى اختلافاتنا الفكرية والعلمية مع أولئك ولكننا في نفس الوقت نكون معهم أخوة في أسرة واحدة وساعدين لجسم واحد ، نقف معاً في موقف واحد ضد عدونا المشترك . هذا هو الشعار الذي رفعه أول ما رفعه علي والطريق الذي كان أول من رسمه شخص علي بن أبي طالب ..

---

(١) آسف إنّ الوقت لا يسع حتى استعرض لكم الموضوع بالشكل الذي كنت أودّه بحيث استرسل في المقدمات واستخلص النتيجة (المتن) .

علي يقعد في بيته ويسكت .. يجلس ولا يصلت سيفه في وجه خصومه ، لأنهم خصوم في الداخل ثم يبايع ثم يشارك في جماعتهم ، ويشير عليهم في الحروب بما فيه خيرهم وصلاحهم كما حدث أيام فتح بلاد فارس حينما انكسرت القوات العربية والاسلامية أول الامر ، فاراد عمر أن يخرج إلى الحرب بنفسه فمنعه الإمام علي وقال له : إنّك رأس الجيش فإذا قتلت هناك تفرّق الجيش ولم تبق له باقية ، اثبت في مكانك فإنّ العدو سيعلم أن للجيش ظهراً إذا ما هزم .. هذه نصيحة ومشورة خير وصلاح . أضف إلىٰ ذلك أنّه كان يجالسهم ويعاشرهم ويجاملهم ولم يسمح ـ ولو مرة واحدة ـ أن يكون الخلاف بينهم سبباً يستفيد منه العدو أو عاملاً مساعداً علىٰ غرس جراثيم النفاق والاختلاف والتجسس والصراع الداخلي وبالتالي انهيار الوحدة الاسلامية الفتية لصالح القوى الاجنبية أو اجنحة النفاق الداخلية المعادية للاسلام .

وبالرغم من كل هذا نراه ـ كما رأيناه إلى آخر عمره ـ لم يتراجع قيد أنملة عن أصوله العقائدية ومبادئه التي آمن بها ، رأيناه ينتقد ولا يغض الطرف قط ، ورأيناه يرفض سيرة الشيخين ويطوي عن الخلافة كشحاً ويوقّع على موته ثمناً لرفضه سيرة الشيخين ... وهذا إن دلّ على شيء فانما يدلّ على أنّ علياً يبقى دائماً وأبداً وفيّاً لرسالته ، وخطه الخاص ، وفهمه الخاص للاسلام ، وطريقه المحدد ، ومنهجه المستقل الذي ارتضاه لنفسه ،

ويبقىٰ مصرّاً على مواقفه ومعارضته واقتراحاته وآرائه ونظرياته وخططه وأهدافه التي رسمها للمجتمع ، والحدود التي تفصل بينه وبين خصومه ، ويدافع عن ذلك دفاعاً مستميتاً مهما كانت الظروف ومهما كلفه الأمـر ، ولكنّه يضع في نفس الوقت يده في يد خصومه ليـقفا فـي وجـه العـدو المشترك .. يضع يده في يد الخصم الذي غصبه حقه وتجاسر على أهل بيته وأهانهم واعتدىٰ عليهم ويصير مع خصمه يداً واحدة ضد العدو بحيث لم يتنبه الروم ولا الفرس ولا المنافقون الكبار ـ الذين كانوا يحلمون بحمل شيء من تراب المدينة إلى بلدانهم ـ بوجود ذلك الاختلاف العميق داخل المدينة .

شخصية كعلي يغتصب حقه ويُضيّع فيصبح جليس داره ثم لا ينبس ببنت شفة ولا ترىٰ لظليمته أيّ انعكاس في الوجه الظاهري للمجتمع ، ولا يثير الرأي العام ، ولا يحزّب القوى بشكل يصور المدينة للعدو كمرجل ينفجر أو يكاد .

ينفىٰ أبو ذر أمام عيني علي الفارس المقدام ويرحّـل إلى الربـذة ليموت وحيداً غريباً ، ولا يصعّد علي الموقف أكثر من الاعتراض والانتقاد والصدام المحدود ، لأنه كان يعلم أن هناك فـورات تحت الارض وجمراً تحت الرماد وأيادي خبيثة تتربّص الدوائر بـالمدينة لتـنقض عـليها فـي لحظة ، فإذا أضرم علي النار انتهى كلّ شيء وباد كلّ شيء .. كلّ شيء .

إنّ ثمة تشيّعين ـ كما ذكرت في بحث الوحدة والتفرقة الاسلامية ـ أحدهما تشيّع صفوي ـ تشيّع أبي سفيان ـ والآخر تشيّع علوي ، تشيّع الوحدة (تشيّع وفي ذات الوقت التزام بالوحدة) .

يدخل أبو سفيان علىٰ علي بعد اغتصاب الخلافة ويؤلّبه والعباس على الغاصبين صارخاً فيهما : قوما إلى حقكما ولا تقعدا للذلّ ولا تسكتا عن حقّكما ، ثم يوجّه الكلام للإمام علي قائلاً مدّ يدك أبايعك ولو شئت لأملأنّها ـ يعني المدينة ـ عليهم خيلاً ورجالاً دفاعاً عنك وعن حقك[1] .

فأجابه علي : إنّما يتحمل عبء العشيرة مطيّها وإنّما يتحمل الطرق المسمار ليرسخ ويرسخ من حوله ثم لا يرثيه أحد . ابا سفيان لقد طال عداؤك للاسلام ، إذهب لا حاجة لي بخيلك ورجلك .

انما صبر علي لهذا السكوت الموجع خمسة وعشرين عاماً ليحفظ الوحدة أمام صفوف العدو الداخلي والخارجي من أمثال أبي سفيان والقياصرة والأكاسرة .

ومن هنا تراني اعتقد بأنّ بقاء الاسلام رهين سكوت علي وصبره اكثر من كونه رهيناً لسيفه وجهاده ، لأنّ الدين قام بسيف علي وما بقي الّا

---

(١) كان أبو سفيان جديد عهد بالاسلام لم يمض على إسلامه اكثر من سنتين أو ثلاث ـ منذ فتح مكة الى وفاة الرسول ـ وكان لا يزال يتمتع بنفوذه في قريش ولا يزال شخصية عربية كبيرة .

بسكوته وصبره وتحمله ، فقد كان لسكوته أبلغ الأثر في استمرار الدين وبقائه .

إنّه المؤسس الأول لمبدأ إبقاء الاختلافات العقائدية والذب عن العقائد امام الخصم الداخلي ووحدة الطاقات الاجتماعية الداخلية أمام العدو الخارجي .

تشيّع علي ليس تشيّع التفرقة إنّما هو تشيّع الوحدة ، وليس تشيّع المساومات والتنازل عن المبادئ والأُصول رعاية للمصالح السياسية والاجتماعية ، وإنّما هو تشيّع الصمود والدفاع عن الحق .

* * *

مما يؤسف له أنّنا نرىٰ سهام الاتهام ترشق مؤسسة الإرشاد بلا هوادة منذ أن بدأنا بذكر جرائم الصهاينة وما يرتكبونه من جرائم في حق المسلمين[1] ، ومنذ أن نادينا لتوحيد الصفوف بين السنة والشيعة ـ ولم نقل توحيد التسنن والتشيّع ـ للوقوف بوجه الصهاينة والمستعمرين .

دعوت للوحدة ورصّ الصفوف بين السنّة والشيعة في حين أنّني كتبت وحاضرت اكثر من أي فرد أخر عن اصول الشيعة ومبانيهم ومعتقداتهم ، بيد أن الحساسيّة المفرطة التي واجهت دعوتي كانت علىٰ

---

(١) هذا يؤكد ما قاله السيد البلاغي في حديثه عن الصهاينة (المتن) .

درجة من العنف الذي لا يكاد يصدّق .

سجلت علي فقرة في « اسلام شناسي »* ما غفروها لي قط .. لا أدري أي جريمة ارتكبت حين قلت : إنّ النبي حسنت حاله مرة وهو في مرض موته وكان قد امتنع عن صلاة الجماعة أياماً لما به من مرض وكان أبو بكر يصلي بالناس ـ اكثر من يوم ـ فلما أن صار الظهر وكان ابوبكر واقفاً للصلاة رفع النبي طرف الستار ـ وهذه هي عبارتي التي لم تغتفر ، أرجو التمعّن فيها ولا أدري لماذا كلّ هذا الهلع والخوف من وحدة المسلمين ـ فتبسّم فرحاً لمّا رأىٰ مسجده والناس فيه مرة أخرىٰ ورأى المسلمين في صفّ واحد يحتفظون بوحدتهم مع غيابه ...

هل يعدّ قولي هذا جريمة ؟! .. هل ارتكبت جريمة لأنني قلت إنّ المسلمين جميعاً كانوا يصلّون بصلاة أبي بكر ؟

حسناً أنا معكم في أنّ صلاة أبي بكر باطلة ، ولكنني لم أقل إنّ رسول الله فرح لما رأىٰ ابا بكر يصلي ، وإنما أقول إنّه فرح لما رأى المسلمين يحتفظون بجلالهم ووحدتهم حتى في غيبته .

« الوحدة » .. « الوحدة » هذا هو السهم الذي يصيب قلبه والألم

(*) مجموعة محاضرات ألقاها المؤلف في جامعة مشهد وحسينية ارشاد في طهران تعالج مواضيع التاريخ الاسلامي ومعرفة الإسلام ومبادئه الاساسية وقد طبعت في عدة أجزاء من مجموعته الكاملة .

الذي يتضور منه ! لأن تشتت هذه الطوائف وتمزقها قطعة قطعة ضرورة تيسّر على الاستعمار ابتلاع الأمة أوصالاً سهلة ، وتيسّر علىٰ هؤلاء التسلّط على الرقاب . لأن من يكون « عمدة » في قرية صغيرة يضيع إذا اتسعت وصارت مدينة كبيرة فلا يبقى له عين ولا أثر ، ولهذا يحب أن يقتتل الناس على إمامة الجماعة حتى إذا رفع الرسول طرف الستار رأىٰ ثمانية عشر إماماً كلّ منهم أخذ زاوية من زوايا المسجد وجمع حوله شلّة من الأفراد واختلطت أصوات المكبرين هذا ينادي بالركوع وذاك ينادي بالسجود وهذا يرفع صوته بافتتاح الصلاة وذاك باختتامها ، هذه هي الصورة المفضلة لدى هؤلاء وبهذا كان الرسول يفرح ويرضىٰ !!!

أجل كان ثمّة لعبة ومكر واحتيال وقد ذكرت في نفس الكتاب أن النبي أراد ارسال علي لإمامة الناس فوقف أولئك الثلاثة أمامه مستفهمين عن الموقف والنبي لم يتخذ القرار بعد وقف ابو بكر للصلاة بناء علىٰ سياسة ـ مقررة من قبل ـ اعتمدت الأجنحة والأيادي ، وكان لعائشة دور في القصة ، والهدف الاستراتيجي لهؤلاء جميعاً هو تضييع حقّ علي وعزله بل التعتيم عليه .

اني أومن بهذا وكلّه صحيح وقد عرضته بهذا الشكل ، ولكنّ علياً يعطينا هنا درساً لا يضاهيه درس ، حين يغض النظر عن حقّه ويكظم غيظه ليقول : إنّي علىٰ علم بالمؤامرة وما فيها من احتيال ومكر والتواء وما تؤدي

اليه من تضييع حقّي ، وإنّي أرىٰ الإنتهازية السياسية بأمّ عيني ولكني اسكت للخصم وأصبر على مضض ولا انازع خصمي على إمامة الجماعة ، واتغافل عن هذه الحيلة والتعدي على الحقوق حفاظاً على وحدة المسلمين لا في المسجد فقط ـ وهو رمز الوحدة ـ وانما في الامة مطلقاً اينما كانت ومتىٰ كانت .

كان بوسع علي أن يجمع حوله أبا ذر وبلالاً وصهيباً وعدة آخرين ويتخذ مكبراً وهكذا يفعل آخر وآخر وآخر ، ولكن هذا المنظر إدانة للمسلمين وعلامة على الضعف وعدم الرشد وآية علىٰ الأنانية وتقديم المصالح الشخصيّة على المصالح العامّة والاهداف الكبرى ، ولهذا يتّخذ علي ذلك الموقف العظيم ليثبّت أنّه يغض الطرف تماماً عن حقّه ويصبر أمام المعتدي الداخلي ليحتفظ بوحدته مع هذا الخصم المعتدي في الداخل ، ويقفا معاً ضدّ العدو الخارجي الذي يهدّد الوجود الإسلامي من الأساس .

فعلي ـ إذاً ـ رمز الوحدة ... وأي وحدة ؟

الوحدة التي يلتزمها بالرغم من كلّ ما تحمّله من معاناة وعذاب وألم ، وبالرغم مما شاهده من خيانات وغدر واحتيال وتآمر من الأصدقاء والاقرباء ورفاق السلاح حتىٰ وصل الأمر بعثمان أن يتّخذ من مروان ـ طريد رسول الله ـ وزيراً أول ، فيصدر الأمر بنفي ابي ذر ويخرج علي

لتوديعه فيتدخل مروان ليصد أمير المؤمنين عن التوديع ... ومع هذا يصبر علي ... يتحمّل كل هذه الصعاب والآلام ويسكت خمسة وعشرين عاماً ... خمسة وعشرون عاماً من السكوت .. لماذا ؟

لتبقىٰ هذه القوة بالرغم مما فيها من فجائع ، وتنطوي عليه من تضييع للحق واحتيال وانتهازية .

هكذا يتنازل في المواقف الاجتماعية ولكنه يصمد ولا يتزحزح عن مبادئه وأصوله ، يتمسك بالتشيّع ولا يتراجع عنه قيد أنملة ولا يداهن ولا يساوم على العقيدة ، وإنّما يقول كلمته ويوجّه انتقاده مهما كانت الظروف ويبقى وفيّاً راسخاً ثابتاً مهما كلّفه ذلك .

وهذه دروس حيّة ، وخصومات وحالات يبتلىٰ بها الأفراد جميعاً ويحتاجها كلّ فرد وكلّ نهضة وكلّ فكر .

ولهذا نقول :

« عليٌّ مؤسس الوحدة » .

وقد تحمّل وضحّىٰ في هذا السبيل أكثر من أي شخص آخر فأسس وحدة تحت هذا الشعار :

« الوحدة بين التشيّع والتسنّن مستحيلة ، أمّا الوحدة بين الشيعة والسنة أمام العدو ففرض واجب » .

والســلام

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة